

مُحَمَّدْ بْنُ عَلِيٍّ الْغَزَالِي

من مقالات الشيخ الغزالى

«الجزء الثاني»

جمع / عبد الحميد حسين حسن

طبعة جديدة ومحققة

37



العنوان: من مقالات الشيخ (محمد الغزالى) الجزء الثانى.

المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .

جامعة: عبدالحميد حسانين حسن .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يناير 2005 .

رقم الإيداع: 2004 / 3474

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2626-5

الادارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

ت: 3466434 (02) - فاكس: 3462576 (02) ص.ب: 21 إمبابة

البريد الإلكتروني للادارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطباع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر

ت: 8330287 (02) - فاكس: 8330296 (02)

البريد الإلكتروني للمطباع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة -

القاهرة - ص. ب : 96 الفجالية - القاهرة.

ت : 5903395 (02) - فاكس: 5908895 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222

البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)

ت: 5230569 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف

ت: 2259675 (060)

موقع الشركة على الانترنت:

www.nahdetmisr.com

موقع البيع على الانترنت:

www.enahda.com

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع

www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.



المقدمة

يعد فضيلة الشيخ / محمد الغزالى من أبرز علماء الأمة الإسلامية ومفكريها بالقرن العشرين الذين أثروا الحياة الدينية والفكرية بأرائهم المتتجدة في سبيل تنوير وتبصير المجتمع المسلم بأمور دينه .

وقد كان لآرائه وأفكاره الدينية المتوازنة بين إصلاح الإنسان وإعمار الدنيا وإعمار الآخرة أثره البالغ في إحياء وبعث الروح الدينية الصحيحة في نفوس العديد من المسلمين ليس فقط بمصر أو العالم العربي وإنما على نطاق العالم الإسلامي بأسره .

وقد كان أهم ما يتميز به فضيلة الشيخ المجدد / محمد الغزالى جرأته في الحق حتى أصبح رائداً لمنهج يعتمد على الفهم الصحيح للنصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة وسيرة السلف الصالح والمصلحة العامة للمسلمين ومتطلبات العصر .

ولهذا ، فقد اتفق من اتفق معه وانختلف البعض حول آرائه وفتواوه العصرية ولكن من المؤكد أن الجميع قد انجذب لسحر بيانه ووضوح حجته .

ومن خلال ذلك الزخم الهائل من تراث فضيلة الشيخ / محمد الغزالى قام الأستاذ / عبد الحميد حسانين حسن بجهد طيب في جمع المقالات غير الدورية التي قام الشيخ بنشرها في كبرى المجلات والدوريات بأنحاء العالم الإسلامي عسى أن ينتفع المسلمون بأرائه وأفكاره .

وقد عنيت دارنهضة مصر بنشر هذه المقالات في أجزاءها الثلاثة ؛ رغبة في الحفاظ على تراث الشيخ الجليل .

المسلمون في أسوأ أيامهم ولكن يوم الإسلام.. قادم

بعد هذه الغاشية التي دهت البلاد العربية بغزو العراق للكويت ، وال الحرب الضاربة بين القوات المتحالفـة والجيش العراقي .. وما خلفته هذه الأزمة القاتلة من آثار عنيفة مدمرة للكويت والعراق ومؤثرة أكبر التأثير على الموقف العربي والإسلامي العام ، وموقف الرأي العالمي من العرب وذلك الغبار الكثيف الذي ثار في مختلف وسائل الإعلام الدولية عنعروبة والإسلام ، وذلك التغيير الكامل الشامل الذي يطرق أبواب العالم العربي والإسلامي والذي تتطلع إليه الشعوب في كل مكان – كان لا بد لنا أن نستلهم رأي العلامة الإسلامية الكبير الشيخ محمد الغزالى فيما يدور حول الحضارة الإسلامية ، وموقف الأمة الإسلامية من الأحداث والتطورات الخطيرة ، وتشخيص دواء العالم الإسلامي المعاصر ، وأنجح الوسائل للأخذ بيده والخروج به من أزمته والعمل على إعادته إلى طريق الحق والصواب .

وللإمام الغزالى تاريخ طويل في الدعوة الإسلامية ، وقد تولى التدريس في العديد من جامعات العالم الإسلامي ، وأثرى المكتبة الإسلامية بعشرات الكتب المهمة التي تميزت بالانتشار والذيع وإقبال الناس عليها بتقدير كبير ، وقد أجرى الحديث معه محمد عبدالشافى القوصى مندوب «رسالة الإسلام» .

* فضيلة الشيخ محمد الغزالى : يقال إنه لا بد من بقاء قوات أجنبية ترابط في البر العربى أو تسبع في البحار حتى بعد انتهاء أزمة الخليج الراهنة!! فما رأيكم في ذلك؟

** إن القوات الأجنبية جاءت نجدة مؤقتة ، ودعمًا عارضًا عابراً ، وإنه إذا ذهب الخوف واستقرت الأوضاع فلا مساغ لها ولا معنى لوجودها ، وإن الاحتيال على بقاء القوات بعد انتهاء أسبابه هو عدوان جديد من خصم ماكر .

وقد يفقد الوجود العسكري الأجنبي بختلف دوله أى سبب لاستمراره إذا أبصر



العراق وكف عدوانه على غيره ، كما أن هذا الوجود ينبغي أن يتلاشى إذا انهزم الرئيس صدام وانكسرت قواه ، وانفكك القيود التي وضعها في عنق الأحرار وترجعت جيوشه عن دولة الكويت التي اجتاحها عنوة .

ونحن نعلم أن أبناء عبدالعزيز آل سعود رجال شرفهم الأول هو الانتقام الإسلامي النقى ومواريث البطولة من أب خاصم الجبروت وعاش حمى الأنف ، وعزيز الجانب ظل طوال عمره يخاصم الاستعمار ويناصر الأحرار .

إنهم يستحيل أن يقبلوا احتلالاً أجنبياً ، أو يقيموا في أنحاء الجزيرة قواعد لهذا الاستعمار المتربص الكفور .

* ما رأى فضيلتكم فيما يتrepid الآن على الساحة بأن هناك «مؤامرة» أمريكية –
صهيونية وراء أحداث الخليج؟!

** ليس هذا بجديد على تاريخنا وعلى أمتنا العربية والإسلامية ، فإن الخطة التي وضعتها القوى المعادية للإسلام نفذت بدقة وبراعة ؛ لتوفير الفرص أمام إقامة إسرائيل الكبرى على عجل وفي صمت . إن دولة «ما» هي التي أفهمت العراق أن بتروله يسرق من الأرض المتنازع عليها ، وهي التي هاجته ليتحرك وأعطته الضوء الأخضر ليمر .

فإن أعداء الإسلام يعبثون ببعض الساسة العرب ، كما يلعب الفيلسوف ببعض الصبية ثم تنجر الأمة كلها إلى مصيرها القائم بعد هذا التامر الخبيث .

يقول نبينا العظيم ﷺ : «لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوى غير متعن». .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أَمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (١) .

ولنعلم أن أعداء الإسلام أمدوا صدام بأفتك ما لديهم من قوة حتى يقضى على المسلمين في إيران وعلى الأكراد في العراق باسم البعث العربي .

وإنني أناشد المسلمين بعدما افتضحت المؤامرة أن يلموا شملهم ويستعينوا بربهم ويحلوا مشكلاتهم على ضوء الإسلام ولنتثبت بوحدتنا ورسالتنا ونجو من أحابيل الغادرین والخائين .



* ما هو مستقبل الأمة العربية والإسلامية في ظل أوضاعها الحالية – كما يراه
الداعية الإسلامي الكبير؟!

* إن حاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم مظلم موحش ، وكيف لا يكون ذلك؟!
وهم يسبحون في بحار الفقر والجهل والمرض .

والغريب أن الفجور في الخصومة ، والعبث بالعقود والعهود ، والاستهانة بالكلمة ،
والإضاعة للأمانة كلها تكاد تكون عادات مألوفة عند العرب !!

إن المسلمين لا يتزمون بما ورثوا من دين في ميادين الأخلاق عامة إلا من عصم
الله ، على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرون في معاملاتهم ومسالكهم مكارم
الأخلاق ويترفعون عن الفوضى والإسفاف والتسيب .

إنني عندما أسمع وأقرأ كل يوم عن مجىء الجيوش الأجنبية إلى أرضنا وتتابع
الأحداث وانتشار الفوضى ، أقول : هذه أيام بالغة السوء! ماذا حدث؟! إننا لم ننحدر
إلى هذا القاء منذ قرون خلت ، فمنذ أيام معدودة كان الصف مجتمعًا فكيف
انصدع .. ماذا فعل العرب بأنفسهم ورسالتهم؟ إننا أمّة تنتحر! وقع زمامهم في أيدي
الشياطين ، فهـى كما حدث القرآن الكريم من قبل : ﴿أَوْ يُلْبِسُكُمْ شِيًّا وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ
بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (١) .

اليهود يد واحدة تضرينا بقوة .. عبيد البقر يد واحدة تزهق أرواحنا بالمئات في المساجد .
الناس في شرق أوروبا وغربها يتجمعون ونحن وحدنا نتفرق .. ماذا يعمل العرب
بدينهم ودنياه؟!

في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم يتحدث العرب عن أنفسهم أنهم لو حملوا
أمانات الوحي لكانوا أرعى لها ، وأبر بالناس من سبقوهم في هذا الميدان .
فهاهم حملوا هذه الأمانات فما رعوا حق رعايتها ولا شرفوها محلياً أو عالمياً في
هذه الأيام العجاف .

فبم علق القرآن على هذا السلوك؟ قال : ﴿وَاقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ
نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤٢) استكباراً
في الأرض ومكر السيئ ولا يتحقق المكر السيئ إلا بأهله ..﴾ (٢) .

(٢) فاطر : ٤٢ ، ٤٣ .

(١) الأنعام : ٦٥ .

إن المسلم العربي يصطبغ وجهه بالقار عندما يرى عرب الكويت يطلبون النجدة من «بوش» حامي إسرائيل ، ويرى بوش عند حسن الظن به .. وويل للجماهير اللاهية من علمانيين يحكمون وجاهلين يفتون .

فما أحوج هؤلاء العرب الجبناء وال المسلمين الفقراء إلى دراسة أسباب هزائمهم العسكرية والحضارية .

إن الرؤساء عندنا وراء كل منهم مائة ألف روح لا يسألونه إذا غضب : لمَ غضب؟ ومن ثم فهو يمضى بنوراءه إلى النهاية المرسومة ، إلى الغرق الذى لف قوم فرعون فى أمواجه حتى أوردهم القاع! لهذا الاستبداد الأعمى تعاليم دين؟ أم سخافات أم وسقوط تاريخ؟!

* ما رأيك فيما يحدث الآن بالمسجد الأقصى من منع الصلاة فيه ، والحراسة اليهودية الدائمة؟!

** أجاب القرآن الكريم عن هذا التساؤل فقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾⁽¹⁾ .

وقيام اليهود بأذى المسجد الأقصى شديد الخطورة ، وتصوره تصور مظلم للعرب والمسلمين جميعاً؛ لأن اليهود لا يمنعون الصلاة فحسب بل يعدون العدة لهدم المسجد وبناء هيكل سليمان «المزعوم» وهم يصرحون بذلك دون حياء .

وقد تمت عدة محاولات لتنفيذ هذه الجريمة ، لكن الأقدار التى تحرس حرمات الله حالت دون إنفاذها .

والغريب أن فى العهد القديم فى سفر «حزقيال» إيحاء ببناء الهيكل على نحو معين استغرق الوصف فيه قراية صفحتين !!

وإذا تم لليهود ما يؤملون فسوف يكونون سادة العالم أجمع وسيكونون الأداة التى يستغلها ساكن الهيكل وهو الله سبحانه وتعالى فى سياسة الشرق والمغرب .

* ما هى قضية الأسرى المصرىين المفرج عنهم فى إيران والأسرى الذين مازالوا هناك فى السجون؟؟

(1) البقرة : ١١٤ .

** الأسرى في العراق قسمان : قسم مدنى يعمل فى الصيد أو يعمل فى الشئون الحرة والأعمال الإدارية وهؤلاء لا صلة لهم بالقتال فهو لاء الذين جئنا بهم من إيران للقاهرة .

والقسم الآخر كانوا مقاتلين فى الجيش العراقى وكانوا يحملون جنسية عراقية وأخروا جنسيتهم المصرية الحقيقية ، وهؤلاء تم الإفراج عنهم أثناء عملية تبادل الأسرى فى بداية الغزو العراقى للكويت .. والمهم أنه لا يبقى الآن أسرى فى سجون إيران نهائياً .

* مرأى فضيلتكم فى مسيرة الحضارة الإسلامية المعاصرة ، وعلى أى جناحها تعتمد : الكم أم الكيف؟؟

** العلم الآن لا يعرف إلا حضارة الغرب فى جميع شئونه الحياتية ، أما حضارة الإسلام ففى خبر «كان» . ربما كانت ذكريات أهيل عليها التراب ، وربما حاول أولو الغيرة أن يبرزوها للناس فى حكايات أو فى أحلام .. ولا أستطيع القول إنه توجد حضارة إسلامية كالتي سادت العالم قرابة ألف سنة – كان المسلمون فيها هم العالم الأول المتقدم ، وكانت الدنيا تنقاد لهم وتنتشر حضارتهم بتقدّمهم العلمي والعملى .

بل إن المسلمين لما انهزموا عسكرياً أمام التتر ظلت حضارتهم قائمة ولذلك دخل التتر فى الإسلام .

وكانت الأمة المهزومة – آنذاك – أرقى حضارة وأكثر ثقاقة من الأمة السيطرة عليها ولذلك ذابت فيها .

أما اليوم فقد تخلف المسلمون وتخاذلوا وتضعضعوا إلى الوراء كثيراً مما يجعلنا نجزم بعدم وجود حضارة حالية ، وإن كانت توجد مواريث ضرب عليها العنكبوت بنسجه تذكرا بقول الشاعر :

لخولة أطلال بيرقة سهمد تلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد
لكننى لست بيائس فإن أمتنا تمرض ولا تموت ، وقد تسقط على الطريق فتطول كبوتها ولا تقصـر ، وتحامل على نفسها مرات ومرات ثم تتبع المسيرة مرة أخرى .
والمستقبل إن شاء الله لـإسلام ، وكثيراً ما كنت أقول للناس : يوم الإسلام قادم فارتقبوا .

* ما رأى فضيلتكم فى مسار الدعوة الإسلامية الآن .. ما لها وما عليها؟؟

* * الدعوة الإسلامية تتغنى هذا العصر؛ لأن القوى التي تواجهها أعتى منها وأدھى وهي داخل نطاق الأمة الإسلامية أو وراء حدود أمتنا تعمل بنشاط لضرب الإسلام في صميمه .

بل إنها وضعت برامج محددة وسنوات معدودة لكي يذوي شأن الإسلام في إفريقيا وينتشر في أندونيسيا ، إلى غير ذلك مما تزينه الشياطين لأعداء الله .

والغزو الثقافي يحيط بالدعوة المسلمين من نواح شتى ، ولذلك فإن الدعوة تحتاج إلى يقطة وروح جديدة ومواجهة صريحة لكل الأزمات الروحية التي تتعرض لها الأمة الإسلامية ، ولا أقول بأن الأمة الإسلامية تسير سيراً حسناً ، لأن بعض المساجد لا تزال مفتوحة للقادسين وهذا لون من الجهل لا يجوز أن ينخدع به عاقل أبداً .

والدعوة بحاجة إلى مفكرين وإلى دارسين وإلى خطباء من طراز غير الطراز الذي نأله وإلى كتب ورسائل بالعربية وغيرها من اللغات .

الدعوة الآن بحاجة إلى مقيمين وظاعنين وسائحين يتقنون اللغات الأجنبية ويعيشون بين ظهراني الأمة الإسلامية حيناً ويتنقلون في أوربا حيناً آخر .

أى إن جهاز الدعوة المطلوب الآن - لكي تنجح الدعوة - جهاز شامل مستوعب لكل الحقائق والمفاهيم .

وهذا الجهاز المتكامل لا وجود له الآن ، وقد توجد جهود مشكورة لأقسام الدعوة في الأزهر ، ولكن هذه الجهود تشبه بعض الترع التي تكلف برى الصحراء الكبرى .

* هل تعتبر قضية المسجد الأقصى قضية عربية أم قضية إسلامية؟

* * إن قضية فلسطين منذ بداية التاريخ قضية دينية ، فمكون سكان بيت المقدس أكراداً أو هنوداً ، لا يغير القضية ، فالقضية التي يحكى التاريخ أطوارها منذ بدء إنشاء أورشليم . و«شليم» هو «سليم» كما ينطق اليهود موسى «موشى» .

وظل بيت المقدس يتداول بين اليهود والفاتحين عدة قرون ، ثم آلت إلى العرب منذ خمسة عشر قرناً إلى هذا اليوم ، وربما استطاع الفرنجية أن يستولوا عليه نحو ٩٠ سنة لكن المسلمين بقيادة صلاح الدين استردوا القدس في معركة «حطين» التاريخية المشهورة .

والحرب الصليبية لم تنته حتى الآن وإن زعم المارشال «النبي» كاذبًا أنها انتهت بسيطرة الإنجليز على فلسطين وفقدان المسلمين لحكم بيت المقدس **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**^(١).

وحلم اليهود بأن يستولوا على بيت المقدس ليمتد من النيل إلى الفرات وليس هذا فحسب ، بل إنهم يريدون أن يستعبدوا العالم أجمع .

وهذا الحلم هو محصلة نبوءات كثيرة في كتبهم الدينية ، ومن هنا قال «وايزمان» : إن «بلفور» عندما أعطانا وعد تملك فلسطين كان يترجم في العهد القديم لأن «البروتستانتي» يرى أن العهد القديم واجب النفاذ !

و«بلفور» كان رجل دين أولاً ، ثم رجل سياسة ثانياً ، وهذه معلومة لا يفهمها كثير من الناس ..

ولكن المسلمين في نوم عميق وسبات طويل .

* إلى أي مدى تتعارض أو تتفق التكنولوجيا المعاصرة مع مبادئ الإسلام؟

* التكنولوجيا لا تختلف أبداً مع الإسلام فها هو الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ يقول : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» .

فلتكن في الدنيا سيارات وقطارات ومخترعات ، ولويكتشف الطائرات والأقمار الصناعية وليعبروا البحار والأجواء ، فهذا كله لا صلة له بالأديان جميعاً من ناحية أنه تقدم بشري ، وهو وسيلة قد تخدم الخير وقد تخدم الشر .

فالمسدس في يد اللص يقتل به الآمنين وفي يد الشرطي يحرس به الآمن بين الناس .

المصيبة الفادحة أن يكون التقدم في يد اليهود وليس في يد العرب والمسلمين!

ومعنى هذا أن باطلًا مسلحًا يعتدى على حق أعزل!

* لماذا يكون دعاؤكم لإنقاذ المسلمين من الكارثة الحالية؟

* نحن نشخص المرض ونفتح العيون على الدواء ، فإذا كان هناك تخلف أخلاقي أو غباء في المعرفة أو قصور في وسائل الإنتاج ، فنحن نشرح هذا الواقع ونبه إلى خطأه ، وليس على الداعي أن يستصرخ لهم لكن لا يبقى في وضع مهين .

(١) آل عمران : ١٤٠ .

الإسلام مع تعدد الأحزاب ويرفض شطط الاجتهاد.. ويهذب فوضى حرية الفكر

الداعية الإسلامي الكبير .. الشيخ / محمد الغزالى - حفظه الله - بعد مسيرة حافلة قضتها فى حقل الدعوة الإسلامية المملوء بالألغام والمفروش بالأشواك .. وهو يتنقل من قطر إلى قطر .. ومن بلد إلى آخر ناصحاً ومجهاً ومرشدًا .. وهو يشخص الأمراض الاجتماعية التي ابتليت بها أمتنا العربية والإسلامية ، ولقى الشيخ فى سبيل تبلغ رسالته كثيراً من العقبات التى ما زادته إلا ثباتاً وإيماناً بقضيته ورسالته الجليلة .

والتقت به رسالة الإسلام : ل تستلهم رأيه فى كثير من القضايا الإسلامية الشائكة وما يتعرض له المسلمون فى مختلف أنحاء المعمورة .. وغير ذلك من المسائل الفقهية والعقائدية التي لم ينته الحديث فيها بعد ..

* باعتباركم من العاملين فى حقل الدعوة ، فكيف تواجهون جبهة أعداء الإسلام ، والذين يتربصون بالدعوة الإسلامية الدوائر؟

* الصحوة الإسلامية تشق طريقها وسط هذا الظلام الدامس ، ومهما طال الليل فلا بد من طلوع الفجر .. وإننا أمة ترثى ولا تموت ..

إن أعداء هذه الصحوة المعاصرة ما هم إلا امتداد لأعداء الإسلام منذ بزوغ فجره ، وهؤلاء لم تزدهم الأيام إلا قسوة قلب ، وغباء فكر ..

إنهم يريدون الخلاص من الإسلام على أية حال ، لكنهم إلى اليوم فاشلون ، إن الجماهير المسلمة لم تنس دينها على كثرة المنسيات ، ولم يضعف حنينها إلى العيش فى ظله ، برغم ما صنع الغزو الثقافى بعد الغزو العسكرى .

ولم يقف خصوم الإسلام عند هذا الحد أبداً .. فإن محاولاتهم لهدم أركان الإسلام لا تنتهى ، وستظل جهودهم متراكضة كى يذودوا الشعوب عنه ، ويعنوها من إنفاذ

أحكامه وإحياء شعائره . وأدواتهم لبلوغ هذه الغاية كثيرة خفيها أكثر من جليها ، وما كرها أعقد من ظاهرها !!

والهدف من كل هذه المحاولات الملعونة هو «الإجهاز على هذا المصحف الشريف» .. وجعله حبراً على ورق أو أثراً يودع في التاحف .

وعلى المسلمين في القارات الخمس ، وعلى كثرتهم العظمى بين المحيطين الهدى والأطلسي أن يلمسوا هذه الحقيقة ، فإما عاشوا بدينهم ، وإما نكسوا على أعقابهم فهلكوا .. إلا أن العاقبة للتقوى ، والمستقبل القريب والبعيد للإسلام دين الله من الأزل إلى الأبد .

﴿وَإِن تَتَوَلُوا يَسْبِدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(١) .

* فضيلة الإمام .. هل يمكن أن تلقى لنا الضوء على المخنة التي يمر بها مسلمو يوغسلافيا من القتل والاضطهاد والتشريد؟!

** إن «يوغسلافيا» دولة حديثة الوجود ، كونها الحلفاء عقب فوزهم في الحرب العالمية الأولى من عدة قوميات مختلفة الأعراق ، كان المسلمون جزءاً كبيراً منها إذ يبلغ عددهم قرابة ٦ ملايين مع ملاحظة أن إقليم «كوزوفو» سلخ من ألبانيا المسلمة وضم إلى يوغسلافيا ، وهي سياسة اتبعها الاستعمار العالمي في معاملة الأمة الإسلامية المتراكمة الأطراف لاسيما في إفريقيا ، فهو يأخذ جزءاً من الصومال المسلم ليضمه إلى كينيا؛ حتى يفقد شخصيته وتضعف الصومال بفقدنه . وتكررت هذه السياسة في أغلب دول القارة التي استحدثت في السينين الأخيرة ، المهم أن المسلمين في «يوغسلافيا» جعلوا من دينهم قومية خاصة عاشوا بها في إقليمي «البوسنة والهرسك» ولهم بقايا كثيرة فيسائر أقاليم الدولة الجديدة ..

وموقف المسلمين في يوغسلافيا شديد التعقيد ، إنهم – الآن – يلتزمون الحياد بين الفريقين المتخاصلين (الكروات والصرب) ، ولكن الصرب تربص بهم وتريد أن تشق لنفسها طريقاً على شاطئ «الأدرنياتيك» كي تنشئ لها ميناء على البحر ، وذلك بدأها على حساب المسلمين المعزولين في هذه البقاع .. والعدوان متربط إن لم يكن اليوم . وعندما يضرب المسلمون في قطر أوروبي فلا صريح لهم ولا هم ينقذون .. ونتساءل –

. (١) محمد : ٢٨

أما لهم من نصير من إخوانهم في القرارات الأخرى؟! والجواب كئيب!! إن الجنرال «ميخا بابوفتش» قتل منهم مائة ألف ومر دون مساءلة!! وجاء بعده «تيتو» وهو شيوعي ملحد فكان موقفه من المسلمين مثل موقف سابقه .

بم ينشغل المسلمون؟!!

إن موقف المسلمين في البوسنة والهرسك والجبل الأسود وكوزوفو وألبانيا نفسها يجب أن يدرس بأنّة ، وأن يتحرك العالم الإسلامي لمساندته ورد العدوان عنه .

بم ينشغل المسلمون؟ وإذا أصيّبوا في أخوتهم العامة فماذا يبقى لهم؟!

وهل بعد ذلك إلا أن تدور الدائرة عليهم في عقر دارهم؟

المسلمون المعاصرُون تتقَّصُّهم التربية النفسيّة والفكريّة

العالم الإسلامي يجب أن يتحرك لمساندة المسلمين في يوغسلافيا

* شيخنا الجليل .. نريد أن نسترشد برأى فضيلتكم في مسألة تعدد الأحزاب على الساحة .. وهل هي في الحقيقة تخدم الإسلام أم تقف عقبة في طريقه؟

* ما يمنع الإسلام تعدد وجهات النظر ، والاختلاف العقلي في مناهج الإصلاح الديني أو الدنيوي .

فنحن في شئون الدنيا أحّرار الفكر ، لم يلزمنا الإسلام بشيء .. «أنتم أعلم بشئون دنياكم» وكذلك نحن في الوسائل التي تحقق غايات قرها الإسلام ولم يشرع لها طريقة خاصة ، كرفع المستوى العلمي والخلقي للأمة ، وتحقيق العدالة الفردية والاجتماعية ، وكاقتدار البلاد عسكرياً على الجهاد في البر والبحر والجو .. وأمور كثيرة تتفاوت الأنظار في أسبابها ولا تتفاوت في نتائجها .

ثم هناك مجال مهم تختلف فيه العقول وهو كيف تستنبط الفروع من الأصول؟ فلقد نشأت من ألف عام أو يزيد مدارس شتى في ذلك .. وتعدد الأحزاب في الغرب يشبه تعدد المذاهب عندنا .

ويوضحكني ادعاء الذين يقولون إن الأحزاب تقسم الأمة ، فالامة لا ترقّها وجهات النظر السليمة إنما ترقّها الشهوات!! ولقد ولدت الأحزاب مع ميلاد الكيان الإسرائيلي على أنقاضنا فماذا حدث لهم وماذا حدث لنا؟؟

إن نظام تعدد الأحزاب لم يضر الغرب شيئاً، وفقدانه لم ينفع الشرق الشيوعي .. ولذا فإيقحام كلمة حلال أو حرام هنا هو ضرب من السخافات التي تعودنا عليها!! والذى يسأل هذا السؤال وغيره من الأسئلة مثل :

لبس الببلة الفرنجية حرام .. كشف وجه المرأة حرام .. الغناء حرام .. الموسيقى حرام .. التصوير حرام .. الكلونيا حرام .. إعلاء المبانى حرام .. ذهاب النساء إلى المساجد حرام .. أقول له : كيف يتحرك الإسلام مع هذه الأثقال الفادحة؟! فالإسلام بهذه الحالة - يا عشر المسلمين - لن يكسب أرضاً جديدة ، بل قد يفقد أرضه نفسها .. فالإسلام مظلوم مع أصحاب النظر القصير والرؤية المحدودة ؛ لأنهم يقررون ما يعرفون ، وينكرون ما يجهلون .

ومن ثم ففهم الإسلام أو تدریسه على أنه نهضة عربية أو يقظة كلية أكذوبة كبرى! وكذلك تناوله من زاوية خاصة ، وعدم الوصول بمعانيه إلى أبعادها الأبدية العامة . إن عالمية الإسلام «من كتاب وسنة» هي أنهمما يخاطبان الإنسان حيث كان ، دون انحصار في زمان أو مكان .. إنهمما ارتباط بالفطرة ، وحوار من العقل البشري تحت أى سماء وإلى آخر الدهر .

يتهمون الأزهر بالجمود والعدوان على حرية الاجتهاد ويأتى أحدهم ليجتهد ويحلل الخمر

* فضيلة الشيخ - ما رأيكم في الذين يقولون إن الأزهر الشريف يصدر حق الإبداع ويقف دون حرية الفكر والاجتهاد؟؟

** سؤالك يذكرني بأحد الصعاليك الذي ألف كتاباً - مؤخراً - نال فيه من الوحى والنبوات وسخر ما شاء أن يسخر من الدين وحقائقه ، فعاقبه القضاء بالسجن بضع سنين على وقارته وهبوطه ، فإذا بكاتب شيوعي يعترض على الحكم ويقول : إن هذا مصادرة لحق الإبداع!! فالإبداع في عُرفه هو الإقزاع في شتم الأنبياء!!

وكأنما كانت هذه الحركة إشارة على بدء الهجوم ، فإذا عصبة من الملاحدة تصايح هنا وهناك على ضرورة إلغاء الحكم أو تحفيظه ليكون صورياً!!

والاتهمة المختارة التي يرددوها هؤلاء أن حرية الفكر في خطر ، وأن المتدينين - وفي

طليعتهم الأزهر - صنعوا مقصلة لقتل المفكرين الأحرار ، أو بعثرة الأشواك في طريقهم !!
وقال واحد منهم يدعى أنه حُرم من حق الاجتهاد وصودرت له عدة كتب !!

وقرأت ما كتبه ذلك المجتهد ، فإذا هو يحلل الخمر مستدلاً بالآية : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي
مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمًا حِنْزِيرٍ
فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴾⁽¹⁾

هذه هي عبقرية الاجتهاد عند مستشار ، ولا أدرى أكتب كلامه وهو صاح أو سكران؟
إنه يتهم الأزهر بالجمود والعدوان على الحريات وإغلاق باب الاجتهاد !!

إن الحاقدين على الإسلام كثروا وعلا صياغهم وطالت لجاجتهم ، ويقع هذا في
بلادنا في أيام نحسات تتعرض فيها الحركات الإسلامية لضروب الفتنة وأنواع القمع .
* أستاذى الشيخ الغزالى .. ما تقييمكم للثقافات التي يتربى عليها جيلنا الآن -
مالها وما عليها؟؟

* * في رأى أن الثقافة التي آلت إلينا مؤخراً ضحلة أسنة لا في مجال المعرفة
الدينية وحدها ، بل في مجال الأداء الأدبي كذلك ، وأن هذه الثقافة أعجز من أن
تصنع أمة تنهض برسالتها ، وتخدم كتاب ربها وسنة نبيها .

وقد كانت ثقافتنا في العصور الأولى تصنع أجيالاً عملاقة ، قادرة على المحو
والإثبات ، تحترم الحقائق وتعشق الفضائل ، وهكذا هبط العلم الديني وتقوّع رجاله في
تخصصاتهم الدينية لا يمدون أنوفهم وراءها .

ولذا أقول : إن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجار التجزئة ، وإن الصورة الكاملة
لإسلام إنما تتم على النحو السلفي الأول ، وأن العقل الإسلامي المعاصر يجب أن
يرتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم حتى يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة
التي لا تحدد رقتها على سطح الأرض خطوط الطول والعرض .

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاهُ يَأْتِيَ فَاعْبُدُونِ ﴾⁽²⁾

وعرف المسلمون بالبداهة أن أمة العقيدة لا يحصرها مكان وأن إخوان العقيدة لا
يحدهم جنس ، وأن المسلم إذا استبيح دمه على شاطئ المحيط الهادئ في الفلبين
يجب أن يتحرك له أخوه على شاطئ الأطلسي في المغرب والسنغال ونيجيريا .

(2) العنكبوت : ٥٦ .

(1) الأنعام : ١٤٥ .

* هل معنى ذلك أنه ليس هناك - ثمة - وجه مقارنة بين شخصية المسلم في العصور الماضية وبين شخصية المسلم المعاصر؟!

* إن الأجيال المنتمية للإسلام في هذا العصر تنقصها التربية النفسية والفكرية التي بُرِزَ فيها السلف الأول ، وأضحوها بها قادة ترنو لهم الدنيا بإعجاب وحفاوة . فالصورة التي عرفت عن شباب العرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا لا تشرف ديناً ولا تغري بنظر فيه .. ولو لا أن الحضارة الحديثة تحض على النظر والاستكشاف ، ما عرف أحد الإسلام على حقيقته .

إن شباب العرب والمسلمين يهجرون أوطانهم طلباً للمتعة ، واستكثاراً من الفضائح في بلاد لا يعرفون فيها!! فالمال الإسلامي يراق بسفه غريب في عُلب الليل وموائد القمار والخمر وأنواع التهتك التي تفوق الخيال!

والغربيون ليسوا أغبياء! إنهم يقولون : أما على هذا المال رقابة؟ من أين اكتسب؟ وفيما أنفق؟ وهم يعلمون أن جماهير غفيرة من المسلمين ذهبوا ضحايا الجفاف والقطط ، ومن بقي منهم في آسيا أو إفريقيا بقي جلداً على عظم ، أو ملامح تصرخ بالبأساء والضراء! فعليينا أن ندرس بأنّة الأسباب التي جعلتنا في العالم الثالث أو الرابع بعد أن كنا وحدنا العالم الأول دهراً طويلاً ..

إنها أسباب كثيرة ، ثقافية واجتماعية وسياسية!!

* كثر الجدال وتضارب الآراء حول عمل المرأة وخروجها .. خاصة في السنوات الأخيرة .. فما رأي - صاحب الفضيلة؟!!

* هناك تقاليد تتصل بوضع المرأة لابد من إعادة النظر فيها لتنسقها مع ديننا وأحكامه الصحيحة .. فالمجتمع عندنا ينقسم إلى فريقين كلاهما على خطأ مشين .. الفريق الأول : يحاول أن ينقل تقاليد الغرب الجنسية ، وجاهليته الذميمة في إشباع الغرائز من الحرام .

- والفريق الآخر : يؤكّد أن المرأة قعيدة بيتها ، لا تخرج منه أبداً إلا إلى الزواج أو إلى القبر!!

ولكن الإسلام غير ذلك ، فالله يعلم أن الإسلام بريء من هذه التقاليد كما هو بريء من المفاسد الجنسية في أوروبا وأمريكا .

ومع ذلك فإن كثيرًا من المنتسبين إلى الإسلام وعلومه يرتضون هذه الأحوال ، ولا يتهمسون لتغييرها .

فرأى الإسلام يقول - مثلاً - : إن وجه المرأة ليس بعورة .. ولكن .. أكره أن تكون المرأة جسدًا عارياً يمشي بين الناس ، فالحجاب الإسلامي يحفظ للمرأة شرفها ، ويرد عنها عيون الذئاب أيضًا .. ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله ﷺ أنها تمنع من دخول المسجد .. إن أناساً غلبهم الهوى الجنسي هم الذين شرعوا هذه التقاليد بعدما تعسفوا في شرح الآيات بتفاصيل مرفوضة ، تفاصيل لم يقل بها واحد من الأئمة الأربع الذين انتشروا في طول البلاد وعرضها .

ولقد كانت النساء في العصر الأول تصلّى التراويح في مساجد خاصة بهن حتى جاء أخيراً من يمنعهن من أداء الفرائض في بيوت الله .. ولكن يباعون الإمام على نصرة الإسلام ومكارم الأخلاق حتى جاء من يقوم بتجهيزها عمداً في فضايا الإسلام الكبرى وغيرها .

فالإسلام لا يؤخذ من أصحاب العقد النفسية أبداً .. إن الإسلام يؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والمجتمع الذي يصنعه الكتاب والسنة يجعل المرأة تلد ذراري مشرفة باهرة الأخلاق .. لا دابة تلد حيوانات .

حتى نحسن أنفسنا

هناك ظروف أو بيئات تترك طابعها على العقل العادى ، فالفلاح فى قريته أو العامل فى مصنعه ، ينظر إلى الدنيا ، وإلى المسافات بين أقطارها نظرة ضيقه .

أما سائق السيارة أو قائده الطائرة فإن نظرته إلى المسافات أرحب وجراةه على طيها أسرع ؛ لأنه يألف التنقل والانطلاق .

والتقافة الإسلامية الأولى كانت تصنع عقولاً من الطراز الطيار .

أما هذه الثقافة فى أيامها الأخيرة ، فهى تصنع عقولاً تحسن الاعتكاف والانزواء . ونشأ عن ذلك أن الاستعمار العالمى لما بدأ زحفه فى آسيا - شرقاً وجنوباً وشمالاً - وبدأ زحفه فى إفريقيا من كل ناحية ، كان الإحساس بالألم يمر بكين سرى فيه انحدار وتفاوت فيه الحس .

ولا يزال ناس من أهل العلم - كما يوصفون - لا يعلمون شيئاً عن دولة «غطانى» فى تايلاند ، مثلاً ، ولا يعلمون شيئاً عن جماهير كثيفة من المسلمين تعيش فى عشرات الدول الإفريقية ضياعه الهوية كاسفة البال قليلة الرجاء .

لماذا؟ لأن العقلية التى تشرح الأخوة الإسلامية ، أو الولاء الإسلامي ، أو عبادة الله الواحد فى العالم الكبير الذى نعيش فيه ليست عقلية الطيار التى أشرنا إليها . وإنما هى عقلية فلاح مجنون الوعى !

ما كان سلفنا كذلك ، كان الأعرابى الساذج يعترض الرسول وهو على ناقته يطلب منه أن يعلمه الإسلام ، ويمسك بزمام الناقة حتى يسمع .. ويحدث الرسول المهم بما عنده ، فيصتيع منه إنساناً جديداً عامر القلب بأمجاد الألوهية وأصوات الوحدانية والرغبة الهائلة فى تطوير الكون كله لمراد الله ، فلا ترى هذا الأعرابى بعد ذلك إلا قدية تدرك عروش المستبددين فى فارس ، أو الرومان ، وتراه هو وإخوانه ينطلقون شرقاً صوب المحيط الهادى وغرباً صوب الأطلسى لهم جوار بتسبیح الله وتحمیده ، وتلاوة الكتاب الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور .. .

إننا بحاجة إلى ثقافة تصنع نفوسنا على هذا النحو ، إنها الثقافة التى صنعت أمتنا أولاً والتى تنقذها أخيراً !!

والفقه الذى يرشح أصحابه لخدمة الوحدة الإسلامية يحتاج إلى إضافات واجتهادات جديدة يستحيل أن تعجز عنها أصول الفقه عندنا .

إننا بلغنا الآن أكثر من ألف مليون نسمة وهذا العالم الإسلامي الرحب الموار تلابسه أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية بالغة التعقيد ، وهو يحتاج إلى فقه إداري ودستوري ، وذوى حسن التقدير لعاش المسلمين ومعادهم على سواء . ذكى الصلة بالعوالم غير الإسلامية التى تشاركتنا الحياة على ظهر الأرض ..

وقد تحدث العلماء القدامى فى السياسة الشرعية ، والترتيبات الإدارية . بيد أن حديثهم كان قليلاً ، ويبدو أنهم أوجزوا حتى لا يصطدموا بالسياسة ، ويتعرضوا للمحن .

ومع إيجازهم فقد وقفوا عند حاجات عصرهم . وقد مضت قرون طويلة ، وهذا الضرب من ثقافتنا الإسلامية لا يعدو حاجات المسلمين حتى القرن السابع الهجرى ، فهل ينشط الفقهاء المسلمون ليجعلوا التشريعات الإدارية والدستورية والدولية مناسبة لطالع القرن الخامس عشر الذى احتفلنا بمقدمه من بضع سنين؟

إن الألف مليون مسلم يتعرضون لامتحانات عالمية قاسية ، بعضهم يدور فى فلك الكومنولث البريطانى ، وبعضهم يذوب فى فلك الاتحاد السوفيتى ، وبعضهم يلهث ليتحقق بالسوق الأوربية المشتركة ، وبعضهم يؤثر القومية الإفريقية لجعل هذه القومية الإفريقية أعرق وأسمى من الثقافة الإسلامية!! وهذه دول تنقل دستورها من شرق أوروبا ، وهذه دول أخرى تنقله من غرب أوروبا ..

والفقه الإسلامي واقف طوعاً أو كرهاً فى مكانه العتيق لا يخدم البدائل المطلوبة ، وإذا كان بعض الساسة يعترض هذا النمو الثقافى الحتم ، فهل ننتظر حتى تطويينا ردة العلمانية الحديثة؟

إحياء الولاء لله

الأمة الإسلامية أمة دعوة إلى الله عز وجل ، وهى بهذا تميزت عن سائر الأمم .. قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(١) غير أن المؤسف حقاً أن قطاعاً عريضاً من الأمة الإسلامية لا يدرك هذه الحقيقة ، ومن ثم يجهل تبعاً لذلك حقيقة أن أمتنا مكلفة بقيادة البشرية إلى الخير والفضيلة ، وتوجيهها إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، من خلال الالتزام الصادق بتعاليم الإسلام وأحكامه التي تحوى أسباب سعادة الناس في الحياة الدنيا وفي كل مناحيها . والحقيقة أن المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية في الحاضر مرحلة صعبة للغاية ، ذلك أن الوصول إلى النجاح في مجال العمل الدعوي ، إنما يتطلب وجود عناصر عديدة ، وتوافر عوامل مساعدة كثيرة .. وأغلب تلك العوامل مفقودة ، وهذا ما يجعلنى أردد دائماً وعن اقتناع كامل أن الإسلام باق بجوهره ، وأن بقاءه من خوارق العادات . ولو لا نقاء جوهر الرسالة الإسلامية ، ولو لا وجود سر خفى فيها ما بقيت في ظل هذا الحاضر الأليم الذى تميزه شدة أعداء الدين ، وتخاذل أتباعه وقصور وسائلهم الدعوية ، مما أحق بهم هزائم شتى في مواطن لا حصر لها .

إن أفضل ما يمكن للأمة القيام به في الحاضر هو إحياء الولاء لله والانتماء للأمة في نفوس المسلمين ، وإيقاظهم من غفوتهم التي طالت ؛ إعلاء لراية الإسلام وجمعًا للكلمة الإسلامية وتوحيدًا للصف ، فهذا كله من شأنه أن ينهض بمسيرة الدعوة الإسلامية .

أرى أن واجب الدعاة المعاصرين أن يقبلوا على تفهم حقيقة الدين الإسلامي الذي يحملون أمانة الدعوة إليه بين البشر من مختلف الألوان والأجناس والألسنة .. وعليهم أن يجتهدوا في تكوين اتصالهم الفكري والعاطفي بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وإدراكهما إدراكاً صحيحاً .

ولا يكون داعية ناجحاً من لا يبذل قصارى جهده في أن يكون طالب علم طوال أيام عمره ، فالغوص في الثقافة الإسلامية سواء القديمة أو الحديثة أمر لا غنى عنه

(١) آل عمران : ١١٠ .

لأى داعية .. والثقافة الإسلامية القديمة أعنى بها نتاج علمائنا من السلف الذين طوفوا بين مختلف المعارف الدينية وغير الدينية وتركوا لنا تراثاً هو مفخرة الثقافات كلها .

أما الثقافة الإسلامية الحديثة فاجتهدات علماء الإسلام المعاصرين من استفادوا بشكل طيب من مختلف التجارب التي خاصتها المسلمين في الماضي ، ومن تاريخ العلوم الدينية والعلوم الإنسانية .. وهذا كله من الضرورات بالنسبة لدعوة هذا العصر حتى يواجهوا بعلوهم تحدياته وقضاياها التي تجده به .

ومن المؤلم أن بعض دعوة الإسلام لا يدرى شيئاً في كثير من القضايا المعاصرة ، ولذا فهو يتوقف عنأخذ الجديد الذي يصل إليه علماؤنا المخلصون من خلال جهودهم ودراساتهم وبحوثهم ، ومن ثم يقف هذا البعض عند معارفه القديمة التي يرددوها دون أن يستخلص منها النافع للأمة في هذا الوقت الذي تواجهه فيه مناهج اقتصادية واجتماعية وسياسية انتفعت بكل ما وصل إليه البشر من معارف حديثة .

ولا ينبغي – والحال على هذه الصورة من تكالب الأعداء على الدين – أن يفوّت دعوة الإسلام ضرورة دراسة الفرق والتيارات المعادية ، بحوار دراسة الإسلام في معارفه القديمة والحديثة دراسة واعية وجادة يقفون من خلالها على الأسباب التي جعلت تلك الفرق والتيارات تكسب مساحات من الأرض ، وتستحوذ علىآلاف العقول ، ومن ثم يمكن التصدي لها .

ومع دراسة كل تلك الفرق دراسة موضوعية فإنه بإمكاننا أن نعرف كل ما يراد بنا ، وما يبيّن لنا ، ومن ثم يسهل على المسلمين دفع المخاطر عن أنفسهم .

الدين الحق...!

لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق! ربما عاملنى شخص ما بطف ،
ونظر إلى وجهه طلق ، وهذا شيء أحشه له ..

لكن ما العمل إذا كان هذا الشخص لا يذكر لله عهداً ، ولا يشكر له نعمة ، ولا يدين
له بولاء؟ هل أعد هذا الشخص فاضلاً لأنه أحسن معاملتى على حين أساء معاملة ربه؟
أعرف أن الحضارة الحديثة أغفلت الجانب الروحي وأسقطته من كل حساب ، لكن
هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها ..

الإنسان الخير لا ينقسم على نفسه فيكون طيباً هنا وخبيناً هناك ، بل تسود خلاله
صبغة واحدة وجهة ثابتة .

نحن نعد أعداء المجتمع البشري مجرمين؛ لأنهم يعتدون وينحرفون ، والقرآن الكريم
يثبت الصفة نفسها على من يخاصم الله ويلحد في دينه : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ
بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (١).

وعندما نسمع نصيحة لقمان لابنه نراه يمزج بين حسن معاملة الله وحسن معاملة
الناس : ﴿يَا بُنْيَيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) وَلَا تُصَرِّخْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢) .

إنها سفاله بعيدة القرار أن يكفر امرؤ بالله ويحاجر بحربه ، ثم ينتظر من الناس
التقدير لأنه ابتسم لهم بعد ما تجهم لسيده . ما يقبل ذلك أحد!

ومعنى الإيمان بالله أن تكون أهلاً لمعرفته وجديراً بالانتداء إليه ، ولا يصلح لذلك إلا من
هذب نفسه وصان مسلكه ، إنك لا ترشح نفسك لصحبة كبيرة إلا إذا أصلحت هيئتكم وزكيت
سيرتكم ، فكيف ينتهي إلى الله مساف في أحواله ، مسيء في أعماله ، مريب في خلاله؟!

الواقع أن بعض المنتسبين إلى الدين ينفرون منه بما يلاحظ عليهم من انحلال
وهبوط ، والتدين الفاسد عدوان مضاعف على الدين الحق .

(٢) لقمان: ١٧ ، ١٨ .

(١) السجدة: ٢٢ .

لابد من جهاد دائم للنفس حتى تبرأ من رذائل الأثرة والهوى والعدوان ، وأى دين يبقى مع بقاء هذه الآفات؟!

يقول الله تعالى : ﴿وَأَحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّح﴾^(١) ولا حرج من دفاع المرء عن مصالحه ، أما أن يخرج من بيته كما يخرج السبع من غابة ، لا هم له إلا أن يفترس ويغتال ، فهذه وحشية ، الحيوان لا يفكر إلا في نفسه وأولاده ، وبعض الناس ينطلقون في الشوارع لا تملكون إلا هذه الفكرة ، فهم ينتقلون من منحدر إلى منحدر ..

وبعض آخر مشغول بهدم الآخرين ، والبحث عن عيوبهم ، والتسلى بالآلام .. ولا أدرى لماذا يتخيل بعض الناس أنه لا يبني نفسه إلا إذا هدم غيره؟!!

وهناك باحثون عن اللذة يمدون أعينهم إلى المكشوف والمستور من العورات ، وقد حسبوا أن من حقهم إشباع شهوتهم لأن الكبت لا يجوز ، وحبس الرغبة المحرمة من وصايا الأديان البالية! إن فقدان التربية السليمة ، والتدين الحق يجعل الدنيا جحيمًا ، والعلاقات البشرية في الخبيث .

والحل الفذ أن نعود إلى حقيقة الدين ، فنوثق علاقتنا بربنا ، ونحسن الصلاة له والخشوع بين يديه ، ونجعل علاقتنا الناس محكومة بعالم التقوى وخشية الله والتأهب للقاء ..

إن الدين في الغرب نهج لخدمة الجنس الأبيض واستغلال ثروات الأرض ونسيان الدار الآخرة ، وقد لفتحنا السنة من هذه النار المندلعة ، فلنعد بالدين إلى حقيقته ، ولنجعله ربانية ظاهرة ، وأخوة مواسية ، وصالحات مبرورة : ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوْةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٢).

. (٢) لقمان : ٢٢ .

. (١) النساء : ١٢٨ .

القوامة لا تعنى القهر..!

هل قوامة الرجل على بيته تعنى منحه حق الاستبداد والقهر؟ بعض الناس يظن ذلك وهو مخطئ! فإن هناك داخل البيت المسلم ما يسمى «حدود الله» وهى كلمة لاحظت فى تلاوتي للقرآن الكريم أنها تكررت ست مرات فى آيتين اثنتين!!

والآياتان فى دعم البيت المسلم حتى لا يتتصدعا ، وفى تدارك صدوعه حتى لا ينهار .. وهمما قوله تعالى : ﴿ الطلاقُ مَرْتَانٌ فِي مَسَاكٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحْلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا تَحْلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّىٰ تَنكِحْ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجِعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴽ ١﴾ .

ما هذه الحدود التى تكررت ست مرات خلال بضعة سطور؟ إنها الضوابط التى تمنع الفوضى والاستخفاف والاستضعاف ، ضوابط الفطرة والعقل والوحى التى تقيم الموازين القسط بين الناس ، إن البيت ليس وجاراً تسكنه الشعالب ، أو غاباً يضم بين جذوعه الوحش .

لقد وصف الله مكان المرأة من الرجل ومكان الرجل من المرأة بهذه الجملة الوجيزة : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ٢﴾ إن هذا التمازج بين حياتين يكاد يجعلهما كياناً واحداً ، وليس الغريزة هى الجامع المشترك ، فالنزوء العابر لا تصنع حياة دائمة! وقد عنى المفسرون الكبار بجو البيت المسلم وهم يشرحون حدود الله التى تكررت كثيراً فيما سقنا من آيات ، وكان أهم ما حذروا منه الظلم! قال صاحب المنار عَنْ عَبْرَةَ اللَّهِ : « .. والظلم آفة العمران ومهلك الأمم ، وإن ظلم الأزواج للأزواج أعرق الإفساد وأعجل في الإهلاك من ظلم الأمير للرعية ، فإن رابطة الزوجية أمن الروابط وأحکمها فتلاً في الفطرة

(٢) البقرة : ١٨٧ .

(١) البقرة : ٢٢٩ .

الإنسانية! فإذا فسّدت الفطرة فساداً انتكثت به هذا الفتل ، وانقطع ذلك الحبل فأى رجاء في الأمة من بعده يمنع عنها غضب الله وسخطه .. إن هذا التجاوز لحدود الله يشقى أصحابه في الدنيا كما يشقىهم في الآخرة .. وقد بلغ التراخي والانفصام في رابطة الزوجية مبلغاً لم يعهد في عصر من العصور الإسلامية ، لفساد الفطرة في الزوجين واعتداء على حدود الله من الجانيين» .

والواقع أن داخل البيت يتأثر بخارجه ، وتغيرات الميوعة والجهالة والإسراف إذا عصفت في الخارج تسللت إلى الداخل فلم ينج من بلائها إلا من عصم الله .. !

إننا نريد أن نتفق أولاً على إقامة حدود الله ، كما رسّمها الكتاب الكريم . وشرحتها السنة المطهرة وأرى أن ارتفاع المستوى الفقهي والخلقي والسلوكي لكلا الجنسين سيوطد أركان السلام داخل البيت وخارجـه ، وسيجعل المرأة تبسط سلطانها في دائـرتها كما تتيح للرجل أن يملك الزمام حيث لا يصلح غيره للعمل في زمام الحياة وعراـكـها الموصـول .

إذا كان البيت مؤسسة تربوية أو شركة اقتصادية فلا بد له من رئيس ، والريـاسـة لا تلغـيـ الـبـيـتـ الشـورـيـ والتـفـاهـمـ وـتـبـادـلـ الرـأـيـ وـالـبـحـثـ المـلـصـخـ عنـ المـصلـحةـ .

إنـ هـذـاـ قـانـونـ مـطـردـ فـيـ شـئـونـ الـحـيـاةـ كـلـهـ ، فـلـمـاـذـ يـسـتـشـنـيـ مـنـهـ الـبـيـتـ؟

وقوله تعالى في صفة المسلمين : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورٰى بَيْنَهُمْ﴾⁽¹⁾ نزل في مكة قبل أن تكون هناك شئون عسكرية أو دستورية! وعموم الآية يتناول الأسرة والمجتمع ، ويقول الأستاذ أحمد موسى سالم : «إن القوامة للرجل لا تزيد على أنه بحكم أعباءه الأساسية ، وبحكم تفرغه للسعى على أسرته والدفاع عنها ومشاركته في كل ما يصلحها - تكون له الكلمة الأخيرة - بعد المشورة - ما لم يخالف بها شرعاً أو ينكر بها معرفةً أو يجحد بها حقاً أو يجـنـحـ إـلـىـ سـفـهـ أوـ إـسـرـافـ ، منـ حـقـ الـزـوـجـةـ إـذـاـ انـحـرـفـ أنـ تـرـاجـعـهـ وـأـلـاـ تـأـخـذـ بـرـأـيـهـ ، وـأـنـ تـحـكـمـ فـيـ اـعـتـرـاضـهـ عـلـيـهـ بـالـحـقـ إـلـىـ أـهـلـهـ وـأـهـلـهـ أوـ إـلـىـ سـلـطـةـ الـجـمـعـ الـذـيـ لـهـ وـعـلـيـهـ أـنـ يـقـيمـ حدـودـ اللهـ» .

وهـذـاـ كـلـامـ حـسـنـ ، وـأـرـيدـ هـنـاـ إـثـبـاتـ بـعـضـ المـلـاحـظـاتـ :

أولاًً : أن النفقة معصوبة بجبين الرجل وحده ، وأن إنفاق المرأة في البيت مسلك مؤقت وتطوع غير ملزم ، وعليها أن تجعل أثمن أوقاتها ل التربية أولادها والإشراف العلمي والأدبي عليهم .

(1) الشوري : ٢٨ .

ثانياً : أن دور الحضانة مأوى موقوت تلجمأ إليه ضرورات عابرة وأن الأساس في الإيواء والتربية هو البيت الأصلي ودفء الأمومة وحنانها!

ثالثاً : حرمت الله حونها في الإسلام أسوار عالية يجهلها كل سكران أو دivot ، وتقالييد الغرب التي تتبع لأى امرئ أن يراقص أى امرأة بإذن أو بغير إذن من زوجها يرفضها ديننا كل الرفض ، وليس لرجل أو امرأة أى حرية في انتهاك حدود الله واعتداء حرماته .

رابعاً : الأسرة مملكة ذات حدود قائمة تشبه حدود الدول في عصرنا وطبيعة هذه الحدود الحماية والمحافظة ، فليس البيوت مبنية على سطح بحر مائج التيارات ، ولن يستباباً مفتوحاً للكل والج وخارج .

ولعقد الزواج أبعاد فقهية واجتماعية وتربوية ينبغي أن تعرف وأن تعرف معها قوامة الرجال ..

وكان من السهل أن يتضح ذلك لو سارعنا إلى إنشاء «علم اجتماع إسلامي» تلتقي فيه قضايا الأسرة كلها إلى جانب ضرورة التعاون والتلاقي بين طوائف الناس المختلفة .. ولكننا لازال نحبون في هذا المجال مكتفين بالترجمة والتقليل ، مع أن العلوم الإنسانية في برامجها الجديدة تمس كيان الأسرة من زوايا كثيرة ، بل إن علوم التربية والأخلاق والاقتصاد والاجتماع - قبل علم القانون - تتصل بشئون الأسرة .

وقد غضبت نسوة غيريات لما عرف الفقهاء عقد الزواج بأنه «عقد يبيع حل المتعة بالمرأة»! وظاهر أن التعريف قاصر على المعنى الكبير للعلاقة بين الزوجين! إنه تناول الجانب الذي يدخل منه القانون ، ولم يتناول الجوانب التي تدخل منها بقية العلوم الإنسانية ، والزواج أكبر من أن يكون عقد ارتقاء بجسد امرأة .. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ أَفَبِالْأَطْلِيلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(١).

قالت لى امرأة غاضبة : «إذا غضب مني زوجي في حوار ، قد أكون فيه صاحبة حق حرم رضوان الله ، ولعنتني الملائكة ... و... و...». فقاطعتها على عجل ، وأفهمتها أن الحديث الوارد في شأن آخر بعيد بعيد عما تتوهمين .. الحديث ورد في امرأة تعرض زوجها للفتنة لأنها تمنعه نفسها ، وهو لا يستغنى عنها .. ذاك هو المراد!! إن الإسلام يقوم على حقائق الفطرة والعقل ؛ لأنـه فطرة الله التي فطر الناس عليها .

(١) التحلل : ٧٢



لِمَ نَتَعَصَّبُ لِمَا نَأْلَفُ...!!

طرق بابى رجل مذعور يتحدث حديثاً متوراً فى أهله وماله ، وأحسست أنه يطلب منى النجدة! قلت له فى هدوء : ما بك؟ قال : فى ساعة غضب فقدت وعيى وقلت لا مرأتى أنت على حرام .. وأفتانى بعض الشيوخ بأنى قد فقدتها فلا تخللى أبداً .. قلت للرجل : أتصللى الخمس؟ قال : نعم ، قلت : وامرأتك؟ فتردد قليلاً ، ثم قال : تصللى أحياناً! قلت : وأولادك؟ قال : بعضهم يصللى وبعضهم لا يهتم بالصلاحة! فترىشت طويلاً كأنى أبحث له عن حل ثم قلت له ترد زوجتك إليك على شرط! قال : ما هو؟ قلت : تحافظ أنت وزوجتك على الصلوات ، وتراقب علاقة أولادك بالمسجد حتى تطمئن إلى أنهم يؤدون الفرائض الخمس ، وعليك كفارة يمين ، تطعم عشرة مساكين إن كنت غنياً ، أو تصوم ثلاثة أيام إن كنت فقيراً .. واستبق زوجتك فى بيتك!

وخرج الرجل ، وبعد أيام جاءنى الذين أفتوه بأن امرأته طلقت طلاقاً بائناً ، سألونى كيف أفتيت بحل هذه الزوجة؟ إننا هنا مالكية نعد ما وقع بينونة كبرى؟ قلت : مذهبى غير ذلك ، وأنا أرى بأن تحريم الحلال يمين وكفارته كفارة يمين ، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : إذا حرم الرجل امرأته فهى يمين يكفرها ، وفي روایة أخرى أن رجلاً جاءه وقال له إنى جعلت امرأتى على حراماً ، فقال له ابن عباس : كذبت ، ليست عليك بحرام! ثم تلا قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَمْ تُحِرِّمْ مَا أَحَلَ اللَّهُ لَكَ تَبَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْلِةَ أَيْمَانِكُمْ^(١) . عليك كفارة يمين!! ويبدو أن كلامى لم يقنع سامييه فقلت لهم لماذا تتحمسون لخراب بيت ، وجعل المرأة أيماناً والأولاد يتامى وأبوهم حى؟ إن المذاهب تختلف فى فروع الفقه ، وفي الأحكام التى تصدرها على أعمال الناس ، علينا أن نختار الأرعى لمصلحة الأسرة ومستقبل الأولاد واستقرار المجتمع ، علينا أن نحسن الإسلام من تهم الأعداء وأحقاد المتربيسين !!

(١) التحرير : ١ ، ٢ .

ومadam هناك رأى إسلامي محترم ، فلا ينبغي أن نتعصب لما نألف! إذا كان ما نجهله خيراً وأجدى على الناس .

قال لى رجل مريب : كأنك لا تحب مالكاً ومذهبة! قلت : أعوذ بالله من كراهية الصالحين .

لكنى أكره التعصب الأعمى ، وفيما يتعلق بشئون الأسرة وأحوال المجتمع أوثر كل رأى يحقق المنفعة العامة والخاصة ، ويوائم ما تصبو إليه الإنسانية المعاصرة من احترام للفطرة وتقدير لقيمة الإنسان المسلم ..

إننى لست مغرماً بجر الشبهات إلى سمعة الإسلام .

التعصب للحق

لست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم ، فإذا الذئب المفترس لا يستكثر عليه أن يعقر ويقتل . . إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنبياء والجائزات ومع ذلك فهم مسترسلون في طيبتهم وتهانئهم !!! إن في العالم الآن طوفاناً نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته . . ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض في هذه الظروف العصبية؟

التعصب وصف ردئ عندما يكون معناه جمود الفكر ، وانحصار الأفق ، والتشبث بالهوى ، والجنوح إلى الباطل مهما بدا عواره .
ونحن نرفض هذا الوصف ونأيده على أنفسنا وقومنا .

ولكن عندما يكون التعصب أثراً لاحتدام الحق ، وإكبار أهله ، ودعم جانبهم ، وكراهية عدوهم ، فإن التعصب هنا يرادف الإيمان والجهاد ، ولا يتخلى عنه امرؤ ذو دين !!
وفي العالم اليوم :

- * حقائق رخصها الضعف .
- * حقوق هضمتها البغي .
- * قوى شرسه استمرأت العداون .
- * و المسلمين طمع فيهم من لا يدفع عن نفسه ، حتى كأن البغاث بأرضنا يستتنس ! أفلأ يوقظنا مرأى هذه الصور الكريهة إلى أن نعرف من نحن؟ وماذا نحمل من رسالات الله؟ وماذا نستطيع أن نسديه لأنفسنا وللعالم أجمع لو غالينا بديننا وتاريخنا ، وشققنا الطريق إلى المستقبل على سناء الهدى؟؟

وعندما أقرأ سورة «المتحنة» يحيا في نفسي معنى التعصب للحقيقة ، والدفاع عنها ، والوقوف إلى جانبها على رقة الحال ، وكآبة المنظر في الأهل والمآل !!

إنه ليس من الشرف أن أحامل من يهين الحق ، وليس من صدق اليقين أن أمالئه وأترضاه .

وقد نزلت سورة «المتحنة» لتلقن المؤمنين هذا الدرس حتى يبقى حيًّا في نفوسهم إلى يوم الدين ، فقال جل شأنه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوكُمْ أُولَاءِ تُلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ..﴾^(١)

عيوب واضح أن أصدق عدو الله وعدوى ، وأن أبسط يدى ولسانى له بالسلام ، وهو يزدرى ما عندى ، ولا يتوانى !! ومن هنا علت السورة النهى من المعافات ، فقالت بعد إثبات كفرهم :

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ...﴾^(٢).

لماذا؟ ﴿... أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُم﴾^(٣).

ثم اطرد السياق القرآنى يقول :

﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي..﴾^(٤).

أي فلا تسلكوا هذا المسلك ، وتطوروا قلوبكم على حب من طردكم وأهانكم !!
كيف تفعلون هذا؟

﴿... تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوْدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾^(٥)

والتعبير «بأننا» في هذا الموضع يفرض علينا أن نتوقف قليلاً لنتدبره فقوله جل شأنه :

﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾^(٦) فيه معنى التحذير من الرقيب الخبير .

وهذا المعنى صرحت به سورة أخرى في مثل هذه القضية قال تعالى :

﴿لَا يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تَقاَةً وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ..﴾^(٧) !!

والغريب أن هذا التحذير يتكرر في الموضع نفسه ، مؤكداً علم الله بما نخفي وما نعلن ، حتى لانتورط في مسألة عدو يتبعنا ، أو الوقوف منه موقفاً بعيداً عن الصراوة والمقاصلة ، فقال جل شأنه :

(١) سورة المتحنة : ١ .

(٢) سورة آل عمران : ٢٨ .

(٣) سورة المتحنة : ١ .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوْدُ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْدًا بَعِيدًا وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(١)

تحذير يتكرر مرتين بعبارة رهيبة هي : ﴿... وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ إنها هناك توضيح لقوله هنا :

﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوْدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلُهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّيِّلِ﴾^(٢).

هكذا بدأت سورة «المتحنة» تعلمنا ضرورة التعصب للحق ، والتمسك بأهدابه ، وكراهية المعتدين عليه ، والنفور من مودتهم .

وإذا كان هذا المعنى الحاسم قد تصدرها : فإنه قد تتشى فى آياتها على صور متفاوتة ، ثم كان لها الختام المبين فقال جل شأنه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئُسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئُسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾^(٣).

إن الأحياء من الكفار قد قنطوا من عودة إخوانهم الذين ماتوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أن الموتى من الكفار قد يئسوا من الحصول على مكانة عند الله في الدار الآخرة .

سواء كان هذا المعنى أو ذاك فإن المؤمنين لا يليق أن يصادقوا قوما تلك حالتهم !!

ولنق على السورة من بدئها إلى ختمها نظرة جامعة تتعرف بها أسباب النزول كما ذكرها المفسرون والمؤرخون .

لقد استغرق نزول هذه السورة - على وجازتها - قريبا من عامين ، وصدرها نزل في السنة «الثامنة» عندما قررت الكتائب المؤمنة أن تجهز على الوثنية المتحكمه في مكة ، وأن تعيد إلى دائرة التوحيد هذا العقل الأشم .

ووسط السورة نزل في السنة «ال السادسة» بعد ما تم «عهد الحديبية» بين المسلمين وأهل مكة ، وبدأ التنفيذ وظهرت بعض المشكلات .

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) المفتحة : ١٣ .

(٣) المفتحة : ١ .

وآخر السورة نزل بعد الفتح الكبير ، وإقبال أهل مكة رجالاً ونساء على مبادعة الرسول ﷺ والالتزام بتعاليم الإسلام .

ومع الاختلاف الزمني الملحوظ في نزول الآيات فإن ترتيبها لم يفقد ذرة من الاتساق والتماسك . بل هو نسق من الإعجاز الساري في أسلوب القرآن الكريم كله .

وأشعر بأن القرآن في علم الله القديم كان على هذا الترتيب الذي نحفظه ، وإن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث ، ثم يأمر الرسول بوضعها في مكانها بتوفيق إلهي ، فتعود إلى وضعها الأرجلي على النحو الذي يقرأ الآن^(١) .

والمحور الذي دارت عليه السورة كلها ، هو الحب والبغض في الله ، وهو قاسم مشترك بين أجزاء السورة منذ بدأ النزول ، ولذلك فإن وحدة الموضوع ظاهرة شائعة فيها ففي أوائل السورة نقرأ كيف رفض القرآن الكريم م الواقع من «حاطب بن أبي بلترة» الذي راسل أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للسير نحوهم ، كى يأخذوا أهبتهم !! وهو عمل شنيع ، ولو لا أن رسول الله ﷺ عفا عن الرجل تقديراً لسابقته في خدمة الإسلام لكان جزاؤه القتل .

وهنا نرى الوحي - بعد استنكار التصرف السابق - يقول للمؤمنين :

﴿لَنْ تَنْفَعُكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أُولَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) .

أى لا يجوز أن يخفف شيء ما من حدة الخصم للكفر وشيعته ، ولو كان الحرص على الرقابة والولد والمال فإن جانب الله أولى بالرعاية .

والمثل الأعلى أن يقول المؤمنون لأعدائهم :

﴿إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَبْعُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبْدَأَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾^(٣) .

وهذه مصارحة بالقطيعة في سبيل الله ، ومعالجته بالحب لله والبغض لله . وليس أمام المؤمنين إلا هذا السلوك .

(١) هذا ما يدين به جماهير المسلمين من السلف والخلف .

(٢) المتخنة : ٤ .

وقد كان إبراهيم والمؤمنون معه على هذا الغرار ، وإذا كان إبراهيم قد لاين أباه يوماً
وقال له :

﴿لَا سْتَغْفِرُنَّ لَكَ وَمَا أَمْلَكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) .

فذلك الذين ليس مهادنة للضلال ، ولا ضعفاً في الإحساس بحق الله «كلا» :
﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوُّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ..﴾ (٢) .

وهكذا انقطعت أغلى الصلات إشارةً لحق الله .

إن حق الله على عبده لا يرجحه شيء في الأولين ولا في الآخرين ، والاستهانة
به ضلال مبين .

هل هذا التهجم الشديد ضد الضلال والضالين يرجع إلى غلطة طبع أو شراسة
خلق! لا .. لا ..

إننا في شوق ، إلى سيادة السلام ، وامتداد عواطف الحب إلى كل قلب ، والأمر بيننا
 وبين خصومنا واضح مستقيم ، فمن حاسينا حاسناه ، وكنا أسرع إليه بالود والرحمة .

ولكن كيف نلين مع من استباح كرامتنا؟ ونشد إساءتنا وإهانتنا ، وأخرجنا من
ديارنا وأموالنا! إن مصادقة من يفعل ذلك بنا نذالة ، وخسدة لا يهبط إليها مؤمن!!
قال تعالى :

﴿لَا يَنَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنَّ
تَبُرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنَهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنَّ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣) .

والظلم هنا الهوان ، قبول الدنيا ، والاستكانة إلى الضيم ، والرضا بحياة الفسوق
والمرور ، والعيش في كنف الفاسقين المارقين .

هذا صدر السورة الذي استغرق نصفها ، ونزل في السنة «الثامنة» .

(١) المتنجة : ٤ .

(٢) التوبه : ١١٥ .

(٣) المتنجة : ٩ .

أما وسطها الذى نزل من قبل ، فهو يعود بنا إلى نص فى معايدة الحديبية يقضى بأن يرد المسلمون عن المدينة من حق بهم مؤمناً من أهل مكة ، وإن كان أهل مكة يقبلون من حق بهم مرتدًا .. !!

ومع أن الأيام أثبتت جدواً هذا النص على المؤمنين إلا أن القرآن الكريم استثنى النساء ابتداءً من تطبيقه وأمر المؤمنين أن يتحنوا المؤمنات الفارات بدينهن فإذا علموا منها صدق الاعتقاد وشرف الغایة قبلوهن في المجتمع الإسلامي فوراً .

إن هؤلاء النساء المهاجرات التاركات لأزواج كافر يجب أن نرحب بهن وأن نقدم تحية إكبار للعاطفة التي خرجت بهن إلى دار الإيمان . لقد كرهن رجالهن وفارقتهن لله فلا ينبغي أن يعدن لهم قال تعالى :

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحْلُونَ لَهُنَّ﴾^(١) .

وإنما لإقامة المجتمع على احترام الدين ، وإعزاز مشاعر الحب والبغض لله صدر الأمر بتسریح الزوجات الكافرات : ﴿وَلَا تُمْسِكُوْا بِعِصْمِ الْكَوَافِرِ﴾^(٢) .

إن قبول هؤلاء النساء المؤمنات ومفارقة الكافرات تشريع متكملاً وحكمته واضحة وقد نفذت معايدة الحديبية بالنسبة إلى الرجال الذين مالبئثوا أن نظموا حرب العصابات ضد أهل مكة حتى اضطروهم إلى أن يطلبوا من الرسول قبولهم في المدينة!! ونصل إلى آخر السورة لنقرأ بيعة النساء ، كان ذلك بعد فتح مكة واستسلام أهلها لكتاب الرحمن .

إن أولئك الناس طالما آذوا الله ورسوله ، وهذا هي ذى هند المرأة التي أكلت كبد حمزة قد أعلنت دخولها في الإسلام ، فماذا نصنع معها!

لا شيء!! ننسى الماضي ، ونغفر الأخطاء ونعلمها وصاحباتها كيف تتأدبن بأداب الإسلام ، ثم يصبحن بعد أخواتنا :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَأِ يَعْنِكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِنَ وَلَا يَقْتَلُنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِنَّ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَأْيِهِنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) .

. (٢) المتنحة : ١٢ .

. (٣) المتنحة : ١٠ .

نعم . إن الله غفور رحيم ، فلننس الماضي ولنتحاب في الله .

لقد كان القرآن في هذه السورة يرقب متاب هؤلاء وعودتهم إلى الصواب وإقلال عنهم عن إيلام المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾^(١) .

واللودة المرتقبة إنما تقع من أناس يخف ضغط التعصب على قلوبهم وروعاتهم ، ويجوز أن تنقشع غيوم الغفلة عن آفاقهم وضمائرهم .

فإن المرء قد يخطئ لملابسات معينة أحاطت به ، وربما ظل على خطئه لأن هذه الملابسات بقيت في مكانها ، لم تجد من يزيلها أو ينتقصها .

لكن ما الموقف إذا تشبث الإنسان بالزلل وهو يدعى إلى الاستقامة ؟
أو أصر على الخطأ وهو يرى وجه الحق وضيقاً مشرقاً ؟

إن هذا الإنسان أجدر خلق الله بالموت وأولاهم بالعقاب الآجل والعاجل ... وإنك لترى الوحي الإلهي طافحاً بالوعيد وهو يتناول أولئك الجاحدين من صرعى التعصب الأعمى .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾^(٢) .

ولنلفت النظر إلى أن الغفلة هنا ليست قصور عقل عن المعرفة الغائبة ، ولكنها بلادة قلب عن استيعاب المعرفة المبدولة ، والنصح القريب !

وهذا هو التعصب الذي يأبه على نفسه كل عاقل أو منصف .

والقرآن في آيات كثيرة يلمح إلى هذا المعنى وإن لم يذكر التعصب بلفظه ، فإذا قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٣) .

فإن المقصود أناس طال نصحهم وطالت حاجتهم ، طال تعليمهم ، وطال صدودهم ... وليس المقصود وصف أقوام تعرض عليهم الدعوة لأول مرة .

(٣) البقرة : ٦ .

(٤) الأعراف : ١٤٦ .

(١) المحتلة : ٧ .

وبديهى أن ينتهى هذا الصدود بما ينتهى به كل جهد وتجدد ، من استمراء للشر واستهانة بالخير واستحلاء للقبيل .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ (١) .

وقد صحب التعصب من قديم حيف شديد على أهل الإيمان ، وتطاول على حقوقهم المادية والأدبية ، وتصوير كذب لا يقال لهم وأعمالهم ، وإلحاق للمعابر والمقابر بسيرتهم وتاريخهم وكان نصيب الأمة الإسلامية كبيراً من هذا التعصب الجائر الأثم .

ولست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم فإن الذئب المفترس لا يستكثر عليه أن يعقر ويغتال .

إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنبياء ، والطوايا الكنود ، ومع ذلك فهم مسترسلون في «طيبتهم» وتهاونهم .. فإلى متى؟

إن أرضنا انتقتلت من أطرافها شرقاً وغرباً وفق خطة رسمت بأنة وروية ... ثم بدأت الإغارة على قلب العالم الإسلامي استكمالاً لـ لاجهاز عليه طولاً وعرضًا ، فهلا عرفنا ما يراد بنا؟ إن في العالم الآن طوفاناً نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته .

وأمامي وأنا أكتب هذه السطور أنباء الدماء المراقة والأشلاء الممزقة للMuslimين المستضعفين في الفلبين ، وما قصة الإسلام الذي في الفلبين إلا غذوج مكرر لأقطار أخرى من الأرض أهين فيها الدين واستبيح حماه ، وشرد أهله ، وأكلت حقوقهم!! بل إن المسلمين - حيث يكونون كثرة في بلاد أخرى - تجرأ عليهم كل ذي ملة ، وتطلع إلى مالم يكن يحلم به في يوم من الأيام !!

ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض في هذه الظروف العصيبة؟

لعلنا ... لعلنا ...

فإذا تحقق مانصبو إليه فللله الحمد .

نحن مانسعى إلى قتال ولا نشتاق إلى سفك دم .

لكن إذا فرض علينا القتال فإن الذرة من التهاون في كراهية المعدين جريمة . يجب أن ندخل المعركة بكل مالدينا من غضب وقسوة وصرامة .

(١) النمل : ٤ ، ٥ .

الموت فاصل خفيف بين الوجودين

من حق كل قوم جاءهم مدع للنبوة أن يدرسوها قوله وشخصه ثم يحكموا له أو عليه ؛ ونحن نتساءل ، وما الذي أتى به محمد؟ لقد حدثنا أن الله حق وفصل أدلة وجوده وكماله على نحو لم يسبق إليه ، وأنه واحد ، كل من في السماوات والأرض مخلوق له مفتقر إليه لا استثناء لملك أو إنس أو جن ، وأن لقاءه حتم لمحاسبة كل مكلف ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهُ﴾^(١) .

لماذا أكفر بمحمد؟ لو رأيت أحداً جاء بأفضل مما جاءنا به لتبنته! وسورة النبأ تقول للمسركين ، هبوا أن دعوة محمد لم تقنعكم أفلًا تفكرون في خلق السماوات والأرض؟ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا﴾^(٢) ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾^(٣) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٤) .

نحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري ونهايات القرن العشرين الميلادي

وقد ورثنا رسالات شتى ، ومن حقنا أن نوازن وأن نرجع ، والحق أقول أنى أمام تراث محمد من كتاب وسنة لا أقدم أحداً ، أو بتعبير أقرب إلى الإنصاف ، أصدقه حين يقول إن رسالته تمثل الوحي القديم والأخير معاً ، وإن ماخليقه هو مزاعم بشر وليس وحياً سماوياً ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولِنِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٥) . أى أننى حين أتبع محمداً أتبع معه موسى وعيسى ، ونوحًا وإبراهيم .. وهذه السورة تتكون من أربعة فصول متميزة ، الأول وصف الكون والناس إلى قوله جل شأنه ، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾^(٦) لنجرب به حباً ونباتاً^(٧) وجنات ألفافا^(٨) . والثانى وصف موجز ليوم الحساب ، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾^(٩) يوم ينفح في الصور فتأتون أفواجاً^(١٠) ، وإكثار القرآن من ذكر القيامة لمقاومة حب العاجلة الذى يغلب على الطباع . والثالث وصف للعقاب الذى ينتظر المجرمين ، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصادًا﴾^(١١) للطاغين ماماً^(١٢) لا يثنى فيها أحمقاباً^(١٣) . والرابع وصف للنعيم الذى ينتظر

(١) الزليلة : ٧ ، ٨ .

(٢) النبأ : ٦ - ٨ .

(٣) فصلت : ٤٣ .

(٤) النبأ : ١٧ - ١٨ .

(٥) النبأ : ٢١ - ٢٢ .

(٦) النبأ : ١٤ - ١٦ .

(٧) النبأ : ١٦ - ١٨ .

المؤمنين الصالحين ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (٢١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٢٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا...﴾ (١). إن الجزاء المعنوي حق وستنتصر وجوه المؤمنين وهم مع جماهير الملائكة يسبحون بحمد الله ويهتفون بمجده ، ومن قام المتعة أن يكون ذلك في حدائق زاهرة ومع لذات مؤنسات ، وبعد هذا الوصف الشائق يقال لأولى الألباب ، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَا يَبَأِ﴾ (٢) . فمن تزود بالتقوى أفلح ، ومن عاش مذهولاً هنا وقدم على الله صفر اليدين ندم بعد فوات الأوان ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٣) . نقول في ختام السورة للمسئلين عن محمد ، ماذا كسب لشخصه من هذا البيان؟ هل عيبه أنه كان حار الأنفاس في الدعوة إلى الله؟ وأنه كان جلدًا في مقاومة الفتنين والطغاة؟

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ (١) وَالنَّاשِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبَقاً (٤) فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرَا﴾ (٤) الذي اختاره أن الإقسام بالكواكب الدوارة في الفضاء ، تشق طريقها بغير وقود وتسرع السير بغير توقف وتعرف الطريق بغير جندي مرور ثم يجيئها أجلها مع نهاية العالم فإذا هي تتلاشى! متى؟ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٥) تتبعها الرَّاجِفَةُ﴾ (٥) في الزلزال الكبير الذي يفقد كل شيء توازنه وتترافق مزعجهاته فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة! يقول المشركون عند سماع هذا النذير : ﴿أَئِنَا لَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (٦) أرجاعون نحن إلى الطريق الذي جئنا منها؟ أعادون إلى الحياة مرة أخرى؟ هكذا يحدثنا الرسول؟ ومتى؟ بعد أن نموت ونبلى ﴿تُلْكَ إِذَا كَرَّةُ خَاسِرَةً﴾ (٧) عودة لا خير فيها لأننا ماصدقناها ولا أعددنا لها .. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٨) ﴿إِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (٩) بساعة الحشر والجزاء ، إن أتباع الفلسفة المادية المعاصرین لا يزيدون على مشرکي الصحراء الأقدمين عندما يقولون ، إن هی إلا أرحام تدفع وأرض تبلغ وما يهلكنا إلا الدهر! فما الموقف إذا رأوا أنفسهم أحیاء لم يصبهم

(١) النبأ: ٣١ - ٣٢ .

. ٤٠

(٢) النبأ: ٣٩ .

(٤) النازعات: ١ - ٥ .

(٦) النازعات: ١٠ .

(٥) النازعات: ٦، ٧ .

(٧) النازعات: ١٢ .

(٨) النازعات: ١٣، ١٤ .

شيء؟ واستتلت الآيات تتحدث عن فرعون وهو من أكابر المجرمين ، والحق أن الفرعونة مرض عام أساسه بطر الحق وغمط الناس ، وقد يكون في الحكم والإداريين والفنانين والكتناسين . والمرء إذا ذهب بنفسه عاش أنانياً جائراً لا يحق حقاً ولا يبطل باطلًا ، وجهنم تأخذ حطبها من هؤلاء جميعاً . ويحاطب القرآن البشر : علام الكبر والصد عن سبيل الله ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاوَاتِ بَنَاهَا﴾^(١) إن الإنسان – بالنسبة إلى غيره – كائن ضعيف ما يجوز له أن يعمى ويطغى ، بل يجب أن يتقوى ربه ويتزكي ، وإذا كان قد ملك التصرف في كائنات أخرى ، فليس خر هذا التفوق في شكر الله وأداء حقوقه .. وعادت السورة إلى مابدأت به من حديث عن البعث والجزاء ليجعل الإنسان من حياته الأولى مهادداً للحياة الأخرى ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامِةُ الْكُبُرَى﴾^(٢) يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴿وَبَرِزَتِ الْجَحِيمُ لِنَ يَرَى﴾^(٣) إن الناس يومئذ رجلان : عبد لشهواته يعيش لإشباعها ، وعبد لله يشعر بمقامه ورقابته فلا ينسى حقه ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾^(٤) وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٥) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٦) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾^(٧) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٨) ويجمع التطلع والاستخفاف بأصحابها فيتساءلون عن الساعة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾^(٩) فيما أنت من ذكرها ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾^(١٠) إن علمها عند الله وحده ، وما ينفعكم العلم بها إذا لم تستعدوا لها؟ إن الوجود موصول ، والموت فاصل خفيف بين الوجودين الأول والأخير وستعرف قيمة الدنيا يوم اللقاء ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيهَا أَوْ ضُحَاهَا﴾^(١١) .

(٣) النازعات : ٣٧ - ٤١ .

(٤) النازعات : ٣٤ - ٣٦ .

(٥) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ .

(٦) النازعات : ٤٦ .

(٧) النازعات : ٤٤ - ٤٢ .



من هم أصحاب الأعراف؟

بدأت سورة الأعراف بحديث مجمل عن قضيتين مهمتين : الأولى : تتصل بالقرآن الكريم ، والثانية : في المنكرين له والمكذبين جملة بالوحى الإلهي . في القضية الأولى نزل قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرْجٌ مِّنْهُ لَتُنذَرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) اتَّبَعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِّنْ رِّبْكُمْ وَلَا تَتَبَعُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ...﴾ (١) والحرج المنهى عنه يجيء من سوء استقبال المشركين لمن يريد هدايتهم ، وتزهيدهم فى مواريثهم ، والإندار إعلام مع تخويف ، والمطلوب من المستمعين عامة أن يتبعوا الكتاب الناصح لهم ، ويهجروا ماعدها من تقاليد لا خير فيها ، مهما كان مصدرها ، فإن الأولياء المتبعين دون الله لن يجيئوا بخير ، فماذا بعد الحق إلا الصلال؟

وقد تحدثت السورة بعدئذ عن الكتاب فى جملة مواضع منها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَئَنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلَّيْنَا عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ...﴾ (٢) يعني هل ينتظرون إلا أن يتحقق وعده ووعيده فيظفر المؤمنون بالنصر والثواب ، ويكتوى الكافرون بالهزيمة والعقاب؟ . ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلَيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ﴾ (٣) . وهذا على لسان النبي ﷺ ومعناه أن الله يتولى نصره وحفظه حتى يبلغ ما نزل على قلبه ، و يجعل الحياة تستضيء به وتسير بتوجيهه ، ومنها قوله تعالى فى ضرورة تدبر هذا الكتاب والانتفاع بما حوى من علوم ﴿وَإِذَا قِرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعْلَكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤) فالكتاب ذكرى للمؤمنين وغاية لعقولهم ورحمة تهبط عليهم ..

أما القضية الثانية التي افتتحت بها السورة فهى تدرك من قوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةً أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ﴾ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءُهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥) .

(٣) الأعراف : ١٩٦ .

(٤) الأعراف : ٥٣ ، ٥٢ .

(١) الأعراف : ٣ ، ٢ .

(٥) الأعراف : ٤ ، ٥ .

(٤) الأعراف : ٢٠٤ .

وهللاك القرى التي تمردت على المرسلين سنة وعاها التاريخ ، وقد فصلت سورة الأعراف موقع لعاد وثمود ومدين ، وقوم نوح وقوم لوط .

ويظهر أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء الأولين لعرب الجزيرة شمالاً وجنوباً . فلما كفر أولئك العرب وأذوا رسليهم دمر الله عليهم وأباد خضراءهم . . ثم آتى موسى الكتاب ليهدى به مصر ، وبني إسرائيل ، وشرح مواقف الفراعنة واليهود شرحاً واسعاً ، فلما زاغوا عن الصراط ورفضوا هدایات الله أوقع بهم بطشه ثم عاد الوحي الخاتم مرة أخرى إلى وسط الجزيرة .

واستطاع محمد ﷺ بفضل الله أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن يجعل من العرب الذين اهتدوا به أمة وسطاً ، ورثت الوحي إلى قيام الساعة وما زال وحيها مصوناً وكتابها قائماً ، وسيبقى البشر مابقيت الحياة الدنيا مكلفين بسماع هذا الكتاب والاقتباس منه لأنه وحده الذي يقيهم السيئات .

والمهم أن يقدر العرب رسالتهم ، وأن يعرفوا نسبة الميراث الذي اختصهم الله به عندما قال : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عَبَادَنَا . . . ﴾^(١) . وأن يوقنوا بأنهم مسأمون عن موقفهم منه ﴿ فَلَنْسَلِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنْسَلِنَ الْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنْقُصْنَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾^(٢) .

وبين الله سبحانه في صدر السورة أن الحساب الجامع سوف يبت في مصير كل إنسان ، ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِأَيَّاتِنَا يَظْلَمُونَ ﴾^(٣) . ولكن هذا البيان الموجز أعقبه بعد قليل تفصيل كاشف عن مصاير الطوائف المختلفة التي اختصمت في ريها على صعيد الأرض . فهناك أولاً المؤمنون أصحاب الأعراف ثم الكافرون ، وقد جرى حوار بين هؤلاء وأولئك نرى أن نتوقف قليلاً عنده ، إن أهل الجنة يحيون في عالم من السماحة والحب والسلام ، مشغولون بشيء واحد هو تسبيح الله وتحميده ، وهم يشعرون بما أسدى الله إليهم من نعماء ويقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِهَتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾^(٤) .

(١) فاطر : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) الأعراف : ٩٠، ٨ .

(٣) الأعراف : ٧، ٦ .

(٤) الأعراف : ٤٣ .

إنهم - بإزاء مارأوا من فضل - يجردون أنفسهم من كل استحقاق ، ويشعرون كأن العطاء الأعلى هو الذي سبق بهم وأنالهم تلك المكانة ، وهنا يذكرون الله بسعفهم القديم وجهدهم المقبول : ﴿ وَنُودُوا أَن تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) . وعندما يطمئنون إلى أحوالهم يتذكرون خصوم الأمس من الجبارة واللامحة فيحبون أن يعرفوا ما لاقوا : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبُّنَا حَقًا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُنَّ مُؤْذَنٌ بِنَهْمٍ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

إن هؤلاء الظلمة كانوا ينكرون البعث والجزاء وكانوا يبطشون بالمستضعفين من المؤمنين وكانوا يشوهون معالم الحق ويغلقون طرقه ، فهاهم أولاء يجدون مصيرهم العدل .. واحتضنت هذه السورة بذكر أصحاب الأعراف ، ومنهم أخذت اسمها . والشائع بين المفسرين أن هؤلاء قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فانتظروا حتى يبت في أمرهم ! وأرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأم إلى الخير فإن الأعراف هي القمم الرفيعة ، ومنها سمى عرف الديك عرفا .. وهم في الآخرة يرقبون الجماهير والرؤساء في ساحة الحساب ، ويلقون بالتحية أهل الجنة وبالشماتة أهل النار ، وحديث القرآن الكريم يرجح هذا الفهم ؛ فهم يتكلمون بشقة ويوبخون المذنبين على ما اقترفوا ويستعيذون بالله من مصيرهم .. ومن المستبعد أن يكون ذلك موقف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم لا يدرؤن أين يذهب بهم ؟

وهناك نداء آخر من أهل النار لهم يرسلون صرخ النجدة ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقْنَا لَهُ . . . ﴾^(٢) وهيئات فلن يغيرهم من الله أحد !! لقد كفروا بالله وجحدوا القاءه ولم يخطر ببالهم هذا اليوم ولا استعدوا له بشيء فمن أين تأتيهم النجدة ؟

وهنا نذكر أن معانى القرآن متداخلة متضافة تلتقي كلها في سياق واحد يعمل عملاً في النفس ، وليس هدایات القرآن فصولاً مقسمة على نحو متميز ! وهكذا العالم تراه مصدراً لأنشطة العلوم وهو كيان واحد يستقى منه علماء الأحياء وعلماء طبقات الأرض وعلماء الفلك وعلماء القوى المحركة . . . إلخ .

(٣) الأعراف : ٥٠ .

(٤) الأعراف : ٤٤ .

(١) الأعراف : ٤٣ .

الذى يستحيل أن يعاب

فكرة إله مزدوج أو مثلث لم ينزل بها وحى ، ولم يتم خوض عنها فكر ، أنا وأنت وعالمنا كله وليد إرادة علينا واحدة ؛ اتجهت إلى تكويننا ، وقدرة علينا واحدة أبرزتنا من العدم إلى الحياة ، ليست هناك قدرتان ، ولا إرادتان ، ولا ألوهيتان ، إنما الله إله واحد . وقد يغتفر الله كثيراً من الأخطاء العقلية والخلقية ولكنه لا يغتفر الإساءة إلى ذاته ، بزاعم التعدد والإشراك .. لقد قرر ربنا أن الملكوت له والجبروت له ، وأن ماعدها عبد له . يستوى في ذلك كله سكان الأرض والسماء ، وصدر هذا التحدى الإلهي في الوحي الخاتم مقتاحاً كل زعم بأن هناك إلهاً آخر ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ (٩٣) ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَهُمْ عَدًّا﴾ (٩٤) ﴿وَكُلُّهُمْ آتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدًّا﴾ (١) .

فمن الذي تعرض لهذا التحدى بالإنكار والمواجهة؟ لا أحد ، بل قال القرآن مزدرياً الآلهة الأخرى المزعومة : ﴿..إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُوهُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقْدُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (٢) .
فيم ردت هذه الآلهة؟ لم يسمع رد لأنها ليس لها وجود . ومس التحدى شخص عيسى نفسه : ﴿..قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرِيمَ وَأَمْهَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً..﴾ (٣) .

ولم يقع ترد في الكون تحركت له بحجج الماء أو تيارات الهواء أو موجات الكهرباء غضباً أو احتجاجاً على هذا القول ، لأن هذه الكائنات - كشخص عيسى نفسه - عبيد تسجد أشخاصها وظلالها للرب الأعلى .. إنه لا إله إلا الله ، وكل ما عدا الله من إنس وجن وملك ، خلقهم الله من الصفر! ما كانوا شيئاً حتى شاء؟ وما استحق أحد منهم ثناء إلا بما أفضى الله عليه من آلاء . وهو وحده يرفع ويضع ، ويعطى وينع ، ليس لأمين الوحي جبريل ، ولا لبعوضة في مستنقع إلا استقبال القضاء الأعلى برهبة العبد الموقف : ﴿.. حَتَّىٰ إِذَا فُرِّغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٤) .

(١) مرعى : ٩٣-٩٥ .

(٢) المائدة : ١٧ .

(٣) الحج : ٧٣ .

(٤) سيا : ٢٣ .

وستتوقف مواكب العمran على ظهر هذه الأرض ، ثم تبدأ رحلة العودة إلى الحبيب الرقيب ، وستدعى الأم والأفراد للمساءلة عن الشائعات التي صدقها وتبعتها !
ولعل أوسع شائعة يشتد الحساب عليها ألوهية عيسى التي تألفت حولها شعوب ، وتضخمت خرافات ورسمت كهانات ..

وقد عجل القرآن الكريم بذكر موقف من مشاهد البعث والجزاء لعله يفيد في ترشيد دنيانا الحائرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَمِّيَ الْهَمَّيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْوَبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتِنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

ومن النكائض الجديرة بالتأمل أن النصارى ينتظرون نزول عيسى ليirth الأرض ويجلس على العرش عن يمين أبيه ، وأن المسلمين ينتظرون عيسى ليكذب بنفسه شائعة ألوهيته ، ويكسر الصليب ، ويأبى إلا توحيد الله تبارك اسمه .

فلينتظر المنظرون ! أما أنا وغيري من أولى الألباب فنربو ببعصائرنا إلى الفرد الصمد الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ويهيمن على جماهير البشر ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا .. ﴾ (٢) .

القدوس الذي يستحيل أن يعاب أو يلحقه نقص أو يخرج من بطن أو تمسه محاقر التصورات المادية الهاابطة ، الذي خضع كل شيء لمجده ، وعنا لوجهه ، واستكان لأمره ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَرِرُ وَازِرَةٌ وَزِرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَيَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) .

ونرجع إلى موضوع بحثنا : كيف نميز الصواب والخطأ في هذا الكتاب الذي استغرق تأليفه ستة عشر قرنا كما يروى «جوش مكدويل» !!؟

(٣) الأنعام : ١٦٤ .

(٢) هود : ٥٦ .

(١) المائدة : ١١٦ .



للشيخ أحمد ديدات إجابة نقلها ، ثم ذكر رأينا فيها .. قال : «لا تتردد نحن - المسلمين - في التسليم بوجود ثلاثة أنواع من الشواهد في الكتاب المقدس ، وهي شيء لا يحتاج إلى تدريب سابق :

١- تستطيع أن ترى في الكتاب المقدس ما يمكن وصفه بأنه كلام الله .

٢ - كما تستطيع أن تبين ما يمكن وصفه بأنه كلام نبى الرب .

٣ - وهو واضح أكثر ، هو ماتكون منه معظم محتويات الكتاب المقدس من تقارير لشهداء عيان أو غيرهم من كتبوا ما كانوا يسمعون عنه ، وهو مانستطيع أن نسميه : كلام المؤرخ .

ولا تتعب نفسك بالبحث عن بعض الأمثلة لهذه الأنواع الثلاثة في الكتاب المقدس ، فإليك السطور الآتية التي ستوضح لك ما أعنيه بالضبط :

النوع الأول:

(أ) «أقيم لهم نبياً .. وألقى كلامي في فيه .. فيخاطبهم بجميع ما أمره به» (سفر تثنية الاشتراك ١٨/١٨).

(ب) «أنا أنا الرب ولا مخلص غيري» (نبوءة أشعيا ٤٣، ١١).

(ج) «توجهوا إلى فأنخلصوا ياجمیع أقاصی الأرض فإنی أنا الله وليس آخر» (نبوءة أشعيا ٤٥، ٢٢).

لاحظوا ضمير المتكلم في الجمل السابقة ، وبدون أي صعوبة ستلاحظون أنها تبدو ككلام الرب .

النوع الثاني:

(أ) «.. صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلى إيلى لم سبقتنى؟ أى إلهى إلهى لماذا تركتنى؟» (إنجيل متى ٤٦، ٢٧).

(ج) «فقال له يسوع : لماذا تدعوني صالحًا ، إنه لا صالح إلا الله وحده» (مرقس ١٠، ١٨).

حتى الطفل يستطيع أن يؤكّد هنا أن : «صرخ يسوع» «أجابه يسوع» «فقال له يسوع» ، هي كلمات تنسب إلى صاحبها وهو رسول الرب .

النوع الثالث:

«فنظر عن بعد شجرة تين ذات ورق ، فدنا إليها ، لعله يجد عليها شيئاً من ثمر ، فلما دنا عيسى لم يجد إلا ورقة ..» (مرقس ١١ ، ١٣).

ومعظم الكتاب المقدس يتكون من هذا النوع الثالث ، وهى كلمات شخص ثالث ، فإذا لاحظت الضمائر الواضحة تجد أنها ليست من كلام الرب أو نبيه بل كلمات مؤرخ . وهذا ضابط لا بأس به ، ولكنه كما يقول علماء النطق : ليس جامعاً ولا مانعاً !!! فقد رأينا كلاماً يصدر عن الله يستحيل صدوره عنه ، مثل ما أوردناه فى صدر هذا الكتاب أن الله خشى أن يأكل آدم من شجرة الحياة فيخلد معه ، ومن ثم طرده من الجنة ! إن الله لا يخشى شيئاً ، والخلود لا يجيء من أكل شجرة معينة ، والكلام كله تصوير مختلف لمعنى باطل .

وقد رأيت كيف أجرى يوحنا كلاماً على لسان عيسى أنه والإله من أصل واحد !! مع ماورد فى الأنجليل الأخرى من أن الله واحد ، وهو وحده الصالح ، وما عداه دونه ..

أما تعليقات المؤرخين ، وما يشبهها من حشود فهذا ركام كثيف ..

والضابط الأمثل هو النظر فى الكتاب كله على قاعدة أن مالا يليق بذات الله ولا بأنبيائه مرفوض .

إن الله أهل الكمال كله ، فكل ذرة من نقص تنسب إليه تتدحرج من تلقاء نفسها إلى النفايات المستبعدة ، كما أن أنبياءه يستحيل اختيارهم من بيئه ساقطة المروءة خسيسة المعدن ، ومن ثم فوصمهم بالخنا أو الغدر لا مكان لقبوله ..

وهناك أسفار تنفست فيها الغريزة الجنسية ، لا ندرى كيف وضعت فى كتاب دين !! مثل نشيد الإنشاد لسليمان ، ودعك من الرؤى الهائمة التى لا توصف إلا بأنها أضغاث أحلام .. !

الأسلوب الأمثل في العلاقة بين الرجال والنساء

استطاعت آثار ومتالib من أعمال أهل الكتاب الأولين أن تتسلل إلى المجتمع الإسلامي وأن تعكر صفاءه وتلوى مساره! بعضها في الروابط المقررة بين الرجال والنساء ، بل في سلوك المرأة نفسها وميلها إلى التبرج! والتبرج شيء غير التجمل ، فالتجمل صون الجسد واستبقاء محاسنه الطبيعية واستبعاد ما يشينها أو يشوّهها ، وذاك لاحرج فيه بل هو مطلوب .

أما التبرج فهو الإثارة المعمدة بإضافات مفتعلة للفت الأنظار واستفزاز الرغبات ، وهذا مرفوض ، ويزداد الرفض عندما تكون المرأة خارجة للصلة فإنها بذلك التبرج تفسد جو العبادة وما ينبغي لها من طهر وتحerd ، إن المساجد ليست معارض للفتنة ولا ميدان سباق بين الجميلات ، ويجب إعادة المرأة المتبرجة إلى بيتها .

وقد فعلت نساء بني إسرائيل هذا المحظور قديماً ، وحذر الإسلام منه حديثاً ، وشدد أن يخرج النساء إلى المساجد تفلات ، أى ليس في هيأتهم تبرج ولا إثارة .

إن الإسلام حريص على ظهر العلاقات بين الرجال والنساء في الأسواق والمجتمع والبيوت والشوارع ، ومن حقه أن يطمئن إلى سلامه النبات وبراءة الملتقيات ، ومن حقه تحصين المعاملات من دسائس الغرائز الجنسية ، حتى لا تجد متنفسها إلا في بيوت الزوجية .

وبعض الرجال طلعة! يحب أن يتجاوز ما لديه إلى غيره ، وأن يستكشف من فنون الجمال ما يزيد رغبته حدة! ومن ثم يلجأ إلى التطلع والتلصص مما يزيده ذلك إلا جماحاً وهبوطاً ، ويعجبني قول الشاعر :

لقلبك يوماً أتعبتك المناظر!
وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً

عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر!
رأيت الذي لا كله أنت قادر!

إن غض البصر أدب رفيع ، وحصانة من الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة ، وعلى المجتمع كله أن يتذكر حدود الله ، وأن يحرسها بذكاء وتلطف ، وأن يضع نصب عينيه تيسير الزواج . فإذا مهد الطريق إليه انتصب مارداً جباراً يحمي البيوت ويحفظ الأسر الناشئة ، يوفر لها كل أسباب الازدهار .

والعرب يسمون الزوجة حرمًا ، وهي تسمية تشير إلى أن للعرض قداسة وأن صونه واجب قد تستر خص فيه الدماء .

إلا أن كلمة حريم نقلت إلينا عنوانًا على موضوع آخر ، موضوع رجل مقتدر واسع الجاه ، جمع حوله عدداً قل أو كثراً من النساء ، وعاش يتقلب بينهن في حياة حالمه باسمه ، فإذا حاول أحد الاقتراب من سياج هذا الحريم الغريب فالويل له ، وربما فقد حياته .

وعندى أن بنى إسرائيل أول من رسم صورة هذه المهزلة ، فقد زعموا في العهد القديم أن سليمان كانت له ثلاثة زوجة وبعمائة جارية ، أى أنه جمع في قصوره ألف امرأة .

وهذه القصص وأشباهها من نسيج الخيال ، ألفها وضاعون يغلب عليهم الشبق ! وهنا وقفة نذكر فيها الحق في شأن النساء المسميات بالجواري ، إنهن حرائر مختطفات في أغلب الأحوال .

وفي التاريخ البشري سنوات طويلة كالفترة كانت العصابات المسلحة تغير على المدن والقرى وتتغزو الفتىيات المستضعفات على الهرب معها ، ثم تبيعهن في أسواق النخاسة أو تستمتع بهن ، وكان يقع ذلك بين العرب في الجاهلية ، وربما وقعت في الأسر أو حبائل القناصين نساءهن في الذروة من الشرف والكرامة .

أغار عروة بن الورد على قبيلة غفار - وعروة من صعاليك العرب الشجعان الأجواد ! - وأسر فتاة اسمها سلمى ، وتزوجها واستولدها وكانت المرأة تحيا معه شاعرة بالغضاضة والمذلة ، فلما تاحت لها فرصة الفرار عادت إلى قبيلتها ، وعاشت بين أهلها .

ولحق بها عروة الذي أحبها وكرمتها يطلب منها أن تعود لأولادها فقالت له هذه العبارات الناضحة بالشرف والإباء وعزيمة النفس : « يا عروة إنني أقول فيك - وإن فارقتك - الحق .. والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت ستراً على بعل خير منك ، وأغضض طرفاً ، وأقل فحشاً ، وأجود يدًا ، وأحمى لحقيقة . لكن مامر على يوم منذ كنت عندك إلا الموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك .. طالما سمعت المرأة من قومك تتحدث عنى فتقول : قالت جارية عروة كذا وكذا ، والله لا أنظر في وجه إحداهن بعد اليوم - من كرهها للعبودية - ارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم » .

أهذه أمة من الإماء؟ فما تكون الحرائر الشريفات؟ لكن الحياة قست على رجال شرفاء فبيعوا ماليك ، وقست على نساء كريمات فتداولتهن الأيدي في الأسواق ثم احتبسن وراء أسوار الحرير .

وفي هذا العصر وجد طور آخر للنزوالت والشهوات ، فالرجل السكران الغريزة يستطيع الاتصال بألف امرأة إذا شاء ، لم يجتمع له كما كان يصنع قديماً ، بل يطير وراءهن في أماكن البغاء أو في زوايا الشوارع أو في ساحات المراقص أو في أحفل المجون ومبازل الحضارة الميسرة هنا وهناك ، وإنه لمن المخزن أن تتردى البشرية في هذه الهاوية ..

والأسلوب الأمثل في العلاقة بين الرجال والنساء هو الزواج الذي يضم سكينة الروح إلى متعة الجسد ، وتحاوب الفكر إلى جيشان العاطفة .. والذى يضم قبل ذلك وبعده المهداد الطهور لما ينشأ من أجیال . وقد تحدث الإسلام طويلاً عن الأسرة ، ولكن الحديث شابه فهم سيئ وتطبيقه أسوأ ، ولست أكتثر الحديث الأوروبيين التافه عن التعدد ، فالقوم يعددون في الحرام ما لا يحصر ، ويشغبون على الأديان كلها ، وهي تبيح تعددًا له ملابساته ودعائيه ..

وأحسب أنه عندما يحسن المسلمون تطبيق ما لديهم فإن نموذجًا معجبًا للعلاقات الإنسانية سوف ينال الرضا ويسارع الآخرون إلى تقليله أو الاقتباس منه .

كن مع أهلى الفريقين

من لطائف التعبير أن يذكر بنو آدم في أول سورة الأعراف والمقصود أبوهم ، وأن يذكر آدم نفسه في آخر السورة ويقصد بنوه! في أول السورة يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ .. ﴾ وفي آخر السورة يقول الله جل شأنه في خطأ البشر وشرکهم واعوجاج سيرهم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .. ﴾ ثم يقول : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ وظاهر أن الذين اقترفوا جريمة الإشراك هم أبناء آدم الذين اضطربت بهم عقولهم فزاغوا . !! والنظم القرآنية أولاً وأخيراً يعني البشرية جموعاً ، ويدرك رسالة الإنسان التي كلف بها ولم يحسن أداؤها . .

والإنسان مع الشيطان ليس مغلوباً على أمره ، وإنما هو مخدوع كبير أو مستغفل غريباً! إن الشيطان يملك جهاز إذاعة طويلة الأمواج أو قصيرتها ، والإنسان يستطيع أن يسمع وألا يسمع ، فمن ضبط جهاز استقباله على محطة إرسال معينة سمع ما يريد ، وإلا فهو بمنجاة ، ولا يملك الشيطان إلا قدرة البث ولا يقدر أبداً على تضليل إنسان بقوته!! والغريب أن الإنسان نسى ما وقع لأبيه عندما طرد من الجنة ، ولا يبالى أن تتكرر المأساة لاسيما والشيطان قد أقسم على إذلال أبناء آدم جميعاً ﴿ فِيمَا أَغْوَيْتِنِي لَأَقْعُدَنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَنِئُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أما كان ينبغي أن نحذر هذا الحقد المبين؟؟

والأغرب أن تجربة خدعة آدم من حيلة مكشوفة لا تنطلي على ذكي يقطن! لقد قال إبليس : إنك منعت من الشجرة حتى لا تكون ملكاً!! وكان آدم قادرًا على أن يقول له : إن الملائكة سجدت لي فكيف أهبط عن مكانتي؟ إن ما أنا فيه أفضل!! وأطعم إبليس آدم في الخلود إذا أكل من الشجرة!! ومن قال : إن آدم وبنيه ليسوا من الخالدين؟ حتى لو ماتوا ، فالموت نقلة إلى حياة أقوى وأكبر!! إن الشيطان

أفاك خداع ، واللوم لا يوجه إليه ، وإنما يوجه إلى من يخدع به .. ومن وقع في مصيده بهذا الشرك المكشوف . !!

وفقد أدم ما كان فيه من النعيم ، وهبط هو وزوجته إلى الأرض ليأكلوا بكم اليمين وعرق الجبين !! وتعرضت ذراريهم للتجربة الأولى والخدمة القديمة ، ترى هل يعتبرون ؟ ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ إلى وقت محدود وعمر محدود ثم ترجعون إلى الخالق الكبير ليسألكم عن حالكم في هذه الفترة أكنتم عبيداً له أم عبيداً للشيطان ؟؟ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ .

وبعد هذا السرد لقصة أدم اتجه الحديث إلى أولاده على مر العصور ، فنودوا أربع مرات ليسمعوا نصائح ربهم وينجوا من كيد عدوهم ! ونلحظ في هذه النصائح أنها حذاء إلى الإنسانية الرفيعة أو إلى دين الفطرة ! والحزن أن عالمنا المعاصر مفتون بإنسانية هابطة أو علمانية تشده إلى التراب وترتبطه بنزعاته وقلما ترفعه إلى السماء ، من حيث جاء فلنتدبر هذه النداءات الأربع : أولها يتصل بالملابس ! لقد انفرد الإنسان دون سائر الحيوان بارتداء ثيابه ، وحسناً فعل فهي تستر عورته وتزيين هيئته .. وللناس في ملابسهم تجاوزات فقد يختالون فيها ويستكرون ، وقد يزنون أنفسهم بقيمة ما يرتدون ، وقد تقصير النساء ثيابها وقد تصيقها وترفقها وهذا كله لا يسوغ ، فإن شرف الإنسان ليس في ثوبه ، وقيمةه ليست فيما يرتديه ، هناك ثوب آخر يكسو باطنه ، ويزع حقيقته هو مسماه القرآن بلباس التقوى ، وما عناء الشاعر بقوله :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل !
وقال شاعر آخر :

لأن أرجى عند العرى بالخلق
وأكتفى من يسير الزاد بالعلق
خير وأكرم لى من آن أرى منا
معقودة للثام الناس فى عنقى
يعنى أفضل ليس خلقات بالية وأكل لقيميات تافهة على أن أمد يدى إلى أحد
لألبس الغالى وأكل الجيد ، العفة أشرف ، ولباسها يعصمنى من الهوان والتصاغر .
وذلك كله معنى الآية ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا
وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ .

ونحن في تفسيرنا نربط بين هذا التذكرة، وبين قول الله أول السورة : ﴿أَتَبْعِدُوا مَا نَزَّلْنَا إِلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَنْتَهُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِاءِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله بعد ذلك ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدِي رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثَقَالًا سَقْنَاهُ لَبَدَ مَيْتَ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجَنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما أكثر أسباب التذكرة ولكن الإنسان ينسى ! ما أكثر أسباب الذكر ولكن الإنسان ينسى ! ويذكر النداء : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتَنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنِ الْجَنَّةِ﴾ لا ينبغي أن يقع للأبناء ما وقع للأب من قبل ! لقد نجح الشيطان في إخراج آدم من الجنة فهل ينجح في حرماني بنيه منها ؟ وتعريتهم كما عراه ! إنه عدو حاقد ، ويستطيع أن يراكم وأنتم لا ترونوه ، فهو عليكم أقدر ! لكنه لا يقدر على غواية مؤمن لأن الإيمان حرز حريري ، وشباكه لا يقع فيها إلا فاقدو الإيمان ..

ومن الأعذار المروضةة تقليد الآباء الجهلة واحتلاق أسباب كاذبة للسلوك المعوج . كان الذين يطوفون بالکعبة عرايا يقولون لانطوف في ملابس عصينا الله فيها !! وأغلب المسلمين المنحرفين .. يضمون تحت خيمة الغيبيات أموراً ما أنزل الله بها من سلطان ، تحالف العقل والنقل ، ثم يزعمون أن الله أمرهم بها والله أعلى وأجل من أن يأمر بفاحشة مضادة للذوق والفكر والفترة ﴿أَنَّقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) قُلْ أَمْرَ رَبِّي بِالْقُسْطِ﴾ إن العدالة طريق مأنوس للبشر كلهم فما الحرج في سلوكه ؟ ولماذا لا نسلم كياننا كله لمن خلقنا وإليه نعود ؟ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأْكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) فريقاً هدى وفريقاً حقاً عليهم الضلاله ﴿فَكُنْ مَعَ أَهْدِيَ الْفَرِيقَيْنِ وَأَوْلَاهُمَا بِالنِّعْجَةِ وَالْكَرَامَةِ .

حقائق القرآن تزداد قوة

في وسط سورة «فصلت» حديث عن عوالم أخرى تتصل بالإنسان وهو يهم بالخير أو بالشر . إنه حديث عن الجن ووسائلها ، والملائكة وإلهاماتها . والماديون ينكرون ذلك كله وليس لديهم دليل إلا وقوفهم عند الحس ، ونحن نحترم المادة وما وراءها ونعرف بعالم الجن والملائكة والبشر جميعا ، من الجن مؤمنون وأخيار ومنهم شياطين تلازم الماء وتنتهز غفلاته لتغريه بعصية الله والتهاون بحقوقه ، وقد فعل إبليس - كبير الشياطين - ذلك مع آدم وأزه على الأكل من الشجرة المحرمة وخلف له كاذبا أنه ناصح أمين! وأكل آدم وطرد من الجنة ، والسبب الأول نسيانه والسبب الثاني تربص الشيطان به وانتهاز الفرصة لخداعه ، وكذلك فعل الشيطان مع خصوم الإسلام في صدر الدعوة قال تعالى : ﴿ وَقَيَضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَرَزَّيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسَانِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾^(٢٥) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون إن الكافرين رفضوا القرآن وكرهوا سماعه ، وأغرىهم الشيطان أن يحدثوا ضجيجا في مجده حتى لا يخلص إلى القلوب وهذا منتهى الفشل في مواجهة الحق والعجز عن مجادلته ، وكل صاد عن الحق يغريه الشيطان بمثل هذه الأفعال ، ويوم الحساب يندمون على هذا الهوس ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينِ أَصَلَّاَنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسَانِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُنَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أما أولو الآلباب الذين شرحوا بالحق صدرًا واتجهوا إلى نصرته فإن الملائكة تحفهم وتوئس وحشتهم وتعينهم على تخبط العقبات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ويرى أغلب المفسرين أن هذه الآية تنزل على المحتضرين وهم في آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة لطمأنئهم على ما تركوا من أحبة ولتشريح صدورهم بما سيلقون من رضوان!! ولا يأس بهذا القول وهو لا ينفي ما يدل عليه السياق

. (١) فصلت : ٢٦، ٢٥

من أن الملائكة تهبط على المؤمنين في أثناء جهادهم فتلهمهم الرشد وتعيينهم على الحق وقد صح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لرجل أحسن الثناء على الله : «أعانك عليها ملك كريم» وقال لحسان بن ثابت وهو ينافح عن رسول الله : «روح القدس يؤيدك» إن الملائكة تعين على الحق كما تعين الشياطين على الباطل ، والأساس في الثواب والعقاب هو اتجاه الإنسان ، وكسبه واكتسابه .

والشيطان ماهر في جر الإنسان بعيداً عن الله ، وفي تعمية الصراط المستقيم أمامه ، فكانت الدعوة إلى الله عملاً يذكر الناس وينشر الكسول ، والمفروض أن جهاز الدعوة يحرس الحقائق ويرد الشياطين ويطارد الأوهام والأهواء ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) والرسل أئمة الدعاة على امتداد الزمن ونشاطهم ركن في دعم الإيمان وانتصار الخير ، وأول ما يتوجهون إليه تعريف الناس بربهم وتحببهم فيه ، وقد جاءت آيات في السورة لتحقيق هذا المعنى ﴿وَمَنْ آيَاتُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلنَّقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوكُمْ...﴾^(٢) ﴿وَمَنْ آيَاتُهُ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَائِشَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ...﴾^(٣) ﴿إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَثْثَرٍ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ...﴾^(٤) والحزن أن أجهزة الدعوة الإسلامية معطوبة ، وقد تكون في بعض الأعصار والأمسكار معدومة ، وتفریط العرب في خدمة الدعوة لا يمكن الدفاع عنه ، وانشغلتهم بأهوائهم وعصبياتهم أسقط دولتهم وأضاع رسالتهم ويمكن أن تساق فيهم الآيات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْهُدوْنَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا...﴾^(٥) ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَا جَاءُهُمْ وَإِنَّهُ لِكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾^(٦) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...﴾^(٧) إن حمل العرب لرسالة محمد ﷺ هو حمل لرسالات الأنبياء قاطبة ، فهم في الدنيا يمثلون الوحي من الأزل حتى النهاية ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِرَسُولٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾^(٨) أما أهل الكتاب فقد أضاعوا ما لديهم ونسوا قواعده ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ...﴾^(٩) ومن الغريب أن

(٤) فصلت : ٤٧.

(٣) فصلت : ٣٩.

(٢) فصلت : ٣٧.

(١) فصلت : ٢٣.

(٨) فصلت : ٤٥.

(٧) فصلت : ٤٣.

(٦) فصلت : ٤١.

(٥) فصلت : ٤٠.

ال القوم أنشط من المسلمين المعاصرين في خدمة مواريثهم .. ولهم مطارات لتنقل الدعاية بين الشرق والغرب !! وقد ختمت السورة بآيات تعنى العرب المحدثين والعرب القدامى جمِيعاً ﴿قُلْ أَرَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِنْهُ فِي شَقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^(١) ثم يقول تعالى : ﴿سَرَرَيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُفِّرِبِرِيكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢) إن كل يوم يجئ يزيد أشعة القرآن وهجاً وحقائقه قوة ، ويزيد نبوة محمد ﷺ رسوحاً وصادقاً ، لقد دعا إلى التوحيد الخالص . فهل اكتشف إله جديد غير مرسل الأنبياء المعروفين؟ ولقد وضع نظاماً للفرد والمجتمع والدولة ، فهل وجدت في هذه النظم ثغرة؟ إنه ما يعيها إلا التعطيل والإهمال ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٣) .

(١) فصلت : ٥٢ .

(٢) فصلت : ٥٣ .

(٣) فصلت : ٥٤ .

لنسبعد الواهيات والمتروكات

طلب جماعة من المسلمين المقيمين بإنجلترا أن تسمح لهم السلطات بإنشاء مدارس إسلامية خاصة وهذا طلب عادى ، وقد ألفنا فى أرجاء العالم الإسلامى أن يقيم المهاجرون فى بلادنا مدارس خاصة يتلقون فيها تعاليم دينهم ويتقنون لغتهم إلى جانب المعارف المدنية العامة ، إلا أن نفرًا من الإنجليز عارضوا الطلب وضاقوا بإنشاء هذه المدارس قائلين إنها ستقوم على تفرقة عنصرية بين البنين والبنات واتهموا الإسلام بأنه متحيز ضد النساء ومسقط لحقوق المرأة .

غير أن حزب العمال البريطاني ساند الطلب وقال المتحدث الرسمي لشئون التعليم بالحزب «مستر جاك سترو» ، كما ذكرت صحيفة التايمز : إن الذين يعترضون على إقامة هذه المدارس مخطئون وربما غلبتهم نزعات عنصرية ، واتهمهم بأنهم لا يعرفون الإسلام .

وفى مؤتمر عقد فى لندن حول مستقبل التعليم الإسلامي فى إنجلترا قال مستر جاك سترو : إن معاملة المجتمع الإسلامي للمرأة يجب أن تدرس دراسة عميقة وأن ينظر فيها إلى الأصول . لقد سمعت مزاعم كثيرة بأن الإسلام ضد المرأة ، ويعتمد أصحاب هذه المزاعم على عدم وجود نساء يستغلن بالدعوة الدينية أو يلقين دروساً بالمساجد وأن الرجال يحتكرون السيادة أو القيادة فى هذا الميدان كما يحتكرونها فى المجال السياسى .

وقال : هناك جهل تام بدور المرأة فى «اللاهوت» الإسلامى وفى تاريخ الإسلام نفسه !! وعند التأمل نرى وضع المرأة المسلمة أهم من وضع المرأة اليهودية أو النصرانية فى الأيام الماضية .

ثم إن الإسلام أعطى النساء حق الإرث فى كل الممتلكات قبل أن تفعل ذلك الحكومة البريطانية بثلاثة عشر قرناً .

الحق أنى شكرت مثل حزب العمال على دفاعه الحسن ، وإن كانت الإذاعة البريطانية قد ردت ذلك إلى التنافس الانتخابى وكسب الأصوات من حزب المحافظين ! وأعود أنا إلى الموضوع نفسه لأن الحديث فيه على عجل ، فقد تناولته بشىء من التفصيل فى كتاب آخر ، هو «مستقبل الإسلام خارج أرض الإسلام» .

الإسلام متهم بإهانة المرأة واستضعافها . ! فهل في كتاب الله وفي سنة رسوله ما يبعث على التهمة؟ القرآن الكريم بين أيدينا لم يتغير منه حرف ، وهو قاطع بأن الإنسانية تطير بجناحين ، الرجل والمرأة معاً ، وأن انكسار أحد الجناحين يعني التوقف والهبوط .
فلننظر إلى السنة ، ولنستبعد ما التصق بها من الواهيات والتروکات .

إن مصاب الإسلام في المتحدثين عنه لا في الأحاديث نفسها . نبينا ﷺ يوصي بأن تذهب النساء إلى المساجد «تَفَلَّاتٍ» أي غير متعرضات ولا متبرجات ، ولكن «القسطلاني» في شرحه للبخاري يرى أن تذهب النساء إلى المساجد بشباب المطبخ ، وفيها رواية البقول والأطعمة!! وغيره يرى ألا تذهب أبداً ، فائي الفريقيين شر من صاحبه على الإسلام ..؟

وفي البخاري أن النبي ﷺ أجاز أن يسلم الرجال على النساء وجاء فيه أن الرسول الكريم قال لعائشة : هذا جبريل يقرأ عليك السلام – وكان في صورة رجل – فجاء من يقول : ذاك عند أمن الفتنة! أو ذاك مع النسوة المحارم أو العجائز أو الدميمات . ومع ورود سنن بسلام الرجال على النساء أو النساء على الرجال ، فقد كان جهد الشراح وقف العمل بها على أي صورة ، وكلما امتد الزمان زادت هذه الشروح قوة حتى ألغت الأصل المتبوع ، وأحلت مكانه التفسير المتشائم المغشوش! وفي كل عصر توجد نسوة نوابغ متقدمات قارئات فقيهات ، يستطيعن جعل بيتهن مساجد عامرة بالخير ، منهم «أم ورقة» التي قال الصناعي عنها في الحديث رقم ٣٩٢ : «أمرها النبي عليه الصلاة والسلام أن تؤم أهل بيتها» .

وبعد أن حط عنها الغزو – وكانت تريد القتال في بدر – جعل لها مؤذناً يدعو للصلوة . قال الصناعي : والظاهر أنها كانت تؤمه ، وغلامها وجاريتها .

لماذا أنس ربي؟ يجب أن أنعطف إليه والوذبه

الشهادة منزلة رفيعة من الرضوان الأعلى ، يصطفى الله لها من يشاء من عباده ، ولذلك قال : ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾^(١) والمحظ أن المختارين لهذه المكانة مؤمنون همهم الأكبر إعلاءً كلمة الله ، والإصلاح والإمساء في دعم الإسلام وحماية بيضته ورد العدوان عنه ، وقتلى أحد نماذج فريدة لهذا الخلق الواضح الواضح ، تدبر سيرة مصعب بن عمير أنعم فتيان مكة ، الذي اعتقد الإسلام فحرم ثروته وعرضه الفقر بنابه ، فإذا هو يلبس ثوباً من جلد الضأن بعد أن كان يخب في الحرير .

ثم هاجر قبل المهاجرين مكلفاً من رسول الله بنشر الإسلام في المدينة فلم يدع بيته ذا شأن حتى أدخله فيه ،وها هو ذا يقتل في أحد غريباً ، عليه ثوب لا يكمل كفنا لجثمانه الطاهر ، فتغطى قدماه بالإذخر !!

وتدارس سيرة عبدالله بن حرام ، وكان أباً لست بنات وغلام واحد - هو جابر بن عبد الله - فقال لابنه : لا تترك الفتيات الست دون رجل معهن ، ولا تطيب نفسك بأن يخرج الرسول للقتال وأنا جالس في بيتي ، فابق أنت معهن ، وأنا ذاهب للقتال ، وذهب الرجل ليشهد في المعركة ! لقد كان وضع المسلمين مكسوفاً بالخارج بعدما ترك الرماة مواقعهم ، ولذلك قتل منهم سبعون بطلاً في دفاع كئيب شاع فيه أن الرسول نفسه قتل !

لكن قريشاً وجدت أنها تصطدم بحائط من الصلب ، وأنها لن تبلغ أكثر مما بلغت ، فجمعت رجالها وعادت أدراجها إلى مكة .

ونزل في مصاير الشهداء قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١٦٩) فر حين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم لأن خوف عليهم ولا هم يحزنون^(٢) .

(٢) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .

(١) آل عمران : ١٤٠ .

إن الله أعلم أولئك الشهداء أن إخوانهم وأولادهم على درب الحق ، وأنهم أدوا واجبهم في نصرة الله ورسوله ، وأنهم - عن قريب - سوف يلحقون بهم في دار النعيم . ومن المفيد أن نذكر ما فعل المسلمون بعد الهزيمة العارضة ، فقد جمعوا فلولهم ، وتحاملا على جراحهم ، وانطلقوا في طريق مكة يطاردون جيش الكفر الذي كان يمشي متباطئاً يحدث نفسه بعودة لاستكمال ما بدأ ، فلما شعر بال المسلمين قادمين سارع في العودة من حيث جاء .

وعاد المسلمون كما وصف الوحي : ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١) .

وينقطع التعليق على غزوة أحد مؤقتاً ، ليتصل الحديث مرة أخرى عن اليهود ، ونلاحظ هنا أن السياق صار مزدوجاً إلى آخر السورة ، فهو تارة يتناول اليهود ، وتارة يتناول عبدة الأوثان ، ولا عجب فجهاد الدعوة يتناول الفريقين على سواء كما قال جل شأنه : ﴿لَتُبَلَّوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَقُولُوا إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢) .

ويبلغ اليهود في كفرهم حداً من الإسفاف يحقن الخل임 . فالقرآن يطالب المؤمنين بالإإنفاق في سبيل الله ، سواء كان هذا الإنفاق دفاعاً عن الحق أو كان إسعافاً للفقراء والمساكين ، وهو يفرض ذلك في أسلوب عال يغري بالبذل في أشرف صور البيان ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنَا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَصْطُدُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣) . فماذا يقول اليهود عندما يسمعون ذلك؟ يقولون : إن الله فقير يفترض من العباد!! ويقولون : إنه ينهى عن الربا ويعامل به!! ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرَقِ﴾^(٤) .

والواقع أن هذا تعليق قوم ليس في أفقدهم إيمان ولا تقى ، يعيشون بـ مواريثهم عيشة خسيسة! ويستقبلون الإيمان الغض بـ أحقاد بالية وسخائم محقورة .

(٢) آل عمران : ١٨٦ .

(٤) آل عمران : ١٨١ .

(١) آل عمران : ١٧٢ .

(٣) البقرة : ٢٤٥ .



ولا يستغرب فى مجتمعهم أن يعبد المال وحده ، وأن تطلب الدنيا وتتossى الآخرة !! وأن يعاملوا غيرهم من البشر وهم صرعنى هذه الدنيا .. اليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار ! فهل هذا الاختيار تعليم للأم واحسان إليها؟ أم هو الاستعلاء عليها ثم استغلالها واستنزاها؟ إن التاريخ اليهودي ليس تاريخ عطاء بقدر ما هو تاريخ صلف وغصب !! وليس عرب اليوم هم الذين يقولون ذلك ، بل قوله شعوب أوروبا وأمريكا التي عانت قديماً وسوف تعانى مستقبلاً .

وفي هذه السورة تلخيص لسيرة اليهود : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِتَبَيَّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُتُمُوهُ فَبَنَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسِبُنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيَحْبِبُونَ أَنْ يَحْمِدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبُنَّهُمْ بِمِقَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

وتنقلنا سورة آل عمران إلى جو آخر بعيد عن الماضي وذكرياته ودلالاته . ألا يقودنى هذا إلى الله والتبسيح بحمده ، والإقرار بمجده لأن ترك جانباً الخلاف بين الأديان وأتباعها ، ولأعول على عقلى الذى سأحاسب به ، ولأفك فى مصيرى بعد هذه الدنيا؟ لماذا أنسى ربى وأبتعد عن صراطه المستقيم؟ يجب أن أتعطف إليه وألوذ به !

وها قد ظهر إنسان يصبح بأهل الأرض أن يشوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بربهم لماذا الصد عنه؟ ألا يستحق هذا الداعى المتجرد أن أصيح إليه ، وأتدبر دعوته؟ ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًّا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (٢) .

إن الله يجيب هذا الدعاء بأنه لا يضيع عمل عامل من الإنس أو الجن ، من السود أو البيض ، لا يهم العنصر أو النسب ، المهم العمل الصالح .

ماذا يتعاظم الناس من الإيمان بإنسان يدعوه إلى الصلاح على ضوء من الخشوع لله والاستعداد للقاء؟ ماذا في دعوته يؤلب القلوب ضده ، أو يحرض الأحزاب على قتاله؟ لكن العميان من عبدة الأصنام والمتعصبين من أهل الكتاب تألبوا عليه ، وقاتلوا ، واضطروا أتباعه إلى هجرة وطنهم وتحمل أنواع الأذى فى سبيل معتقدهم ، فليكن

(٢) آل عمران : ١٩٣ .

(١) آل عمران : ١٨٧ ، ١٨٨ .

جزاؤهم كما وصف الله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مَّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذَدُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كَفَرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخُلُّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾^(۱)

إن الكفار قد تعلو رايتهم ، وتنتصر جيوشهم ، ليكن ، فذلك إلى حين ﴿لَا يَغْرِنَكَ تَقْلُبُ الدَّيْنِ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾^(۲) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَئْسَ الْمِهَادُ .

وقد غالب المشركون يوماً في أحد ، فماذا كان؟ توقف سيل الحق قليلاً ، ثم مضى تياره من بعد عاصفاً لا يوقفه شيء ، والعاقبة للتقوى .

وختمت سورة آل عمران بعد هذا العرض الفصل بأياتين أولاهما تتحدث عن أهل الكتاب ، وما ينبغي منهم بإزاء النبي الخاتم ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاطِئِينَ لِهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ .

والآية تتضمن إلى آخر الدهر دعاء إلى أهل الكتاب من يهود ونصاري أن يستمعوا إلى النبي الخاتم ، ويؤمنوا بما جاء به ، أما الآية الأخرى فهي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا توجيه لل المسلمين الذين اتبعوا محمداً أن يصبروا على تعاليم الحق الذي شرفهم الله به ، وأن يكونوا أصبر من غيرهم في هذا المجال وأن يكونوا في رباط دائم حول ثغورهم وأراضيهم حتى لا تدخل عليهم من أقطارها كما فعل الاستعمار الأخير !

هذا نداء لنا ، فهل نلبي النداء؟

(۲) آل عمران : ۱۹۶ ، ۱۹۷ .

(۱) آل عمران : ۱۹۵ .

من أعظم القراءات لدى الرحمن

بئس الرجل يعيش لنفسه وحسب! لا يهتم إلا بماربه ، ولا يغتم إلا لمتابعه ، ولا
يعرف إلا من يقرب له مصلحة ، ولا يجفو إلا من لاحاجة له عنده!

إن هذا النوع من البشر أدنى إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، ذلك أن الإنسان يفضل
الحيوان بأمررين ، أولهما عقله المتحرك الجواب في الأرض والسماء ، والثاني عاطفته
الرحمة التي تشغله بأمر نفسه وأمر الآخرين .

إن الدابة لا تحس إلا كيانها وما تهوى وما تخشى! وقد تند عاطفتها إلى ذريتها
حينما من الزمن ثم ينسى كلاهما الآخر وينطلق كما يشاء ، وفي الناس من يصبحون
ويمسون لا يخرجون من القوقة التي يحيون داخلها ، وهي أناناتهم المطلقة المطبقة!

والإسلام شديد الخرص على إيقاظ المسلم إلى غيره ، وتعريفه بحقه ، وإيصاله
برعايته ، وأول أولئك - بعد الوالدين - ذوى الأرحام .. ومن حديث رسول الله ﷺ
«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه» .. «من أحب أن يبسط له في
رزقه ، ويسأله في إثره - يطال في عمره - فليصل رحمه» .

ومن حكم النبوة ولطائفها ما رواه أبوذر : «أوصانى خليلي ﷺ بخصال من الخير ..
أوصانى ألا أنظر إلى ما هو فوقى ، وأن أنظر إلى من هو دونى .
وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم . وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت .
وأوصانى أن لا أحاف فى الله لومة لائم .
وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مرا .

وأوصانى أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة» .
والأقارب ليسوا سواء ، ففيهم السيئ الخلق القريب الشر ، وفيهم الودود المقرب بالجميل
الناشر للمعروف .. «عن أبي هريرة أن رجلا قال : يارسول الله ، إن لي قرابة أصلهم
ويقطعوننى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلى ، أحلم عليهم ويجهلون على ، فقال له : «إن
كنت كما قلت فكأنما تفهم المل - الرماد الحار - ولا يزال معك من الله ظهير
عليهم مادمت على ذلك» وقد كان العربي يفخر بتحمله أذى الأقارب إبقاء على صلة
الرحم ولا يحمل الضغينة على قريب .

إذا قيل: مولاك احتمال الضغائن

ان کان مولی لیس فیما ینوبنی

يعنى أنه قريب قليل الخير ، ولكنه يعينه ، وإن كان قليل العون ، لا يسد ثغره!

ونريد أن ننظر إلى دائرة «الأرحام» كما رسمها الإسلام فإنها أوسع كثيراً مما يظنها المرء لأول وهلة ، إنها تمتد وتدفع حتى تتجاوز الأعمام والأحوال وأبناء الأعمام والأحوال ، والقرابات من الدرجة الأولى والثانية حتى تشمل الكثيرين !

الأساس - في نظر الإسلام - أن الناس جمِيعاً إخوة لأب وأم ، وأن هذه الصلة المشتركة لا يجوز أن تهمل وإن طال الزمان وكثُرت الفروع وزاد البنون والبنات ، والإخوة والأخوات ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).

الناس كلهم ينميهم أب واحد وأم واحدة ، وهم - رضوا أم كرها - إخوة تجربى فى عروقهم دماء مشتركة فعلام التقاطع والتناحر والاستكبار والاحتقار؟
إن النزعات العرقية قسمت البشر قديماً وحديثاً ، ولا تزال الفروق القومية تجعل أبناء آدم كأنه لارحم بينهم ولا قرابة .

والأوروبيون يسررون ويعلنون أن الجنس الأبيض ، أو سكان الشمال ، هم الأرقى والأذكى ، والمعروف أن القوم لم يبرز لهم تاريخ متفوق إلا من بضعة قرون .
وهناك الاختلافات الدينية ، فهى من قديم أساس عراك دموى ظلوم أرخص الأرواح والأموال وورث الأحقاد والثارات .

وقد أهدر القرآن الكريم كل ما توهّمه الناس مبعث انقسام وشجار عندما قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٢).

الحجات (٢) :

١) النساء:

إنى باسم الإسلام أقول لغيري من لا يدينون ديني ، لكم عندي البرة والعدالة ، ولكن
عندي حقوق الرحم الإنسانية الجامعة ، وغاية ما أنشده أن ترکونى وما اقتنعت به ، وأن
ترکوا غيري حرّاً فى اتباعى إذا شاء . نحن نؤمن بالله الواحد ، وبجميع الرسل الذين
أرسلهم ، وندعو إلى وحدة دينية تحقق الوحدة الإنسانية وتصحح مسيرتها فى هذه الحياة .
فمن صدقنا فهو منا ، ومن كذبنا فيتركنا وشأننا ولا يلجهتنا إلى مقاتلته دفاعاً عن أنفسنا .
قال عبدالله بن عباس فى شرح قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ
الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصْلُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ..﴾ (١) ي يريد الإيمان بجميع الكتب
والرسـل ، يعني يصل بينهم بالإيمان ولا يفرق بين أحد منهم .

هذا هو الإيمان الجامع للكلمة ، المحقق للوحدة ، الواثق لما بين الأنبياء من رحم
وبين أتباعهم من إخاء . و من السهل رؤية الأطماع البشرية وهى تتخفى تحت رداء
الوطنية والطائفية قاطعة الأرحام وسافكة الدماء قال تعالى : ﴿فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ
أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ فَأَصْمَمْهُمْ وَأَعْمَمْ
أَبْصَارَهُمْ﴾ (٢) .

وهنا مبحث لغوى طريف ثار عند شرح الحديث : «إن الله خلق الخلق ، حتى إذا
فرغ منهم ، قامت الرحـم فقالت : هذا مقام العائد بك من القطـيعة ! قال نعم ، أما
ترضـين أن أصلـ من وصلـك وأقطعـ من قطـبك ؟ قالت : بلـ ! قال : فذاكـ لكـ . وهو
معنى آية ﴿فَهَلْ عَسِيْتُمْ ...﴾ إـلـخـ قال القاضـى عـيـاضـ : الرحـمـ التـى توصلـ وتقطعـ
وتبرـ أو تـعـقـ إـنـماـ هـىـ معـنىـ منـ المعـانـىـ كالـعـلـمـ ، والـعـدـلـ ، والـرـحـمـةـ .. وـغـيرـ ذـلـكـ ، إنـهاـ
ليـستـ جـسـمـاـ ، إـنـماـ هـىـ قـرـابـةـ وـنـسـبـ يـجـمـعـهـ رـحـمـ وـالـدـةـ ، فـيـتـصـلـ بـعـضـهـ بـعـضـ .
وـالـعـانـىـ لـاـ يـتـائـىـ مـنـهـ الـقـيـامـ وـلـاـ الـكـلامـ ، فـكـيـفـ يـفـسـرـ الـحـدـيـثـ ؟

قال : إنـماـ هوـ ضـربـ مـثـلـماـ جـرـىـ عـلـىـ عـادـةـ الـعـرـبـ فـىـ الـمـحـاـزـ وـالـاستـعـارـةـ .. وـالـمـرـادـ
تعـظـيمـ شـائـنـ الرحـمـ وـبـيـانـ إـثـمـ قـاطـعـهاـ .

وقـيلـ بلـ المرـادـ قـيـامـ مـلـكـ مـنـ الـمـلـائـكـ بـهـذـاـ المـوقـفـ يـتـعلـقـ بـالـعـرـشـ وـيـتـكـلمـ بـلـسـانـ
الـرحـمـ . وـأـيـاـ مـاـ كـانـ الـأـمـرـ ، فـصـلـةـ الرـحـمـ مـنـ أـبـرـزـ شـعـبـ الإـيمـانـ وـمـنـ أـعـظـمـ الـقـرـيبـاتـ
لـدـىـ الرـحـمـنـ .

(٢) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

(١) الرـعـدـ : ٢٠ .

لَا عَالَقَةَ لِلتَّخْصِصِ بِمُوازِينِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ

بَيْتٌ عَرِيقٌ أَنْحَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ فَزَلَّتْ مَكَانَتُهُ فِي الْجَمَعِ ، وَأَطْمَعَتْ مِنْ دُونِهِ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَقدَّمَ خَاطِبًا لِبَنَاتِهِ وَمَا كَانَ يَجْرُؤُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ .

وَغَضْبُ رَبِّ الْبَيْتِ لِكَرَامَتِهِ التَّى جَرَحَتْ ، وَتَسَاءَلَ فِي أَسْفٍ : إِذَا عَرَضْتَ لَهُ أَزْمَةً عَابِرَةً تَطَاوِلُ عَلَيْهِ الصَّغَارُ وَجَاءَ مِنْ يَرِيدُ الزَّوْاجَ بِابْنَتِهِ وَهُوَ لَيْسَ لَهَا بِكَفِءٍ؟

لِذَلِكَ طَرَدَ بِعَنْفٍ بِالْغَلَبِ الْخَاطِبَ الْقَادِمَ قَائِلًا لَهُ : تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ سَيِّدًا بِأَخْذِ سَيِّدَةٍ مِنْ بَيْتِنَا لَا تَرْتَفَعْ إِلَى مَسْتَوَاهَا؟ اذْهَبْ عَنَا فَالْبَنَاتُ كَثُرْنَ بَعْدَ أَنْ مَنْعِ الإِسْلَامِ وَأَدَّ الْبَنَاتِ! أَمَا ابْنَتَنَا فِي مَكَانَهَا الْعَالِيِّ لَنْ تَرْتَخِصَهَا أَزْمَةٌ مَهْمَا اشْتَدَتْ!!

وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ التَّى تَفَجَّرُتْ فِيهَا ثُورَةُ رَبِّ الْبَيْتِ الْجَرِيجِ !!

تَبَغِي ابْنُ كَوْزَ وَالسَّفَاهَةَ كَاسْمَهَا

لِيَسْتَادَ مَنَا أَنْ شَتَّتُونَا لِيَالِيَا

مَا أَكْبَرُ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ حَرَازَةِ

بَأْنَ أَبْتَ م_____زَرِيَا عَلَيْكَ وَزَارِيَا

وَإِنَّا عَلَى غَضِ الزَّمَانِ الَّذِي بَنَا

نَعَالِجُ مِنْ كَرَهِ الْخَازِي الدَّوَامِيَا

فَلَا تَطْلُبْنَهُ سَايَابِنْ كَوْزَفِإِنَهِ

غَذَا النَّاسُ مَذْقَامَ النَّبِيِّ الْجَسَوارِيَا

وَإِنَّ الَّتِي حَدَثَتْ هِيَ فِي أَنْوَفِنَا

وَأَعْنَاقَنَا مِنَ الْإِبَاءِ كَمَا هِيَا

وَالَّذِي اسْتَوْقَنَى مِنْ هَذِهِ الْقَصَّةِ أَمْرَانِ : أَوْلَهُمَا أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْفَقْرُ تَمَاسِكَ وَتَحْمَلَ آلَامًا هَائلَةً حَتَّى لَا يَلْمُ بِدُنْيَتِهِ أَوْ يَقْتَرِفَ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَالثَّانِي أَعْزَ ابْنَتَهُ وَجَعَلَ مَكَانَتَهَا فِي أَنْفَهِ وَعَنْقَهِ فَلَنْ تَذَلَّ أَبْدًا مَادَمَ حَيًّا! وَكَلَّا الْأَمْرِينَ مِنْ خَلَائِقِ السَّادَةِ الَّذِينَ يَحْتَرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَّهُمْ ، وَلَا يَعْنِيَنِي غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْقَصَّةِ كُلُّهَا .

وال المجتمع العربي قديماً وحديثاً تحكمه تقاليد صارمة بعضها لا يأس به وبعضها فيه نظر . واهتمام العرب ببنسبهم وسمعتهم قد يخالطه غرور وكبر ، ولكن الأستاذ أحمد موسى سالم يقول : إن العرب في حياتهم الأولى كان يحكمهم قانون «الحمد» الذي جاء به اسم محمد من مشرق طفولته ، تأكيداً لراحل الاصطفاء له من بين محمد العرب لا من بين مساوئهم فكان هو الحمد ، بحسب قانونهم وكان كما هو الواقع وكما قال عن نفسه «خيار من خيار من خيار» .

وقد شرحت النساء هذا القانون الشريف بقولها :

نعرف ونعرف حق القمرى

ونت خذ الحمد كنزاً وذرراً!

وتقول أم حاتم الطائى وكانت في سباق المكارم تحبود لمن يسألها بكل ما تملك :

لعمرى لقد ما عضنى الجوع عضة

فالآيت ألا أمنع الدهر جائعًا!

وما إن ترونالي يوم إلا طبيعة!

فكيف بتتركى يابن أمى الطبائع!

فهذه امرأة جاعت مرة فأقسمت ألا ترى جائعاً إلا أعطته ما تملك! وكان من حقها أن تفعل ذلك! ولا يستطيع أحد أن يمنعها .

وكانت إحدى حكيمات النساء قبل الإسلام ، وهي جمعة بنت الحسن ، تصف الصدق وتجعله فوق كل الفضائل فتقول :

وخير خلال المرء صدق لسانه

وللصدق فضل يستبين ويزداد!

وإنجذب الموعود من سبب الغنى

فكن موفياً للوعد ، تعطى وتنجز!

وقانون الحمد الذي أشار إليه الأديب الكبير جدير بالإقرار مع تعليق محدود ، فالإسلام يريد منا أن نعمل ابتغاء وجه الله وانتظار مثوبته يوم اللقاء الأخير ، فإذا أخلصنا العمل له سبحانه جازانا بالذكر الحميد في الدنيا والآخرة ، ولا يجوز أن نعمل طليباً لثناء الناس ، كما لا يجوز أن نعرض سمعتنا للقليل والقال .

وفي العرب ميل للفخر والظهور والمباهة وهي رذائل تشوب العمل الصالح وقد
تطيّب به .

والحق أن المرأة العربية في الجاهلية الأولى بربت شمائلها الحسان في ميادين كثيرة
أيام الحرب وأيام السلم على سواء ، ولم توضع أمامها العوائق التي وضعت أمام
المسلمات في عصور الانحطاط العام للأمة الإسلامية .

وفي صدر الإسلام استطاعت امرأة من الخوارج أن تقود جيشاً يهزم الحجاج ويحصره
في قصره ويتركه وهو مذعور ، حتى عيره أحد الشعراء على هذا الموقف الحزني بقوله :

أسد على وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر!

هلا برزت إلى غزاله في الوعي بل كان قلبك في جناحي طائر!

أما في العهود الإسلامية الأخيرة فإن المرأة ما كانت تدرى وراء جدران بيتها شيئاً!!
وعندما غلبتنا حضارة الغرب المنتصر ، كان هم المرأة أن تقلد في الثوب الرشيق والمنظر
الأنيق! أما في غزو الفضاء واكتشاف الذرة ودراسة النفوس والأفاق فإن الأمر لا
يستحق الاكتتراث ؛ لأنه ليس من شأنها ولا من رسالتها!!!

إن الإسلام لا يقيم - في سباق الفضائل - وزناً لصفات الذكورة والأنوثة ، فالكل
سواء في العقائد والعبادات والأخلاق ، الكل سواء في مجال العلم والعمل والجد
والاجتهاد ، فلا خشونة الرجل تهبه له فضلاً من تقوى ، ولا نعومة المرأة تنقصها حظاً
من إحسان ، وفي القرآن الكريم : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ (١) .

وفي عالم الرياضة اليوم يفصل بين مباريات الرجال والنساء ، وتوضع مسافات
وأرقام للكلا الجنسين على حدة . ربما صرّح هذا في دنيا الألعاب لكنه مستحيل في
سباق الصالحات وكسب الآخرة ، ربما تقدّمت امرأة فسبقت ذوى اللحى دون حرج ،
وربما تأخرت ولو كانت قرينة أحد الأنبياء ، ولذلك قلنا : امرأة فرعون خير منه ، ومريم
أشرف من رجال كثيرين ، ونوح ولوط خير من زوجاتهما!!!

(١) النساء : ١٢٤ ، ١٢٣ .

وأذكر أن أحد الناس قال لي : إن القرآن يرجع الذكورة على الأنوثة ، ويسوق لزعمه قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى ﴾^(١) وهو فهم أعوج !

فالجملة القرآنية وردت على لسان امرأة عمران التي كانت حاملاً ، وظنت أنها ستلد رجلاً يكون سادساً للمسجد الأقصى وقائداً للعابدين والدارسين فيه ، فلما فوجئت بإخلاف ظنها وأنها ولدت أنثى ، قالت هذه الكلمة لأن المرأة لا تصلح لهذه القيادة بطبيعتها ، وقد قبلت الأمر الواقع لأنه مراد الله ! ودعت لابنتها ولذريتها بالصيانة والرعاية فاستجاب الله الدعاء بأن أعلى قدر المولودة فوق ألف مؤلفة من البشر ، وأعلى قدر ابنتها فجعله من الأنبياء أولى العزم .

ولاشك أن هناك وظائف تخص النساء وأخرى تخص الرجال ، ولا علاقة لهذه التخصصات بوازين العدل أو الفضل الإلهي .

(١) آل عمران : ٣٦ .

فکر طفولی جدیر بالضحك

لا أستغرب أن تستند إلى كتابك يا صاحبى فى الأخذ والرد ، فأنا أعتمد على القرآن الكريم فى مسirى وأرائى ، وحتى لا يتشعب بنا الحديث إلى وجهات كثيرة أرى أن نضع عدة مبادئ نتفق عليها ، ثم ننظر بعدها فيما لدى كل منا من تراث!

قال : ما هى تلك المبادئ التى تقتربها؟

قلت :

أولاً : نتفق على استبعاد كل كلمة تخدش عظمة الله وجلالته! فأنا وأنت متفقان على أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، وأن رحمته وسعت كل شيء ، وأنه ليس متصرفًا بالنقصان والعيوب التي تشيع بين البشر .. إلخ .

وثانياً : نتفق على أن الله يختار رسle من أهل الصدق والأمانة والكياسة ، ويبعد أن يختار سفراe إلى عباده من اللصوص والقتلة وأشباههم من المجرمين ..

ثالثاً : ما وجدناه متواافقا في تراثنا نرد إليه ما اختلف عنه ، وبذلك يمكن وضع قاعدة مشتركة بين الأديان .

فنظر إلى متربداً كائناً يخشى أن يقع في حفرة!!

فصحت به : ماذا في هذه المبادئ الثلاثة يشقيك؟ أترتاب في كمال الله أو في نزاهة الأنبياء ، أو يضايقك أن يكون في كتابك ما أصدقه أنا لأنه عندي أيضاً؟

قال : عند التطبيق يتضح مرادك! وبداية لا مانع عندي من السماع ، والقاعدة المقترحة حسنة على الإجمال ..

قلت : في سفر التكوين أن الله كان يمشي في الجنة ، ففوجئ بأدم مختبئاً بين الشجر ، وشعر بأنه عريان ، فسألته : هل أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ فاعترف بأن امرأته أغرتة ، فأكل ، فتعرى !!

أسألك : هل هذا السياق مشعر بأن الله يعلم كل شيء؟ إنه كان جاهلاً حتى أخبره أدم !!

أما ديني فيخبرنى أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه على كل شئ شهيد ، فأى السياقين أولى بالقبول؟

وفى القصة نفسها أن الله بعدهما علم أن آدم أكل من الشجرة ، فكر فى مستقبله باهتمام ، لأن الشجرة التى أكل منها هى شجرة المعرفة ، ويخاف أن يأكل من شجرة الحياة فيخلد ولا يفنى ، فأمر بإخراجه من الجنة حتى لا يتحول إلى نِدَّ لله يشاركه البقاء!!

هل هذا السياق مقبول؟ أليس يفيد أن الله استكثر على آدم الأكل من شجرة العلم وأنه يريد له أن يحيا جاهلاً؟ فلما أكل خشى منافسته له عندما يزداد طمعه ، وسيكون خالداً عندما يأكل من شجرة الحياة ، فأمر بطرده حتى لا ينافسه سلطانه ، ثم أمر بحراسة هذه الشجرة من كل طامع!!

من يخاف الله؟ والكون كله إنما نشأ بإيجاد الله ، وبقى بإمداده ، ولو تخلى رب العالم طرفة عين عن هذه العوالم لزالت ، ولم يبق لها أثر!!
هذا فكر طفولي جدير بالضحك!

إن الحديث عن الله فى كتابنا له أوج آخر ، ونسق موغل فى السناء والسمو ، وقد بين القرآن الكريم أن هذا النسق لم يجئ بدعى على لسان محمد وحده ، بل جرى من قبل على ألسنة إخوانه الأنبياء السابقين واحداً واحداً .

تدبر هذا الحوار بين فرعون ، وموسى وهارون : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَتَيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولاً رَبَّكَ فَأَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جَئْنَاكَ بِآيَةً مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلََّ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبَّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونُ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُّوا وَارْعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولَى النُّهَى ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ .

(١) طٰه : ٤٦ - ٥٥ .

إن الفارق في الحديث عن الله بين الكتابين ، كالفارق بين كلام شخص فليسوف قاصر ، وفيلسوف راسخ !!

قال الرجل : لا أسمح لك بهذا التطاول ، وقد بدأ الكتاب المقدس بحديث عن الله الخالق ، علمنا أنه الموجد الأوحد للسماءات والأرض والبر والبحر ، فلا مكان لهذا اللغط !!

قلت : إننا نتحدث عن الحوار الذي دار في الجنة ، بين الله وأدم ، وبين الله وملائكته ، وأتفق معك على أن الكتب السماوية كلها قالت : إن الله خالق السماوات والأرض ، بل إن عبدة الأصنام يقرؤن ذلك ولا ينكرونه ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(١) ومع ذلك يتناقضون مع أنفسهم ويعبدون غيره .

وأنتم مع الحديث عن الله الواحد عند بدء الخلق ، لم تقدروا الله حق قدره فنسبتم إليه ما يخدش جلاله ..

ولذلك أستاذنكم في أن أرجع الحديث عن المبدأ الثاني مؤقتاً ، لأذكر طرفاً مما اتفق فيه كتابنا وكتابكم ، لعل ذلك يسركم .

عندما سئل عيسى : أى وصية هي أول الكل؟ أجاب : أولى الوصايا كلها هي «اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد ، تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك» .

هذه هي الوصية الأولى ، والثانية مثلها ، تحب قريبك كما تحب نفسك ، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين . فلما جاء عيسى بهذه الكلمات ، قال له الكاتب : جيد يا معلم !! بالحق قلت ، لأن الله واحد وليس آخر سواه ، هذا ما كتبه مرقس في إنجيله .
نقول : ومع غض البصر عما في الصياغة من ركاكة ، إلا أن المعنى صحيح ، فأصدق كلمة هي لا إله إلا الله ، وصلة الرحم من أعظم القربات .

وبهذا نطق كتابنا ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..﴾^(٢) .

. ٣٦) النساء : (٢) .

. ٩) الزخرف : (١) .

إن الإسلام يرى عقيدة التوحيد جذر تعاليمه كلها ، ويرى الشرك في الإيمان أو السلوك أعظم الكبائر ..

و تلك وصية الله لأنبيائه جمِيعاً ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾⁽¹⁾ .

وفي الحضارة الحديثة نلحظ أن الاستمتاع بالنساء أخذ طرقاً معوجة كثيرة ، ويستحيل وصف هذه الحضارة بأنها عفيفة ، أو مقتضدة في ملذاتها ، إنها لاتزال تكرع من الآثار حتى تهلك من التخمة ، وكذلك تصنع في سائر علاقاتها بالدنيا!

أهذه تعاليم الكتاب المقدس؟ إن النهى عن ذلك ورد بأسلوب مثير ، يقول عيسى عليه السلام : «إن كانت عينك اليمنى تعترك - تجرك إلى الإثم - فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله في جهنم ، وإن كانت يدك اليمنى تعترك فاقطعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم» .

هكذا ذكر متى! ونحن نوافقه في ضرورة غض البصر عن المحرمات ، ونشجب المدنية الأوروبية التي تدعى المسيحية ، ومع ذلك لا يروي التاريخ أن مدنية أخرى بلغت مداها في تزيين المناكر وتوسيعة دائرتها وإلاق الحكام والجماهير إليها ..

إيمان بالله الواحد - كما ترى - أساس تعاليم عيسى ، والمواظبة على العمل الصالح هي طوق النجاة ، ونحن ما نختلف عنكم فيما ناقضه ، فهو مرفوض . ألا ترى هذا قاسماً مشتركاً بيننا؟

قال الرجل : إننا موحدون ، ونتواصى بالصالحات ، التثليل لا ينافي التوحيد ، وافتداء عيسى لأصحاب الخطايا لا ينفي الدعوة العامة إلى العمل الصالح .. !

قلت : من النماذج الكثيرة التي سوف أسوقها لك ، ستري أن فكرتكم عن التوحيد تحتاج إلى مراجعة ، وحديث الكتاب المقدس عن الله يتناهى مع ما ينبغي له من حمد ومجيد ، وإذا كان الأنبياء نماذج حسنة للرجال الصالحين ، فحديث الكتاب عن أولئك الأنبياء تقشعر له الأبدان .

(1) الأنبياء : ٢٥ .

حوار

جاءنى شخص حسن السمت ، ظنته لأول وهلة طالب علم ، لكنه عرفنى بنفسه فأدركت أنه مسيحي ، يتبع الكنيسة الإنجيلية الإنجليزية ، قال لى : أريد مسائلتك فى بعض القضايا !

فقلت له : أنا أكره الجدل الدينى ، فإن أصحابه سرعان ما يتحولون إلى اللجاجة والغالبة ، وليس لدى وقت لهذه الأمور !!
قال : بل أنا ناشد حق أعرفه وأدعوه إليه .

فأجبته : ما يزعم أحد أنه على باطل ، كل امرئ مستريح إلى ما عنده ، ما يبغى به بديلاً .
ومن ثم فأنا أدع كل امرئ لقدره الغالب ، أو مواريشه التى انحدرت إليه ، حتى يستبين من تلقاء نفسه ما يغیره ويبدل أحواله .

قال : ما تعنى ؟

قلت : أحسب أننا ورثنا الأديان كما ورثنا اللغات ، دون إرادة منا ولا اختيار ، فلما كبرنا شرع كل واحد يفكر فيما عنده تفكيراً سطحياً أو عميقاً على قدر ما أوتي من عقل .
ويغلب أن يقتنع المرء بما جاءه ، وأن يتتساهم فيما ينذر عن عقله ، ويقبل على إغماض وتجوز ما قد يراه مأخذًا على دينه ، ثم يجرفه بحر الحياة ، وتشغله معركة الخبر ، فيبقى على وضعه .

وأنا ألتمس العذر لهؤلاء وأمثالهم ، وأعني قول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّاَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) .

قال الرجل : كأنك تشعر بالقلق من الحديث معى .

فرددت ساخراً : قلق على ما عندي أو على ما عندك ؟ اسمع يا صاح ، إننى رجل أؤمن بالعقل البشري الذى جعله الله مناط التكليف ، أحياناً أرتات فى وجوده أو فى يقظته عند أغلب الناس ، وذاك سر اليأس من مجادلتهم .

(١) العنكبوت : ٤٦ .

أنا ورثت الإسلام عن أبي ، بيد أنني عندما كبرت أخذت أفكراً في هذا الميراث ، وأغوص وراء أسرار الوجود الأعلى والوجود الأدنى ، وأراقب طنين الأفكار والمذاهب المتطاھنة من حولي ، وأوازن وأرجح ، وأستقبل الشبهات بترحاب وأناقشها بتؤدة ، وبعد سياحة طويلة أدركت أن الله حق ، وأنه واحد ، وأنه أرحم بعباده من أن يتركهم دون دليل ، في صحراء مليئة بالمتاهات ، فأرسل إليهم رسلاً معلمين ودعاة صادقين .

وعلى ضوء العقل المجرد نظرت إلى الأديان الشائعة بين البشر ، فما كان أكثر تنزيهاً لله ، وإشعاراً بعظمته ، وشرحاً لصفاته العلى ، وأسمائه الحسنى آثرته على غيره .

إنني أحيا في كون كبير ، في ملکوت لم يعرف الفلكيون أبعاده ، يتكون من ذرات يحار العقل في أعمائها ، ولا ريب أن رب هذا الملکوت أكبر منه وأعلم وأقدر .

وقد نظرت في كتب المحدثين عن الله ، فلم أجده كتاباً شرح أسرار العظمة الإلهية ، واحتدى نبرته وهو يرد ترهات الملاحدة ، ويصور معالم الكمال والجمال والجلال .. لم أجده أصدق من هذا القرآن الكريم فاتبعته .

إن العقل أيها الصديق هو الميزان المصدق والحاسب المضبوط وأنا أؤمن به .

وهو من وراء تمسكى بالإسلام وبقائي عليه ، أنا لست مقلداً أعمى لدين وجدت عليه آبائى ، اعتقادى أن الله سوف يحاسب الناس على حسب مواقفهم من عقولهم ، فمن بحث واجتهد ، وفكر وتعمق ، فهو واصل إلى الحق حتماً ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهَيْنَاهُمْ سُبُّلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩) .

ولكن هناك مرضياً عقلياً شائعاً بين الناس ، هو الكسل الفكرى ، المرء يحس الريبة في أمر ما ، ومع ذلك لا يتحقق منه ، ويبقى على ما هو عليه ، حسبة أنه يأكل ويشرب !! ومن حق رب الناس أن يغضب على امرئ لا يهتم بمعرفته ، وإنما همتة في تأمين حياته الأرضية وحسب .

فانظر يا صاحبى في نفسك قبل أن تتحدث معى ، هل أنت عبد التقاليد الموروثة؟ أم أنت رجل حر الفكر ، تحترم العقل الإنساني الذي هو أعظم هدايا الخالق للناس أجمعين؟ قال الرجل : أنا مثلك أؤمن بالله ، وبالسيد المسيح له المجد .

(١) العنكبوب : ٦٩ .

قلت : حسنا فانا أؤمن بال المسيح وبآبائه وأسلافه ، وبين جاء بعدهم ، أنا مسلم دائرة إيمانه تشمل موسى وعيسى ومحمد ، أنا أدرك أن الله – كما قلت لك – أرحم من أن يترك عباده حيارى ، فبعث إليهم ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ﴾^(١) .

القرآن الكريم أمرنا أن نؤمن بجميعهم على اختلاف عصورهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَبِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٢) .

إلى هذا الإسلام السمع الواسع نحن ننتهي ، وانه ليسانا أن يعرف البشر أجمعون هذه الحقيقة ، ويتأخروا في ظلالها الوارفة .

قال : معاذرة ، إن إيمانكم ينقصه عنصر أساسى مهم ، إنكم تؤمنون بال المسيح الإنسان ، ولا تؤمنون بال المسيح الإله ، وهذا يجعل إيمانكم لا وزن له .

قلت مبتسمًا : هل ألوهية المسيح تخصه وحده؟ ألا تثال معه إخوته لأمه؟

قال : ما تعنى؟

قلت : لقد ولدت مريم عيسى وهي خطيبة ليوسف النجار لم يتصل بها ، وبعد أن تم نفاسها تم زواجه بها ، وأنجب منها – كما يقول «متى» أربعة أبناء آخرين هم يعقوب ويوسى وسمعان ويهودا ، وهؤلاء هم إخوة الإله لأمه كما جاء في كتابكم . يبدو أنهم لا هم آلهة ولا هم أنبياء ..

فتملك الرجل ضيق كتمه بقوة . وقال : تلك إخوة الجسد ، ولا صلة لها بالرب يسوع له المجد .

قلت له : هنا نختلف ، ولا أكرهك على ما عندك ، ولا تُكرهني على ما عندك ، إن عيسى إنسان كريم ونبي عظيم ، وقد جاءت ولادته مخالفة لقوانين السببية ، فإن هذا القانون وإن حكم البشر لا يحكم واسعه الأعلى ، ومن قبل ولد آدم من غير أبوين ، وولدت حواء من غير أم ، فليولد عيسى من غير أب ، وقد عاصرت ولادة عيسى ولادة

(٢) النساء : ١٣٦ .

(١) النساء : ١٦٥ .

آخرى ألغى فيها قانون السببية ولادة يحيى من أم عقيم وأب شيخ بلغ من الكبر عتياً .
إن الخالق الأعلى إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون .

أما أن تحاول إقناعى بأن رب السماوات والأرضين ، ومسخر النجوم فى السماوات
شرق وتغرب فى فضاء فوق أوهاما ، هذا الإله احتبس تسعة شهور فى بطن امرأة
ولدته وولدت غيره فهذا ما نكره .

عيسى ، يا صديقى ، رجل رقيق نبيل ، ونحن نوقره ونقدره ، كما نقدر ونوقر إخوانه
من الأنبياء الآخرين .

ما أشد بلاء أهنتنا بهؤلاء الناس !!

قد يغضب المرء ويستد غضبه لأنه لا يعرف الحقيقة ، فإذا عرفها هداً ولأن كلامه !
إن الجهل يكمن وراء كثير من مساوى الأخلاق ، وعوج المسالك وانتقاد الآخرين !
وعلاج الخلل هنا سهل ، لأنه لا يتطلب إلا تعريف الجاهل وكشف النقاب أمامه
عما لا يراه .. المشكلة الحيرة أن يتمادي المرء في خطئه بعد أن استبان له الصواب !
كأنه لم يستفدى شيئاً من العلم الذي آتاه .. !

يظهر أن بعض الناس يعاني من داء دفين فيه ، لا يشفيه العلم مهما كثُر ، بل ربما
أضر به ، وزاده انطلاقاً إلى ما يهواه ، ولعل هذا يفسر ما نقرأه أحياناً من إسفاف لقوم
ينتمون إلى أوساط علمية كبيرة !

طالعت أخباراً مستغربة لأناس مرموقين ثبتت عليهم جرائم علمية لا تليق : منها
أن أحد هؤلاء وهو طبيب عربي «سطا كالقرصان على سبعة بحوث لغيره ونقلها كلمة
كلمة ثم نشرها باسمه في مجلات علمية مختلفة»! والدكتور حصل على الدكتوراه
من جامعة فرجينيا وقد تمكّن من نشر ٦٠ بحثاً في سنة ١٩٧٩ وحدها ، وعندما
اكتشف أمر بحوثه السبعة المزورة طرد من جامعة فرجينيا ، وطلب إليه الاستقالة من
برنامجه كان مشرفاً عليه في كلية الطب بجامعة بوسطن .

واعترفت أشهر كليتين للطب في أمريكا ، وهما (جون هوبكنز وهارفارد) بوقوع تزوير
لكثير من نتائج الدراسات الطبية التي قام بها أحد العلماء العاملين فيها !!!

تمكّن أحد الأساتذة المميزين من نشر ٤٠ بحثاً تحت اسمه مع أن جميع هذه
البحوث قام بها زملاؤه في العمل ، لدرجة أنه نشر في إحدى المرات مقالاً باسمه
وحده قبل أن ينشر مؤلفه الأصلي !!

من قديم قرر المحققون أنه لا تلازم بين المعرفة والفضيلة ، وإن كان العجب لا ينقضى
من تورط العارفين في خطايا لا تتوقع منهم !

عندما انتقل المسلمون من مكة إلى المدينة انتظروا من بنى إسرائيل شيئاً من
البشاشة والسماح ، فهم أهل كتاب ، وإذا ضنوا بمحبتهم فلن يضنوا بهادتهم ! ولكن
اليهود كانوا عند أسوأ الضئون ، وكان كيدهم للمسلمين أشد من كيد المشركين لهم ..

ونزل القرآن الكريم يصحح للمسلمين مشاعرهم الساذجة ﴿أَفَتُطْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ
وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾^(١).

عندما تتحرك النفس الإنسانية بالحقد وتدور على محور من هواها فلن يحجزها شيء .
كان إبليس يعرف الكثير ، ورأيه في نفسه أنه أحق بالاختيار أو الاستخلاف من آدم .
كان يرى معدنه أصلب ، وطاقته أوسع ، وأنه في أي نزال مع آدم وذريته سوف
ينتصر بكره ودهائه .

ولذلك قال الله : ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرِمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَا أَحْتَكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

وقد ضحك من آدم وأخرجه من الجنة ! ولا يزال يستغفل الكثير من أبنائه ويسد
عليهم طرق النجاة .

ونسى إبليس الحقيقة الأولى في علاقة الكائنات كلها برب العزة ! نسى أن الله
يقدم عبداً منكسرًا يرنو إليه بأمل ، على عبد شامخ ينظر إلى نفسه بإعجاب !
نسى أن عاصيًا يتوب أحب إلى الله من طائع متكبر .. !!

إن كلمات آدم وزوجته أمام الله : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَكُونَنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) أكسيتها الرضوان الأعلى .. أما كلمة إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ
مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٤) فقد هوت به إلى أسفل السافلين .

لا قيمة للعلم الواسع إذا لم تصحبه عبودية تامة لله .. أما عبادة الذات فقد تكون شر
أنواع الشرك ، ولذلك أجمع علماؤنا على أن معاصي القلوب شر من معاصي الجوارح .
على أن منطق إبليس من أوله إلى آخره مليء بالإفك والغباء ! إن معدنه ليس
أشرف من معدن آدم ، فأدام أوتي علماً عجزت عنه الملائكة وهو دون ذلك كثيراً ، وأدام
يبني وينشئ ، أما هو فيهدم ويدمر ، وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم !

(٢) الإسراء : ٦٢ .

(١) البقرة : ٧٥ .

(٤) الأعراف : ١٢ . ص : ٧٦ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

ربما مكث الفلاح عدة شهور في حقله حتى يجعله مهترئاً بسنابل القمح ، وقد يحيى فاتك يشعل النار في الثمار فيأتي في بعض دقائق على الأخضر واليابس ، فأى الرجلين أشرف؟

وشيء آخر لابد من تقريره ، من الذى ألهم الذكى ذكاءه ، والعبقري عبريته؟ إنه الله! فكيف يقف الآخذ المتلقى متهدياً للمعطى ولـى النعمة؟ ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٣) يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿ ١ ﴾ .

وقد هدى ابن عطاء الله السكندرى إلى هذا المعنى عندما قال : «من مدحك فإنما مدح مواهب الله عندك ، فالفضل من منحك لا من مدحك» .

إن ولداً لأدم عرف الحقيقة التي تاه عنها المتكبر الطائش ، وقد استكبر إبليس على أدم ثم اشتغل بعد قواداً البعض ذريته! فما أحقر المصير القريب والبعيد!

ومن عجب أن «عبادة الذات» انتقلت من الشيطان الأكبر إلى بعض الم الدينين الذين يدورون حول أنفسهم ، وبدلاً من أن يكروا الدين من إصلاح عيوبهم يفسدون هم العبادات بالرياء وإرضاء النفس !

وقد جاء في السنة أن هؤلاء أول من تسعر بهم النار يوم القيمة ، ونعود بالله من علم لا ينفع .

الدين تواضع لله ، ودماثة في الأخلاق ، واستغفار للفرد والجماعة وافتقار باطن وظاهر إلى رحمة الله ، وهؤلاء بقليل من العلم وكثير من الدعوى قطعوا تسعة عشرة المسافة إلى الجنة ، ثم نظروا للآخرين شرزاً .

إن وجدوا خيراً تجاوزوه ، وإن وجدوا شرّاً ضاعفوه ، أو هم كما قال الشاعر :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً

عنى وما سمعوا من صالح دفنوا

هل هم مستكرون بعلم؟ نظرت في علمهم فرأيت عقولهم صفراء من علوم الكون والحياة ، وصفراء كذلك من جملة العلوم الإنسانية ، أما علوم الدين فربما برعوا في زاوية

(١) آل عمران : ٧٣ - ٧٤ .

ضيقه من زوايا الفروع الفقهية التي لا ترجع كفة يوم الحساب .. وما وراء ذلك خواء تعصف فيه ريح الوحشة .

ما أشد بلاء أمتنا بهؤلاء الناس !

فى هذه الأيام يستغل الغزو الثقافى الأقمار الصناعية لتس mismim أفكارنا وتدويغ أمتنا ، ويجب أن تتضافر الجهود لتقوية الدفاع وإحباط الهجوم .

لقد تغير العدو ، وتغير الميدان ، وتغيرت الأساليب ، وأضحت خدمة القرآن والسنة بحاجة إلى فكر معاصر ونظر بعيد !

هيئات فلا وجود لمستحيل !!

قلت لصاحبى : لقد أریتك سطوراً مطولة من كتابك! لم أجيء بشيء من عندي ولعلك شعرت بذلك ما عندكم من بعد عن الصدق ، وجراة على الله ورسله ، وأظنك بعد ذلك سوف توافق على النتائج المختومة لهذا الاستعراض الواسع .

وقال وقد خامرته حيرة ودهشة : إن ما وصفت به كتابي يرتد إلى كتابك كذلك ويرفع الثقة به !! لأنك تقرأ فيه ثناء على التوراة والإنجيل ، فكيف يكونان كما ذكرت مع الثناء عليهم والدعوة إلى التزامهما ؟

قلت : يا صاحبى ، لا تخلط بين التوراة النازلة على موسى ، والإنجيل النازل على عيسى ، وبين ما لديكم من دخل ظاهر ، لا يمت بصلة إلى وحى في أكثر ما جاء به . نحن المسلمين نؤمن بموسى وتوراته ، وعيسى وإنجيله .

ولا يوجد مسلم يكفر بتوراة موسى أو بإنجيل عيسى ، لكن أين هما؟ هل التوراة المحدثة عن رب يجهل ويندم ويعبث فيها هدى ونور؟

هل الإنجليل الذي لا توجد منه نسخة منسوبة إلى عيسى نفسه يمكن الأخذ عنه؟ إن ما لديكم صحف مشحونة بحكايات كثيرة ، تنسب إلى الله ورسله ما لا يليق ، وما لا يقبله العقل المجرد ، نعم ربما لمعت وسط ترابها بقايا وحى ، أما الركام السائد فهو - كما سررت عليك - مبتوت الصلة بالسماء .

و قبل أن أتحدث عن أسانيد هذه المرويات ، أنظر إلى المتون نفسها بما أتاني الله من فكر ، فإذا كان المتن مستحيل التصديق فكيف أقبله؟

هب أن يعقوب روى عن أبيه إسحاق عن أبيه إبراهيم أن الجزء أكبر من الكل ، أو أن الله تناول الطعام مع إبراهيم ، أو صارع يعقوب في حلبة ظلت دائرة الرحى طوال الليل .. هل يطلب إلى عاقل أن أصدق هذه الترهات لأن الرواية ثقات؟!!

أى ثقة في هذه المنقولات المحالة؟ إن الكذبة لا يصعب عليهم اختلاق الأسانيد لما يقولون على الله بغير علم!

لكى تعرف الفروق فى الطرق التى وصلت بها الكتب السماوية يجب أن تدرس التاريخ ب بصيرة . إن القرآن النازل على محمد ﷺ كان صاحب الرسالة يستمع إليه من أمين الوحي ، ثم يستدعى الكتبة فيكتبون والحفظة فيحفظون ..

كانت له شرائط مسجلة فى الأدمعة ، وسطور حافظة فى الصحف ..

وفى كل يوم ، بل فى كل وقت من الصلوات الخمس صباحاً ومساءً كان القرآن يتلى ، وكان دوى الحفظة لا ينقطع ، وكانت الصحف تنشر فى كل مكان ، وكانت الجموع تجود القرآن تجويداً ، وكان قوامو الليل يملؤون محاربيهم به .. !!

وتحول القرآن من كتاب شعبي متداول ، إلى دستور للحكم تحكم به دولة حكمت جزيرة العرب أولاً ، ثم حكمت الشرق الوشى والغرب المسيحي فى القارات المعروفة .
صحف واحد لا اختلاف فيه ولا خلاف عليه ، على امتداد الزمان والمكان .

وما رزق كتاب من الكتب حفظة تتلوه عن ظهر قلب إلا هذا الكتاب ، من يوم بدأ نزوله حتى هذه الساعة .

فإذا نناول أحد نسخة من المصحف ليطالع ، وجد قرآناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ليست فيه لفظة تشين ذا الجلال والإكرام ، هدير لا ينقطع بعظمة الله ، وعلوه فوق خلقه أجمعين ، واحد تعنوه الوجوه ، وتسبح بحمده الأشياء ، وتتقرب إليه الملائكة ويقف المرسلون أمامه خاضعين خاشعين .

فى كتاب محمد ، لا ذكر لمحمد إلا أنه عيد من عباد الله ، إن زاد قدراً على أحد فبقدر ما يبطن فى ضميره ، ويبدو على سلوكه من خشية لله ، وتزلف إليه ورجاء فيه .
الرسل كلهم ، موسى أو عيسى أو محمد ، وكل من سبقهم عبيد ، لو شاء الجبار إبادتهم ما بقى منهم أحد ، إنما يستبقيهم ويكرمهم بمحض رحمته .

أين من هذا ما ترويه التوراة ، أن موسى زجر الله فازدجر ، وتراجع وندم . !! تعالى الله علوأً كبيراً ، وهاك النص : (فقال رب موسى : اذهب انزل ، لأنك قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر ، موسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صليب الرقبة ، فالآن اتركنى ليحمني غضبى عليهم وأفنيهم ، فأصيرك شعباً عظيماً ، فتضمرع موسى أمام رب إلهه ، وقال : لماذا يارب يحمني غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجتهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنientهم عن وجه الأرض . ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ، اذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل ، عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك ، وقلت لهم : أكثر نسلكم

كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد .
فندم الرب على الشر الذي قال أنه يفعل بشعبه ، فانصرف موسى ونزل من الجبل) .

إن أحداً في الأرض أو السماء لا يعامل الله بهذا الأسلوب النابي ، إن الله أجل شأنه
وأعلى قدرًا من أن يغضب ثم يندم ويتراءج لأنه إنسان ثاب إلى رشده بعد ما عزبه ..

وهذه المرويات كلها من صنع بشر يريدون إعزاز جنسهم بالأكاذيب ، والاستعلاء على
غيرهم بالباطل ، وبنو إسرائيل كبني إسماعيل كغيرهم من البشر ، لا يرتفع أحدهم إلا
بالتقوى والأدب ، إن التوراة النازلة على موسى اختفت مع تقلب الزمان بيني إسرائيل ،
والذي بقى منها هو هذا الميراث المشوب الذي طغى فيه كلام البشر على الوحي الحق ،
وكادت تخفي فيه ذرات السكر داخل مسحوق من الصخر والتراب .

أما الإنجيل فنسائل مخلصين : أين هو؟ إن الأنجليل الأربعة الموجودة هي قصص
كتبها تلامذة عيسى ، تضمنت ما يقال إنه كان يدعو إليه ويبشر به .

حسناً ، فلتتنازل عن المطالبة بالإنجيل نفسه! ولنحاول البحث عن بقايا الحق فيما
كتبه التلامذة المخلصون .

إن عيسى وصحابه هم من بنى إسرائيل ، كانوا يتكلمون العبرية بلهجة آرامية ،
والسؤال : أين ما كتبه هؤلاء الحواريون بلسانهم الأصلي؟ إن الأصل مفقود!!
فما أسماء الذين ترجموا عنهم ، ومدى الثقة فيهم؟

إنهم مجهولون!!

إن أي منصف يحس بأنه أمام مواريث معضلة ، التأمل في متونها يدعوه إلى الرفض .
فإلام نُدعى نحن المسلمين الذين نقبل تسلط الأضواء كلها على كتابنا سندا
ومتن؟ إلام نُدعى؟ إلى الأوهام!
هاتوا خيراً مما عندنا ونحن نتبعكم ، وهيهات ، فلا وجود لمستحيل !!

هل نستطيع أداء رسالتنا ونحن صرعي هذه الفضة؟

حاجة الحروب إلى المال مثل حاجتها إلى الرجال ، ومن خاصم في حق أو باطل فليتوقع سيلًا من النفقات يقوم به شاء أم أبى ، والمؤمنون والكافرون جمیعاً يتوقعون مع اشتعال الحروب سوء المنظر في الأهل والمال ..

وما الذي يبعث على الحروب؟ في منطق المظلوم رفض الضيم ، ومقاومة الظلم ، وفي منطق المحقين صون الحقيقة ودحر الفتنة ، وإلى جانب هذا وذاك يوجد من يشنون الحروب كما قال تعالى : ﴿ .. خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرَأً وَرَئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾^(١).

ويقول شوقي مناجيًا الرسول الأعظم :

الحرب في حق لديك شريعة

ومن السموم الناقعات دواء

ويوجد من ينساقون إلى القتال وهم في نشوة من القوة المواتية ، وأمل في الغنيمة المغربية ، حتى إذا خاضوها ، وبدأت المغارم تتتابع برد الحماس ، وانجلت الغشاوة ، وشعرت الخلوق بالمرارة .

ولذلك يقول الشاعر في وصف الفتنة الدامية ، ومواقف الناس قبلها وخلالها :

الحرب أول ماتكون فتنية

تسعى بزينة هائل كل جهول!

حتى إذا اشتغلت وشب ضرامةها

ولت عجز وزاغ يرذات حليل

شmateاء ينكر لونها وتغیرت

مكرهه للشم والتقوّيل ... !

(١) الأنفال : ٤٧.

ومع أن الحروب شؤم وعقباتها وخيمة ، فإن هناك من سعوا الحرب دون مبالاة ، وأثروا أن يهدمو القصور وينشئوا القبور ، ويروا أجيالاً تعلوها الكابة والأحزان .

وأعتقد أن أشرف الحروب ما قام بها الصحابة والتابعون عندما حرروا الشعوب والأقطار من قيود الفرس والرومان ، وإن أحسن الحروب أن يعتدى مسلم على مسلم حتى يضطره - في سبيل الدفاع عن نفسه - إلى الاستعانة بالأجانب ، والمضرر يركب الصعب ...

وظاهر أن الحرب قسمان : حرب في سبيل الله ، وحرب في سبيل الطاغوت ، الأولى تنشب لتكون كلمة الله هي العليا ، ولتصون حقوق عباده ضد المعتدين ، والأخرى تنشب لتكون العزة لفرد ما أو شعب ما يريد الاستكبار في الأرض ..

وقد خاض المسلمون الأولون حروباً شتى ضد الطغاة ، وتحملوا معارم ثقيلة لتوطيد الحرية والعدالة ، وإبعاد الفساد والاستبداد وقيل لهم : ﴿ انفِرُوا خَفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾^(١).

وهددوا بالضياع المنادي والأدبى إن هم تراخوا وبخلوا ... !! قيل لهم : إن تقاعستم ذهب الله بكم وجاء بآخرين أفضل منكم : ﴿ هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْ كُمْ مَنْ يَخْلُ وَمَنْ يَسْخَلُ فَإِنَّمَا يَسْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفَقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلُوا يَسْتَدِلُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾^(٢).

والواقع أن الحروب - كما قلنا - تتطلب البذل الواسع ، وقد كان ذلك معروفاً يوم كانت الحروب بدائية محدودة المسائر ، لم يقصر خائضوها في نفقة ، وعندما ضربت الحروب بين الإسلام والوثنية سخرت قريش قدرتها الاقتصادية في تمويل القتال ضد الرسول و أصحابه ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حِسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ .. ﴾^(٣). جاء ذلك في التعقيب على هزيمتهم ببدر الكبرى .

وواجه المسلمون في المدينة عدوا آخرهم اليهود ، وكانوا على جانب من الثراء والمنعة يغرى بالتطاول والعناد ، وقد نظرت في سورة آل عمران التي شرح نصفها الأول العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب ، فرأيت أن اليهود أغراهم غناهم بالتكذيب والكفران ، وظنوا

(١) الأنفال : ٣٦ .

(٢) محمد : ٣٨ .

(٣) التوبة : ٤١ .

أن كفتهم سترجع في أي قتال ، فنبههم الله سبحانه إلى أن هذا الغرور لا يجديهم شيئاً .. قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^(١) . وقال لرسوله ﷺ ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾^(٢) .

ومع أن الآيات في ظاهرها عامة إلا أن مناسبات النزول ودللات السياق يجعل اليهود أول من يوصفون بها وتنطبق عليهم .

ولذا كان الكفار يفرغون وسعهم في مقاتلة المؤمنين ، فهل يجوز أن يدخل المؤمنون بقليل أو كثير؟ إن القتال لاسيما في هذا العصر يتطلب أمداداً من الأموال لا يغيب لها نبع ، ولا يجوز فيها شح ..

وقد بذل السابقون ما يملكون حتى كسبوا معاركهم ، وهنا أجدرني مسئولاً عن تفهمهم العالم الإسلامي ما لديه من إمكانات يستطيع بها أن يكسب معاركه ..

إن عدد المسلمين أربى قليلاً من عدد الصينيين والصينيون يستوطنون شرق آسيا وحده ، وقد يتسللون إلى الجنوب ، وهم أفضل حالاً منا نحن الذين نسكن أكثر آسيا وإفريقيا وتزيد أرضنا أضعافاً على مساحة الصين !

في قرون طوال كان البحر الأبيض والأسود والأحمر بحيرات إسلامية ، وكان شرق المحيط الهندي بحراً للعرب ، كما كان غربه مجالاً للأساطيل الإسلامية بين الجزيرة وإندونيسيا والملايو ، ومن وراء ذلك الفلبين ..

إن العالم الإسلامي كان ولا يزال مالكاً لأحشاء العالم ، وبين أصابعه ثروات طائلة من كل أنواع المال ..

إننا قادرون لو شئنا أن نمسك بالزمام ونقود أنفسنا ، فمتى نشاء؟ وهل نستطيع أداء رسالتنا ونحن صرعي هذه الغفلة؟

(١) آل عمران : ١٠ .

(٢) آل عمران : ١٧٦ .

يطلبون ملحاً لامتحان..!

التفسير الموضعى لابد منه قبل الشروع فى التفسير الموضوعى ، فإنه فهم جيد للآية أو جملة الآيات التى تتناول قضية واحدة!!

ويتعاون التفسير البلاغى والفقهى وغيرهما على توضيح الرؤية وتحديد المعنى ، ويطلق التفسير الموضعى على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز : أولهما تتبع قضية ما فى القرآن كله ، وشرحها على ضوء الوحى النازل خلال ربع قرن تقريباً .. والآخر النظر المتغلغل فى السورة الواحدة لمعرفة المحور الذى تدور عليه ، والخطوط الخفية التى تجعل أولها تمهدأ لأنحراها ، وأخرها تصدقأ لأولها ، أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها ..

ولعل أفضل نموذج لهذا التفسير ما قدمه الشيخ محمد عبد الله دراز من تفسير لسورة البقرة فى كتابه النبأ العظيم ، فقد ضم معانى السورة فى باقة واحدة متكاملة تجعلك بنظرة ذكية تدرك أبعادها . وإذا تم ذلك فى أطول سور القرآن الكريم فكيف بغيرها؟

أما التفسير الموضعى الأول فإن الشيخ محمود شلتوت عرض نماذج له فى كتابات شتى ، والرجل له بصيرة حادة فى التفسير تدل على رسوخ قدمه . وأرى أن التفسير الموضوعى بشقيه جدير بعناية الأمة ، فإن المستقبل له ، ولعله فى عصرنا أقدر على خدمة الإسلام وإبراز أهدافه .

وقد عن لى أن أتبع معنى واحداً فى كتاب الله وأرصد موقعه فى شتى سور القرآن فعدت بحصيلة حسنة .

نحن نشعر بأن الخاطئين يحسون الندم يوم القيمة على ما اقترفوا من آثام ، ويضمون إلى هذا الندم أمنية يستحيل تحقيقها ، هى أن يعودوا مرة أخرى إلى الحياة الأولى كى يحسنوا بدل ما أساءوا .

أى أنهم يطلبون ملحاً لامتحان الذى سقطوا فيه ، وهيهات !

كم مرة تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم؟ فلننظر فى المصحف الشريف حسب ترتيب سور .

- ١ - في سورة البقرة يغتاظ الأتباع من تذكر السادة لهم يوم الحساب فيقولون : ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كِرَةً فَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنْا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾^(١).
- ٢ - في سورة الأنعام يتمنى المشركون لو عادوا ليصدقوا بما كانوا به في الدنيا مكذبين ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقْفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرُدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).
- ٣ - في سورة الأعراف يبين الله أن القرآن الكريم حوى من النذر ما يبعث على الارعواء ، ويسوق إلى الهدى ، ولكن الناس صدوا عنه ، وعندما يصدّهم الوعيد الذي استخفوا به يطلبون النجاة ﴿.. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتِ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُونَا لَنَا أَوْ نُرُدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ..﴾^(٣).
- ٤ - ويتبّع ما يطلبون في سورة إبراهيم عندما يصبح الظلمة : ﴿.. رَبِّنَا أَخْرَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمَتُمْ مِنْ قَبْلٍ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾^(٤).
- ٥ - ويجيء هذا المعنى في خلاصة وجيزة في صدر سورة الحجر ﴿رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيَلْهِمُ الْأَمْلُ ..﴾^(٥).
أما سورة المؤمنون وفيها تفصيل يظهر في موضعين :
- ٦ - ضراعة الكافر أن يرجع إلى الحياة ليصلاح ما أفسد ﴿رَبَّ ارجُعُونِ (٩٩) لَعَلَّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرَزَ إِلَى يَوْمٍ يُعْتَوْنَ﴾^(٦).
- ٧ - والموضع الآخر في دعاء أهل النار عندما يحيط بهم العذاب ويصرخون من شدة الألم ﴿.. رَبِّنَا غَلَبْتُ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبِّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِّمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾^(٧).

(١) البقرة : ١٦٧ . (٢) الأنعام : ٥٣ . (٣) إبراهيم : ٤٤ .

(٤) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٦ - ١٠٨ . (٥) الحجر : ٣ ، ٢ .

(٦) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٦ - ١٠٨ . (٧) الحجر : ٣ ، ٢ .

٨ - أما في سورة الفرقان فإن الذكرى تبدو في مسالك متناشرة تخامر الكافر عن الأيام التي خلت فهو يقول أسفًا : ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مُعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يا ويلتني ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني .. (١) لقد فات الأواني ولا ت ساعة مندم .

٩ - وفي سورة الشعراء ينظر المشركون إلى الهتهم وسادتهم في جهنم يتعدبون معهم ، لقد استوى ﴿.. الْمُجْرِمُونَ﴾ (٩٩) فما لنا من شافعين (١٠) ولا صديق حميم (١١) فلو أنَّا كَرَّهَ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) . وهيات لا عودة لاستئناف حياة أرشد ..

١٠ - وفي سورة السجدة يصرح المجرمون بأمنيتهم ويسألون الله أن يمنحهم فرصة أخرى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذ الْمُجْرِمُونَ نَاسِكُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رِبِّهِمْ رَبِّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجَعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (٣) ونلحظ أن السكوت هو الجواب في هذه السورة ، كأنهم أحقر من أن ينتظروا ردًا ، وهذا أيام أوجع .

١١ - أما في فاطر فقد سمعوا إجابة توجب الخسارة ، وتضاعف العذاب ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعْمَرْ كُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٤) .

١٢ - ونلحظ في سورة الزمر أن الله يحذر عباده من التعرض لهذه المواقف اليائسة ، وكذلك يدعون إلى التسوية قبل أن يصحوا هناك على غد قاتم ، يستحيل معه استدراك ما فات ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ مِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٥٦) أو تقول لو أن الله هداني لكونت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرامة فاكون من المحسنين (٥) .

لماذا شغلت نفسي بهذا الإحصاء؟ لأن المسلمين وقر في نفسهم نوع من الجبرية التي أفقدتهم الرشد ، فحسبوا أنهم مسيرون لا مخiron .

(٣) السجدة : ١٢ .

(٤) الشعراء : ٩٩ - ١٠٢ .

(١) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

(٥) الزمر : ٥٦ - ٥٨ .

(٤) فاطر : ٣٧ .

منساقون لا قادرون أحرار ..

هل يجرؤ أحدهم يوم القيمة على اللجوء إلى هذا الكذب؟

إن أمتنا استنامت في هذه الحياة لأفكار جعلتها تحيا في غيبوبة مهلكة ، ولن تصح لها دنيا ولا دين إلا إذا عقلت كتابها وصحت موقفها منه .

ومن الممكن استخراج قضایا كلية وجزئية من القرآن الكريم على النحو السهل الذي سقناه هنا .

ولن يعطيك القرآن بعضه إلا إذا أعطيته كلّك .

فيما موت زر.. إن الحياة دمية

«لوط» هو ابن أخي إبراهيم الخليل ، كان مثل عمه داعياً إلى الله في بيوت سائبة ، تفرد فيها بعمق اليقين ، وطهارة الذل ، وشرف السيرة!

وكانت المدينة التي يجاهد فيها سافلة الطباع ، شاع فيها الشذوذ ، واستعلن في الأندية ، وكأنما أصبح تقليداً ينساق إليه الغريب والقريب!!

وقال لوط لقومه : ﴿ . إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ (١٦٨) رَبِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ ، فنجاه الله من القرية الظالمة . وأمر بإهلاك أهلها وجعل عاليها سافلها .. والسياق التوراتي يشبه السياق القرآني في أغلب الحوادث ، إلا في خبر من أفحش الأخبار ، انفردت به التوراة فزعمت أن لوطاً سكر وانتشى فأنجب من كل بنت من ابنته ولدًا كان رأساً لقبيلة كبيرة !!

وتزعم التوراة أن ذلك تم ولوط تحت وطأة الخمر لا يدرى ما يصنع . والسبب فيما تواطأت عليه البتان أنهما تريدان نسلاً من أبيهما تحيا به الذرية ، ولا يوجد رجال ! كيف لا يوجد رجال على ظهر الأرض؟ هل إذا دمرت القرية الفاجرة خلت الدنيا من القرى الأخرى الطاهرة؟ أما كان المفروض في أسرة لوط أن ترحل إلى مكان آخر تجد فيه بغيتها؟

إن «التوراة» أثرت أن تختتم جهاد لوط بهذا الختام الأسود القبيح والقصة كما روتها «صعد لوط من صوغر ، وسكن في الجبل ، وابنته معه ، لأنه خاف أن يسكن في موغر ، فسكن في المغارة هو وابنته ، وقالت البكر للصغرى : أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقى أبانا خمراً ونضطجع معه ، فتحسني من أبينا نسلاً» .

وكاتب هذه القصة يريد الإساءة إلى قبيلتين كبيرتين ، يكرههما بنو إسرائيل ويبحثون عن عيوب تلتصق بهما تنكس رؤوسهما فافتروا هذا الشباب الشنيع على لوط وابنته ، كما فعلوا من قبل مع أعدائهم الكنعانيين ..

على أساس أن أولاد الزنا ملعونون لا تكون لهم سيادة ولا يولون سلطة!

(١) الشعرا : ١٦٩ ، ١٦٨ .

ومع معرفتنا بأن هذا الزعم فاسد وأن ولد الزنا لا يؤخذ بجرم أبيه ، فنحن نكذب الخبر كله من ألفه إلى يائه . فما سكر لوط ولا زنى ولا الحق عاراً بابتئيه ، والويل يوم اللقاء لمسطر هذه الأكاذيب ..

ويدركنا العجب عندما يتتحول الكذب إلى خلية تجر على صاحبها نفسه المرة ، فإن بنى إسرائيل عندما يكتبون تاريخ أبيهم يعقوب ، لا ينسون أنه من الشطار الذين يختطفون ما تهفو نفوسهم إليه ، ولذلك فقد اختطف النبوة من أخيه الأكبر ، ودخل التاريخ من باب الزور .. !!

إن صور التزوير والادعاء تلقانا كثيراً في هذه الحياة . ومن أمد قريب قرأت أن طيبينا مزيقاً بلغت الجراءة به أن شارك لفيما من الأطباء في إجراء جراحة لأحد المرضى .

وبعض كتبة المحامين يرون أنفسهم أقدر من المحامين على الدفاع والاستدلال .

وقد رأيت من واته الظروف فسرق مناصب كبيرة وجلس في سدتها بادي القدرة والأبهة .

إنسى أنهم أن تسرق بضاعة من دكان ، أو سيارة من حارة ، أو فكرة من مؤلف ، أو كتاب من واسعه !! ولكنني لا أفهم أبداً أن تسرق النبوة ، وأن يرشح السارق بعد الاستحواذ عليها لتلقى الوحي وقيادة الناس باسم الله !!

ولكن العهد القديم حكى لنا هذه الواقعه! وقرر أن يعقوب خدع أباه إسحاق ، واستلب النبوة التي هي حق أخيه الأكبر عيسو!!

كان إسحاق قد عمى! وفي اليوم الذي قرر منح بركات النبوة لصاحبها عيسو ، جاء يعقوب على عجل وقلد صوت أخيه ولبس جلد معز - لأن عيسو كان أشغر - واقترب من أخيه الأعمى ، وهو يتظاهر بأنه عيسو نفسه!

وانخدع إسحاق ، وسرق يعقوب النبوة ، وعرف عيسو ، بعد فوات الأوان ، أن أخيه استولى على حقه ، ولكن الرواية كانت انتهت والجريمة وقعت ، وأضحى يعقوبنبياً عن طريق الاحتيال ، ثم نال لقب إسرائيل ، ثم قامت باسمه دولة تؤكد أن الباطل قوة إذا استuan بالمال والدهاء ، وأن الحق ضعف إذا لزم السذاجة والاسترسال .

كيف تسرق النبوة؟ إن اللص يخدع الناس ، فكيف يتصور لص أنه يخدع الله؟ وهل العبد يعرض نفسه على ربها بهذا الأسلوب ، وهل ينتظر رضاه وهو يخدعه بهذه الطفولة؟

إن تصوير العبودية والربوبية على هذا النحو نوع من الخلل الديني ، برع فيه اليهود ، وصدقه من ظر الدين غيبات مبهمة لاصلة لها بعقل ولا عدل ..

إن كتاب العهد القديم مثال صادق لفكرة اليهود عن الأخلاق والقيم ، الناس يتهمون السياسي الإيطالي «ميكيافيللي» بأنه صاحب مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» وهذا خطأ ، فالرجل ينقل كلمته عن أسلوب العهد القديم ، في تنفيذ الأغراض بأى خطة ، وأقصر طريق .. أما الشرف فشيء في الكتب لا في الواقع .

مع هذا السياق الخسيس تقرأ ما افتراه اليهود على داود ، أنه اغتصب امرأة أعجبه جمالها وبعد ما أتم جريمته احتال على قتل زوجها - وكان في ميدان الحرب - حتى تخلص له !! وزين له هذا كله أنه إسرائيلي ، وأن الأسرة التي مزق أحشاءها من الحيثيين ، فلا حقوق لها ..

إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا شَاؤُوا فَلَا يَجُوزُ لِجَنْسٍ أَخْرَى أَنْ يَعْتَرِضَ مُشَيْئَتَهُمْ ﴿١٠﴾ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمَمِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذْبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ .

إن أحقر حشاش لا يقترب الجريمة التي نسبها اليهود إلى داود صاحب المزامير التي يعبدون الله بعثائهما وتلتحينها! ونحن المسلمين لا نصدق حرفاً من هذا الإفك ، وننصحون سيرة الأنبياء عن هذا الدنس كله ، ولكننا نلتف النظر إلى طبيعة المنهج الأخلاقي عند القوم ومن يؤيد them ، ويشد أزرهم ويحمي ظهرهم ويدعم سياستهم .

وفي العهد القديم تفصيل ما أوجزنا ، وما نسبة الرواية إلى المرسلين من إفك خسيس .

إِنَّهُمْ جَمِيعًا كَذَّابُونَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَا أَحَبُّ عَيْسَىٰ عَنْدَمَا يُنَزَّلُ إِلَّا مُقَاتِلُ هُؤُلَاءِ
جَمِيعًا حَتَّىٰ يَظْهُرَ الْأَرْضُ مِنْ شَرِكِهِمْ وَإِفْكِهِمْ .

إنهم يتظاهرون ضد الإسلام يحاولون إزالته! ولو زال الإسلام وخلت الحياة منه ،
فماذا يبقى مما يشرف الدين وتزكيه الدنيا؟

ماذا يبقى بعد زوال العقل والعدل؟

يبقى منهج إسرائيل في الاختطاف؟ ومنهاج داود في الإسفاف؟ كما يتوارث الأفاكون!!

في مأمور زر، إن الخدمة دمية

ویانفس جنبدی ان دهرک هازل!!

• ۷۵ آن عجم آل (۱)

الخلوقات.. ليست سيارات انقطعت صلتها بمصنوعها

مصنع السيارات في أوروبا يخرج السيارة قوية الآلات أنيقة المظهر ، ثم تنقطع صلتها بها بعد بيعها ، فليس يدرى من راكبها ولا كم ميلاً قطعت؟ ولا أين تنطلق أو تتوقف؟ لقد صنعوا وغابت عنه وغاب عنها .

هل العالم كله – وهو صنع الله الذى أتقن كل شيء – يسير على هذا الغرار؟ اكتسب وجوده من خالقه ثم سار وحده مستقلًا بنفسه؟ كلا كلا!!

إن الإشراف الأعلى يكتف حركاته وسكناته من جميع جهاته ، وقد اتفق المؤمنون على أن الكون يستمد بقاءه ونظامه لحظة فلحظة من رب العالمين .

فالقمر يدور حول الأرض ليست له عيون يبصر بها المسار ، ولا به خزانات وقود يقطع بها الطريق ، وإنما يشرق ويغرب بهداية خالقه .

والأرض ، التى نحيا فوقها ، مهاد جديرة بالدراسة بدءاً من قشرتها اليابسة إلى مركزها الحافل بالمواد المشهورة والسوائل الحارقة ، إن العلم الإلهي يخترق أعماقها ، ويضبط كل ذرة فيها ، لو شاء زلزلها فهلكنا أو ثبّتها فبقينا .

وفي القشرة الأرضية ألف من أنواع النباتات بين أزهار وحشائش وحبوب ، كل نبتة فيها تحت سمع الخالق وبصره ، منذ وضعت البذرة إلى أن تم الحصاد ، وكذلك سائر الأحياء .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتِ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْنَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَئِنْ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾^(١) .

إن بيوتنا تضاء من تيار كهرباء يجيء من خارجها ، وقد قرر العلماء أن وجود العالم ليس من ذاته ، وإنما هو مفاض عليه من البديع الأعلى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرُوْلَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^(٢) .

(٢) فاطر : ٤١ .

(١) فصلت : ٢٧ .

أعرف أنه ليس في هذا الكلام جديد وما أحسب مسلماً يماري فيه! ولكن بعض الناس تسأله : كيف يدير الله العالم؟ كيف يدبر أمره؟ كيف يضحك ويبكي ويحيى؟ كيف تتلألق صفاتك بال مجرات الكبيرة في الوقت نفسه الذي تتعلق فيه بالذرات التي لا تكاد تبين؟ إنه من الممكن أن أحيا دون الاستغلال بهذه الأسئلة! فأنا أحيا دون أن أعرف سر الروح السارية في أوصالى ، وأحياناً دون أن أعرف سر الضوء الذي يغمر الآفاق . هذه الأسئلة يدفع إليها الفضول والتطاول .. والذين اشتغلوا بها وبنوا عليها نتائج مهمة انتهوا إلى متناقضات ، فمنهم من دان بوحدة الوجود وظن علاقة الله بالكون كعلاقة الروح بالجسد وهذا جنون وقع فيه بعض المتصوفة . ومنهم من ألقى قانون السببية وظن أن الإيمان لا يصلح أو لا يتم إلا إذا قلت في كل شيء : الفاعل هو الله!

فإن أفهمته أن هناك شبكة من الأسباب ينتظم بها الوجود قد تكون غطاء للقدرة العليا ولكن القادر الأعلى قد ناط بها الحياة والموت والحركة والسكنون .. ظن بك الظنو.

إن القرآن الكريم تحدث عن الأسباب التي تكمن وراء ما نرى وما لا نرى من الموجودات . يقول تعالى ﴿وَأَنْزَلَنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتِ الْفَافَا﴾^(١).

ويقول ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيِّمُونَ﴾^(٢). وقد تقرر في تجاربنا أن الماء يروي ، وأن النار تحرق وأن السكين يقطع ، وأنه أشאב الصغير وأفني الكبير كر الغدة ومر العشي !

وقد نسب القرآن الكريم للأعمال الإلهية إلى الأشياء التي لا تعنى ﴿كُلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَّهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ..﴾^(٣) وقال العلماء : إن هذا على سبيل المجاز والفاعل الحقيقي هو الله سبحانه ، والأسباب كثيرة ومعقدة ومتراكبة ، ونحن ننسب النتائج إليها من باب الإلتفاف والحس .. فلابد في الذرية من زواج ولكن ما يصنع الزوجان؟ إنهما عند التأمل لا يختلفان شيئاً! وهل التراب والماء حول بذرة القمح يصنعان السكر والنشا والعناصر الأخرى في حبة القمح؟

إنه في ذراع من الأرض تنبت شجيرات متباينة للورد والنعناع والقرنفل والجرجير! ما الذي هدى التراب إلى التفاعل مع كل شجيرة حتى تنضج وفق خصائصها وطعمها وروائحها؟

^(٢) (الكهف : ٣٢).

^(٢) (النحل : ١١).

^(١) (النبا : ١٤، ١٦).

الواقع أن غشاء الأسباب قد يرق جداً أمام بعض العيون فلا ترى إلا الصفات الإلهية وقد يغلوظ أمام عيون أخرى فلا ترى إلا الأسباب الحسية .

وبعد أن تؤمن بآن الله خالق كل شيء . . عبر عمّا ترى بما تري فلا حرج . وقد تمهلت كثيراً في تصديق ناظم العقائد عندنا :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة
فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة
فذاك بداعى فلا تلتفت
وربما قال بعضهم إن الجاذبية الأرضية بطبيعتها تضم الأشخاص والأشياء إلى ها
الكوكب! وتسترد ما يحاول الإفلات منه وتسقطه!

لأحرج عليك أن تقول هذا مادمت مؤمناً بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَافًا
 أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾^(١) (٢٥) هذا الكفت هو الجذب والضم من صنع الله وحده وقانون
 الجاذبية تصوير له ، فإذا نسبت إليه ما يقع فلا حرج . والتعبير مجازى ، وقانون
 الأجسام الطافية ثابت إنه معرفة لبعض خصائص الماء فى حمل الأوزان والأحجام
 وهو من دلائل القدرة العليا ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجُوَارُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ تستطيع أن تنسip
 سبع السفن إلى السبب أو إلى خالق السبب متنقلًا بين الحقيقة والمجاز والمهم اليقين
 بعمل الله ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَىٰ ﴾^(٢) (٢) وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَىٰ ﴾^(٢) .

قال لي أحد التلامذة: لا مجاز في القرآن . وقلت له : أين الأغلال في أعناق الكافرين الذين قال القرآن عنهم : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾؟ وأين السدود التي تحيط بهم من خلف وأمام في قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾^(٢)؟
يابنى إن المجاز موجود في الكتاب والسنة وأداب العرب بل موجود في ألسنة الناس كلهم من عجم وعرب .

الغريب أن الطالب شرع يقاوم بما لا يفهم فانصرفت عنه . حتى لا يتهمنى بالكفر وما أيسر ذلك على بعض الناس !

۹۰:

الأخلاقي: ٣٠٢ (٢)

المرسلات: ٢٥ (١)

لذات متشابكة لا انفصال بينها

ما طبيعة الجزاء الآخرى! هل هو روحى أم مادى؟ وهل خلق الإنسان من روح وجسد شئ يعب؟

كذلك يرى بعض الناس! بل كذلك قال أعداء الأنبياء لهم وهم يرفضون رسالاتهم وينكرون حديثهم عن الله ، مفترحين أن يكون الرسول ملكاً ﴿وَقَالُوا مَا لِهٗ الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾^(١) !! وكما استنكروا أن يكون المرسلون بشرًا يأكلون ، استنكروا عليهم الزواج ، والنسل ظانين أن الرغبة الجنسية تشين الإنسان الكبير ، وعليه ، إذا أراد الكمال ، أن يكتبها . وقد رد القرآن هذه المزاعم ، وبين جل شأنه أن المصطفين الآخيار من عباده كانوا رجالاً ناضجي الغرائز ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾^(٢) . ومع

ذلك فإن بقايا من منطق الجاهلية القديمة لاتزال عالقة بأذهان الكثيرين من يحسبون السمو البشري لا يتم إلا بإعلان حرب مجحونة على البدن توهى قواه وتذوّخ غرائزه .

بل سرى ذلك الفكر إلى بعض المذاهب الدينية ، وانبني عليه أن التقوى في هذه الحياة تعنى الرهبانية ، وأن السمو في الحياة الأخرى لا يتصور مع وجود هذا الجسد اللعين! وعليه بعد ذلك ؛ فلابد أن يكون النعيم الموعود روحانياً محضاً ، وكذلك العذاب المرصد للأشقياء!!

ولما كان الإسلام دين الفطرة السليمة ، ولما كان لبابه احترام الحقيقة المجردة ، فإنه رفض كل هاتيك المقدمة والنتائج وأسس تكاليفه وأجزيته الدينية على اعتبار الإنسان كائناً متميزاً يجمع بين جملة من الموارب والخصال المتلازمة في شخصيته ، بها جميعاً يسمو أو يهبط وبها جميعاً يثاب أو يعاقب .

أو كما يقول الأستاذ العقاد : «ليس ما يدين به المسلم أن يرتد النوع الإنساني إلى ما دون طبيعته ، ولكن ما يمكن به ارتفاع الإنسان وهبوطه منوط بالتكليف ، وقوامه الحرية والتوبة فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف

. (٢) الرعد : ٣٨ .

. (١) الفرقان : ٧ .

قابل للهبوط إلى أسفل السافلين ، وهذه الأمانة هي التي رفعته مقاماً فوق الملائكة أو هبطت به إلى زمرة الشياطين» .

ليس الهبوط أن يشتهى الإنسان طعاماً أو امرأة إنما الهبوط أن يأكل المرء من سحت أو يتصل بمن لا تحل له .

إذا طعم من حلال أو اتصل بآنسى لتكون زوجة يسكن إليها ويتم بها ويمتد وجوده معها فلا شيء في ذلك أبداً .

لقد أخطأ كثير من المنتسبين إلى الدين في احتقارهم للبدن ، وفهمهم أن التسامي لا يحصل إلا بسحقه ، وفهمهم بعد ذلك أن الحياة الأخرى لا وجود للبدن فيها وأن النعيم أو الجحيم معنويان وحسب !!

وقد سرى هذا الخطأ - كلاً أو جزءاً - إلى بعض متصوفة المسلمين فاعتنقوه وحسبوه دلالة ارتقاء وتجدد فظلموا بهذا المسلك دينهم ، وأوقعوا خللاً سيئاً في موازين الجزاء كما أقامها الكتاب العزيز .

وقلدوا أتباع الديانات المنحرفة في الجور على الطبيعة البشرية ، وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة .

بل بلغت المجازفة بهذا البعض أن حقروا عبادة الرغبة والرهبة وأشاعوا أن من الهبوط أن تعطى الله طلباً لجنته ، أو تدع عصيائه خوفاً من ناره حتى توهم الناس أن الأمل في الجنة والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين !!

وهذا الضرب من التفكير لا يمكن وصفه بأنه تفكير إسلامي . إنه ضرب من الشرود والغرور تبدو تفاهته عندما يحاكم إلى العقل والنقل على سواء .

ولنبدأ بالنقل .. يصف لنا القرآن الكريم مشاهد الجزاء . فيذكر لنا أن رجلاً مؤمناً بحث عن صاحب له كان ظاهر الإلحاد والفسق ، فوجده قد استقر في سوء الجحيم ! فحمد الله أن لم يتتأثر به : ﴿ قَالَ تَالِلَّهِ إِنْ كَدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيْتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِنْ هَذَا فَلِيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (١) .

(١) الصافات : ٥٦ - ٦١ .

النجاة من النار أمل ضخم لمثله يعمل العاملون ، فكيف يجىء أحد من الناس ،
رجالاً أو امرأة ليقول ، بل هو أمل تافه؟

ويقول الله جل جلاله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارَ لَفِي عَلَيْنَا (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشَهِدُهُ الْمُقْرَبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكَ يَنْظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامَهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلِيَتَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) .﴾

فالرحيق المختوم يسقاهم قوم تعرف في وجوههم نصرة النعيم ، وفي هذا الجزء الجزيل ينبغي أن يتنافس المنافسون! فكيف يجىء إنسان رجالاً كان أو امرأة ليقول : لا أعبد الله طلباً للشيء من ذلك!! إن هؤلاء الناس يكذبون على طبائعهم الإنسانية كما يكذبون على دين الله ، ثم هم يسيئون تصور النعيم الأعلى أو العقاب السرمدي .
إن الجنة دار لنوعين من المتع أحدهما مادي والأخر معنوی ، فالمادي تكرييم الإنسان يفيض من التجلی الإلهي يشعره بالرضوان ويرفعه بالرؤیة .

وبديهي أن المتع الشانى أكبر من الأول ، كما قال جل شأنه : ﴿ .. وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٢٧) .﴾

ولكن هل هناك فواصل - في هذا الكيان البشري - بين الإحساسين أم أن الإنسان بأجهزته المادية والمعنوية يذوق الخير والشر جميعاً؟

إن اللذة والألم قوانين إنسانية صارمة ، فلم الطعن فيها؟ ولو فرضنا أن الجنة محل الكرامة الإلهية ، لكفاحاً ذلك ، ولا حترمناها من أجل هذه النسبة! ولا يأبه الكرامة إلا لشيم ، فكيف - وهي إلى جانب ما وصفناه - تلبية حاجة طبيعية يحسها كل إنسان ، حاجة ذلك البدن الذي يضرره الحرمان ، ويضنه القل والذل ، حاجة ذلك البدن الذي يكره الجوع والعطش والعرى والهوان .

أمن أجل فكرة خيالية نجحى إلى مئات الآيات الصريحة الواضحة فنحاول صرفها عن ظاهرها والتمحلى في تأويلها وإفساد الآثار التربوية المقترنة بها .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢٨) .﴾

(٢) التوبة : ٧٢ .

(١) المطففين : ١٨ - ٢٦ .

ماذا يبقى من آيات القرآن منجاة من التأويل والإبطال إذا تمت هذه المحاولة؟ إن الله وجه إلى نبيه هذا الأمر ووصف أنبياءه الكرام بأنهم ﴿.. كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَائِشِينَ﴾^(١) وضع أمام أبصار البشر كلهم هذا الترهيب ﴿.. فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

فهل بعد ذلك نسمع لقول امرئ يزري بعبادة الرغبة والرعب ، ويزعم أنه لا يخاف من النار ولا يحب الجنة ، وأنه – إن عبد – فإنما يعبد ابتلاء وجه الله !! ما هذا اللغو؟ وهل الوجوه الناصرة بنظرها إلى الله تظفر بذلك في قعر جهنم ، أم تظفر بذلك في حدائق الجنة؟

قال لي أحد المتصوفين : إن من الخسارة أن تعبد الله متضرراً أجرًا . فقلت : من العبودية أن تستبشر بفضل الله وأن توجل من عقوبته ، وأن تعرف قدرك وتلزم حدك ! أين تريد أن تضع نفسك؟

إن الله قال عن نبيه إبراهيم : ﴿.. وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾.

فهل أنت فوق الأنبياء استغناء عن الأجر الإلهي؟

وقال عن عباده المؤمنين الموففين : ﴿تَحِيَّتْهُمْ يَوْمٌ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعْدَدْ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ . ووصف عاقبة الصادقين المضحيين بأنفسهم في سبيل ربهم فقال : ﴿.. وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فهل أنت في مكانة أخرى غير ما أعد الله للشهداء والصالحين مكانة الزاهد في أجر أو الرافض له؟ ما هذا الغرور؟

لقد وصف الله أولى الألباب بأنهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢).

فهل يرفض أن يكون من أولى الألباب إلا البليه؟

(١) الأنبياء : ٩٠ .

(٢)آل عمران : ١٩١ .

ولقد أهاب الله بخلقه أن يسارعوا إلى جنة ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَتْ لِلْمُتَقِينَ﴾ فهل يكره أن ينتظم في عداد المتقين إلا الحمقى؟

إنني أطلب من إخواننا الذين يكتبون في التصوف أن يدمنو النظر في كتاب الله ، وأن يستوحوا ما يستجيدون من معانٍ وغایيات ، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم . أما ترويج فكرة لرجل أو امرأة يبتعد عن هذا الضوء الكريم ، فأمر لا يستساغ ، ومن حقنا أن نرفضه .

لقد سمعت أشعاراً تنسب إلى رابعة العدوية بل حكى الرواة عنها - والوعيدة عليهم - أنها لما سمعت التذكرة بفواكه الجنة وخيراتها ، قالت : لسنا أطفالاً ، فنفرى بهذه الأشياء . وسواء صحي ما نسب إلى هذه السيدة أو بطل ، فنحن كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في فاطمة بنت قيس - وهي صحابية أفضل من رابعة - «لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت» .

إن الجنة وعد الله لعباده فنعمما هي ، وشكراً من أعدها للمتقين ، وهنيئاً من يصير إليها ، يمر في بحبوتها ، ويسعد بربه الذي طالما صلى وصام من أجله !!
إنه في هذه الجنة يشهد من كان يعبد بالغيب ، ويتلقي فضله في قلبه وعلى بدنه لذات مادية ومعنوية متشابكة لا انفصام بينها ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾^(١) ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا﴾^(٢) .

ونحن نلفت نظر المفسرين ألا يخدعوا بما شاع في الديانات الأولى من أوهام ، بما نسب إليها من أفهام ، فإننا ورثنا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ..

(٢) الإنسان : ٢٢ .

(١) الإنسان : ٢٠ .

قصة عشق مع ابنة غولدا مائير

تكشفت لى أبعاد المؤامرة كلها عندما قرأت أن «ميشيل عفلق» متزوج من ابنة «غولدا مائير» رئيسة حكومة إسرائيل السابقة .

إن هذا اللقاء ليس بين رجل نصراني وامرأة يهودية ، إنه لقاء بين الصهيونية والصلبية على تمويت دين وإضاعة أمة . !!

و كنت قد امتحنت كتاب «ميشيل» هذا ، حتى عرفت بعد بحث أن أباها كان يونانيًا يهوديًّا ، وكان نجارًا في بلده ، ثم ارتأى أن يعلن إيمانه بال المسيح ، وترددت الكنيسة أولاً في قبوله ، ثم قبلته على إغماض ، ثم هاجروا إلى سوريا و كان الأسرة مسيحية أصيلة !

ولكن «غولدا مائير» كانت تعرف بوطن الأمور ، فارتضت «ميشيل» زوجًا لابنتها ، ثم اختفت وراءه وهو يقود العروبة بفلسفته الجديدة ، فلسفته التي تنشد قول الشاعر :

لا تسل عن ملتي أو مذهبى
أنا بعشت اشتراكى عربى !

وزوجة قائد العروبة الجديدة ، العروبة المنسخة عن الإسلام والتراحم ، الجانحة إلى الإلحاد والعلمانية ، كانت تعرف الغاية التي تسير إليها ، أو تسير إليها زوجها ، ومن تبعه من جماهير المخدوعين ، ففي أسفار العهد القديم سفر يحمل اسم «استير» وهي امرأة ظهرت أيام الأسر البابلي ، واستغلت جمالها في تحرير قومها من بنى إسرائيل ، فاشتغلت خليلة للملك الذي منحها حبه كله ، وفي في إرضائها ، فلما استوثقت منه حرضته على قتل وزيره المخاصم لليهود فقتله ، وتبع ذلك إطلاق سراح الأسرى ، ووضع معدبيهم في السجون! إن «استير» الوفية لجنسها قدرت على تغيير أوضاع هائلة و حولت التاريخ الإسرائيلي إلى انتعاش وازدهار! ترى هل زوجة ميشيل عفلق «استير» أخرى لبناء إسرائيل الكبرى؟ إن أمها كانت من أعمدة الدولة في مراحلها الأولى ، فلتكن هي أساساً لبناء إسرائيل الكبرى عن طريق الزوج الذي استطاع أن يملك العرب وأن ينشر بينهم مذهبه الباطل حتى تألفت به حكومات! إن كل ما تطلبه إسرائيل لقهر العرب ، وإزالة ملوكهم ، واستئصال جذورهم هو فصل العروبة عن الإسلام ، واعتبارها

قومية عامة . وعندما يترك العرب دينهم ، فلن تبقى لهم دنيا ، وسوف يندحرون في أية معركة ، ويعودون بالخزي من كل ميدان .. وقد تولى «ميشيل عفلق» وزوجته «استير» الجديدة هذه المهمة ، استغفلاً شعوبًا بأسرها ، واستسلامًا حكومات يملكون السيف والنار ، ويستطيعون إذاقة خصومهم النكال .. فلما دارت المخرب بين عرب عراة من الإيمان ويهود يقدسون التوراة ، كانت الهزيمة التي تكررت مثنى وثلاث!

إن ميشيل عفلق وحده حملة صليبية ناجحة ، وهو مع زوجته الماهرة الماكرة قد قادا العرب إلى ميادين الخزي والندم! وما كلفهما هذا؟ قال أنصارهما : إنهم أسلموا ، وسموا ابن الأول محمدًا ، والآخر عليًا!!

وما علمت في التاريخ الطويل للبشرية أمة تستغفل على هذا النحو الأحمق إلا الأمة العربية التي بنت في هذه الأيام السود ضريحًا في بغداد لدجال العروبة الأكبر ميشيل عفلق ، لعله يزار وتقرأ له الفواتح .

واليوم تنقسم الأمة الإسلامية في القاراتين إلى مواليين لميشيل عفلق ، وإلى جهله بميشيل عفلق ، ويا فرحة إسرائيل بقادتها من رجال ونساء ، إن الحرب المشتعلة اليوم ما تدور رحاها إلا لمصلحتها .

متى تؤدى المرأة حق زوجها؟

نفقة رب البيت على بيته زكاة مضاعفة الأجر مباركة المثوبة!! لقد شعرت بغير قليل من الدهشة وأنا أتدبر الأسلوب الذى قرر الإسلام به هذه الحقيقة!

عندما يكون معى مال فأجعله للجهاد فى سبيل الله ، أو أجعله فى تحرير الرقاب ، أو أجعله فى إغاثة مسكين ، أو أسد به حاجات بيتي فأى هذه الأبواب خير؟ أيها أفضل من الآخر؟ لذكر الأحاديث النبوية الواردة فى القضية .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدق به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك» .

وعن ثوبان مولى رسول الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله! ودينار ينفقه على فرسه - المربوط - فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله» قال الراوى : بدأ بالعيال .

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «إنك لن تنفق نفقة تتبعى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ماتجعلى فى فم امرأتك!» .

وعن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة» .

وعن المقداد بن معدىكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أطعمنت نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمنت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمنت زوجتك فهو لك صدقة! وما أطعمنت خادمك فهو لك صدقة» والأحاديث كثيرة نكتفى منها بما ذكرنا .

ماذا يعني هذا كله؟ كنت أرى أن ما يصرف فى البيت مال مستهلك ، وأن نفقات الأسرة على الإجمال من الضرورات التى تخرج منها وكل مانرجوه ألا يكون لنا ولا علينا!

أما أن تكون حسنات توضع فى الميزان ، ويزيد بها الثواب ، بل قد تسبق فى مضمار الخير ما ينفق فى ميدان الجهاد وتحرير الرقاب ، فذاك ما يدعونا إلى التأمل .

قلت : لعل ذلك لأن البيت المسلم هو الذي يبني العقائد وينشئ الفضائل داخل حجره الواسعة أو الضيقة؟ إن النبع الذي يسيل بالحياة للبنين والبنات وللأم والأب نبع مبارك بلا ريب ، إن الإنفاق في هذا البيت أبرك مشروع استثماري .

من قديم توارث المسلمين هذه الحقائق الاجتماعية فأمسى شرف الرجل أن يكسب وأن يعود على أهله حتى يكبر الصغير ويستغنى الكبير ، وكان يرى ذلك عبادة لا يستكثر فيها وقت ولا جهد ، إنها دين ودنيا معًا ..

ولنتجاوز الآن تقاليد المدنية الحديثة التي ألفت أن يقول الأب لابنه أو ابنته عند البلوغ هيا التمسوا الرزق في خبايا الأرض! بل لعل الرجل يستكثر إطعام زوجته! إن تماسك الأسرة وفق تقاليد الوفاء والشرف والبر جعلها مجتمعاً يشد بعضه بعضاً ، ويد الله مع الكل !

كذلك كانت أمتنا وكذلك يجب أن تبقى .

ومن حق راعي الأسرة وكاسيها أن يجد من زوجته تقديرًا لكتبه ، وأن يستجم بعد تعب ، وأن يكون لسان الحال والمقال شرحاً لصدره ، وتطبيباً لنفسه .

أما الكنود والتتجاهل فهما طريق الوحشة والقطيعة وفي الحديث :

«لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لاتشكر لزوجها ، وهي لاستغنى عنه» .

وجاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقال لها : أذات زوج أنت؟ قالت : نعم! قال : فأين أنت منه؟ قالت : ما آلوه إلا ماعجزت عنه!!

- تعنى أنها تبذل طاقتها في مرضاته ، أما ماغلب طاقتها فلا قبل لها به - فأجابها الرسول الكريم بهذه العبارة الموجزة الجامحة : «فكيف أنت له فإنه جنتك ، أو نارك!» وقد شرح ذلك حديث آخر : «المرأة لا تؤدي حق الله حتى تؤدي حق زوجها» .

وقرأت حديثاً طريفاً لمعاذ بن جبل فيه وصف لبعض النساء «الفتوات» التي تحل مشكلاتها أحياناً بيدها(!) وتريد أن تبسيط إرادتها في البيت غير مكترة بشيء ، وقد استمعت إلى نصيحة النبي الكريم لهذه المرأة ، وأنا أغالب الابتسام!

وهاك الحديث : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن - لأحد - في بيته زوجها وهو كاره! ولا تخرج وهو كاره! ولا تطيع فيه أحداً ، ولا تعزل فراشه ، ولا تضريه!» قلت في نفسي كيف تضريه؟ هل استنون الجمل إلى هذا الحد؟ أم أن المرأة من هواة الملائكة والمصارعة اليابانية؟

وعدت إلى الحديث الشريف أكمل قراءته بعد نهى الزوجة عن هذا النطاول والجحود قال : «إِنَّ كَانَ هُوَ - يَعْنِي الزَّوْجُ - أَظْلَمُ فَلَتَأْتِهِ حَتَّى تَرْضِيهِ! إِنَّ قَبْلَ مِنْهَا فِيهَا وَنَعْمَتْ، وَقَبْلَ اللَّهِ عَذْرَهَا وَأَفْلَجَ حَجْتَهَا - أَظْهَرَهَا - وَلَا إِثْمٌ عَلَيْهَا، وَإِنَّهُ لَمْ يَرْضِ فَقَدْ أَبْلَغَتْ عَنْدَ اللَّهِ عَذْرَهَا!»

ويستحيل ألا تمر بالبيوت .. أزمات ، بيد أن الخلق العالى كفيل بتفسير الضوابئ وحل المشكلات ، وما أصدق قول الشاعر :

لِعَمْرِكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادَ بَاهْلَهَا

وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضَيِّقُ

أقول : وأخلاق النساء أيضًا!! وقد رأيت أن فساد ذات البين في الحياة الزوجية يمتد إلى الأولاد . ويعرضهم لأسوأ الخلال وأوخر العواقب .

مائجمل أن يكون الحب المتبادل والاحترام المتبادل قوام العلاقة بين الزوجين أو الأبوين ! إن أثر ذلك في الذريعة عميق ، وهو سياج متين لرسالة البيت في الداخل والخارج .

وهناك حديث نبوي يذكره البعض في هذا الصدد يحتاج إلى شرح : قدم معاذ بن جبل من الشام ، وذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام يزوره بعد مقدمه ففوجئ الرسول الكريم بمعاذ يسجد له !! فقال له : ما هذا ؟ فقال معاذ قدمت إلى الشام فوجدت الناس يسجدون لبطاركتهم وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك !

والواقع أن التحية التي رأيتها أنا كانت انحناء يشبه الركوع ، ولا يزال هذا الانحناء الراهن تحية لإمبراطور اليابان ، وكان كذلك تحية لإمبراطور الحبشة ، وربما تحول في بعض الأحيان إلى سجدة تام !

والعرب لا تعرف هذا في تقدير الكبار وتقديم التحية لهم ، فلما نقل معاذ هذا التقليد إلى المدينة المنورة رفضه الرسول كل الرفض ، وقال – كما جاء في بعض الروايات : «لاتفعل فلو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» وتتمة المعنى ولكن لا أمر أحداً أن يسجد لآخر ، ولا للمرأة أن تسجد لزوجها والمراد كما جاء في تتمة الحديث «.. والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربه حتى تؤدى حق زوجها». .

إن الزوج والزوجة إنسانان متكافئان في الحقوق والواجبات ومع صدق العاطفة يكون الرجل ملكاً مطاعاً نافذ الكلمة ، ووسيلته في ذلك الوفاء والإخلاص والحب .

أنا حار العاطفة.. لا حاد الطياع

أجرى الحوار د. عبدالحليم عويس

حوار ومراجعة مع الشيخ محمد الغزالى

يواجه الشيخ محمد الغزالى محنـة الأمة الإسلامية منذ أكثر من نصف قرن بعقل مجتهد وبوعى بتحديات العصر ، وبرؤية ثاقبة لأسرار تأخر المسلمين .

إنه يعي التعقيـدات الفكرية والتكنولوجـية والعقـدية التـى تـشكـلـ التـيـاراتـ الـخـضـارـيـةـ المـعاـصـرـةـ .. وـيـعـتـصـرـهـ الـأـلـمـ ،ـ وـكـثـيرـاـ ماـيـسـتـغـرـقـهـ الـبـكـاءـ الـعـمـيقـ الـذـىـ يـسـيـطـرـ عـلـيـهـ وـعـلـىـ الـجـالـسـينـ مـعـهـ حـيـنـ يـتـذـكـرـ مـأسـاةـ الـمـسـلـمـينـ .. هـؤـلـاءـ الـذـينـ وـكـانـهـمـ لـاـيـدـرـكـونـ حـقـائـقـ مـاـيـدـبـرـ لـهـمـ ،ـ وـلـاـ يـعـونـ مـهـمـةـ رـسـالـتـهـمـ وـذـاهـمـ إـلـاـسـلـامـيـةـ ،ـ وـيـبـدـوـنـ جـلـ طـافـاتـهـمـ فـيـ مـعـارـكـ جـانـبـيـةـ فـرـعـيـةـ بـيـنـماـ يـبـذـلـوـنـ أـقـلـ الجـهـدـ فـيـ مـعـارـكـ الـمـصـبـرـ الـكـبـرـىـ ..

وفـيـ عـصـرـنـاـ هـذـاـ سـادـتـ بـيـنـ بـعـضـنـاـ لـلـأـسـفـ الشـدـيدـ .. مـظـاهـرـ مـخـتـلـفـةـ مـنـهـاـ التـركـيزـ عـلـىـ نقاطـ الـخـلـافـ ،ـ وـإـهـمـالـ مـسـاحـةـ الـاـتـفـاقـ الـوـاسـعـ وـمـنـهـاـ الـوقـوفـ عـنـدـ هـذـهـ النـقـاطـ وـعـدـمـ تـجاـوزـهـاـ ،ـ مـنـ أـجـلـ الصـبـغـةـ إـلـاـسـلـامـيـةـ الـغـالـبـةـ ،ـ وـمـنـهـاـ الرـفـضـ بـالـجـمـلـةـ لـمـجـدـ وـجـودـ اـخـتـلـافـ فـيـ الـآـراءـ ،ـ وـمـنـهـاـ الـاـرـتـفـاعـ بـالـخـلـافـاتـ فـرـعـيـةـ إـلـىـ مـسـتـوـيـ الـخـلـافـاتـ الـأـصـوـلـيـةـ ،ـ وـمـنـهـاـ تـحـوـيلـ الـخطـأـ الـاجـتـهـادـىـ إـلـىـ (ـخـطـيـةـ مـقـصـودـةـ)ـ ،ـ (ـجـرـيمـةـ مـبـيـتـةـ)ـ تـقـضـىـ الـحـكـمـ عـلـىـ الـقـلـوبـ ،ـ وـالـمـلاـحـقـةـ الـمـسـتـمـرـةـ بـالـغـيـةـ وـالـنـمـيـةـ !!

وـمـنـدـ أـكـثـرـ مـنـ رـبـعـ قـرـنـ .. أـعـتـرـفـ وـأـنـاـ بـكـامـلـ قـوـاـيـ الـعـقـلـيـةـ .. تـرـبـطـنـيـ بـأـسـتـاذـنـاـ الـكـبـيرـ الشـيـخـ مـحـمـدـ الغـزالـىـ عـلـاـقـةـ حـمـيـمةـ ،ـ وـقـدـ كـانـ لـهـ فـضـلـ .. بـعـدـ اللـهـ .. عـلـىـ وـعـلـىـ جـيـلـىـ فـيـ تـحـصـيـنـنـاـ ضـدـ الزـحـفـ الـأـحـمـرـ (ـشـيـوـعـيـ)ـ وـالـزـحـفـ الـأـحـقـرـ (ـعـلـمـانـيـ)ـ فـيـ سـنـوـاتـ كـانـتـ صـلـاـةـ الـجـمـاعـةـ فـيـهـاـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ الـجـامـعـيـةـ فـيـ إـحـدـىـ الدـوـلـ تـعـتـبـرـ كـافـيـةـ لـلـلـاتـهـامـ بـعـضـ التـهـمـ الـمـؤـدـيـةـ .. أـحـيـاـنـاـ .. إـلـىـ السـجـونـ الـاشـتـراكـيـةـ الـثـورـيـةـ .. !!

وـأـعـتـرـفـ .. كـذـلـكـ .. أـنـىـ أـخـتـلـفـ مـعـ أـسـتـاذـيـ الشـيـخـ الغـزالـىـ فـيـ بـعـضـ الـقـضـاـيـاـ .. بلـ قـدـ عـالـجـتـ هـذـهـ الـقـضـاـيـاـ فـيـ بـعـضـ بـحـثـيـ وـفـيـ بـعـضـ الـمـؤـتـرـاتـ وـفـقـ مـاـ أـؤـمـنـ بـهـ .. بلـ إـنـ صـدـيقـنـاـ الـمـشـتـرـكـ الـدـاعـيـةـ الـدـكـتـورـ يـوـسـفـ الـقـرـضاـوـيـ خـالـفـ الشـيـخـ الغـزالـىـ وـرـدـ عـلـيـهـ فـيـ بـعـضـ كـتـبـهـ ،ـ وـمـنـهـاـ كـتـابـهـ :ـ (ـكـيـفـ نـتـعـاـمـلـ مـعـ السـنـةـ)ـ .. لـكـنـنـاـ جـمـيعـاـ نـعـيـشـ فـيـ دـائـرـةـ الـحـبـ ،ـ وـنـتـفـيـأـ ظـلـالـ أـسـتـاذـيـ الشـيـخـ الغـزالـىـ ..

هذا هو الشيخ محمد الغزالى وذاك منهجه .. فلا يهم أن ينتهى بك اجتهادك إلى الاتفاق معه أو الاختلاف ، بل المهم أن يكون الحق رائدك ، وأن تؤثر الأخوة الإسلامية وحقوقها - وهى من الأصول - وأن تعرف أدب الحوار ، وأن تحسن الظن بأخيك وتدعوه !!

وفي هذا الحديث لا أكتب حديثاً صحفياً ، وإنما أحاور الشيخ الغزالى محاورة التلميذ للأستاذ لكي نصل إلى أرضية جديدة نرأب بها الصدع ، ونفضى وإخواننا على أرضية الحب المشتركة ، ويكتفينا من الهم مايدور فى البوسنة والهرسك ، وما يدبره لنا (النظام الدولى الجديد) .. لكي نصلح مع الله ، ونترجمه إليه بقلب سليم ، ونترافق حتى نتأهل رحمة الله ، ونتفاعل - من ثم - مع سنن الله الكونية والاجتماعية المؤدية إلى الإقلاع الحضارى ، والذى يحدد الله فى كتابه الكريم خطوطه الأولى فى الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾⁽¹⁾.

فى سؤالنا الأول قلنا لأستاذنا الشيخ الغزالى :

* يلاحظ أن فى بعض كتاباتك - ولاسيما الأخيرة - شيئاً من الحدة التى لم تعرف فى تاريخك الطويل من قبل ، فكيف تفسرون هذا وأنتم الآن فى سن النضج الكامل؟

أجاب الداعية الكبير :

- ربما كنت حاراً العاطفة لا حادّ الطباع ، فأنا أكره النّفّسَ البارد في معاملة الأشخاص والأفكار ، وأحسب أن الإيمان النظري لا يملك القدرة على التحرك في هذه الحياة إلا إذا كان له قائد من عاطفة حارة تملّك الحركة الدائمة واليقظة الصارمة .. وبين الحدة والحرارة فروق ، فقد تكون الحدة قريبة من القسوة وأنا أزعم أنّي رقيق ، وقد تكون قريبة من الإصرار ، وأنا لا طاقة لي على البقاء في خطأ إذا استبان لي الخطأ .

وربما كانت الحدة المزعومة هي ما يتملكنى من أسى للهزائم التي أصبت بها الثقافة الإسلامية والسياسة الإسلامية على السواء .

ومع أن جميع مقومات النصر بين أيدينا فما الذي أوقع بنا هذه الهزائم ..؟

هذا هو الذي يجعلنى أحياناً أتكلّم بشيء من الغيظ وأنا أرمي دعاء مفلسين لا يحسنون عرض الإسلام - وقد قلت فيهم ذات يوم : إن الإسلام قضية عادلة وقعت في أيدي محامين فاشلين .

(1) الرعد : ١١

والمشكلة في نظرى أن الميدان لا يزال يضطرم بآثار المعركة ، وأن الإسلام يواجه قوى خبيثة ولا أقول ذكية ، وهو في هذه المواجهة يتطلب الحماة الأيقاظ الأذكياء فلا يوجد .. وقد كنت في كندا مبعوثاً من رابطة العالم الإسلامي .. فوجدت معركة بين نفر من المسلمين بعضهم يريد قراءة سورة الكهف يوم الجمعة والآخرون يرفضون ، فقلت لهم : نقلتم أسباب هزيمتكم من الشرق إلى الغرب ، هل هذه قضية يقوم فيها نزاع(!!) وقد أوصيت في القاهرة بفتح مسجد الحصري للممثلات التائبات فجاء من يطلب منهن النقاب بدلاً من الحجاب ويقسوا عليهن أشد القسوة عندما أعرضن عنه (ناسياً أنهن كن ممثلات) ، فهل بهذا السلوك تخدم الدعوة؟ وهل هذا هو فقه الداعية بأسلوب الدعوة؟

ـ إنني أحب الحلم والأناة لأنهما خصلتان يحبهما الله ورسوله ، وأدرب نفسي على هاتيك الخصال ، لكنني أعرف بأنني أفقد زمامي أحياناً عندما أجد الرويبة يتكلم في الشؤون العامة ، ويعطى توجيهات لاثمرة لها إلا ضرب الإسلام في صميمه ، وإدخاله في معارك إذا انهزم فيها كان الخزي ، وإذا انتصر فيها كان التعب والإجهاد .

وشيء آخر أذكره ولا أدرى إذا كان يصلح عندرأً أو لا ، لكنه أمر واقع .. إن الكلمة التي أكتبها هي التي تذهب دون مراجعة إلى المطبعة ، وقد يقع أحياناً وأنا أدفع القلم للكتابة به أن أنسى تعقيباً أو استدراكاً أو أن أصوغ الجملة صياغة كان من الممكن أن تصب في قالب آخر أهداً وأرفق ، ولكن عدم المراجعة هو السبب في أن الكلمات تكون أحياناً نارية وكان من الممكن أن تكون أقل حدة ..

صيحة تحذير

من الشائع الآن أن يبنك وبينك بعض علماء السلف منذ سنوات شيئاً من الخلاف ، وقد ظهر هذا في بعض الكتب والمقالات . مما موقفكم الشخصى من هذا الخلاف؟

أجاب فضيلة الشيخ الغزالى :

الحقيقة أن هناك ظروفاً دفعت إلى شيء من الخلاف ، كان في أصله خلافاً فرعياً عابراً - ولازال - لكنني كنت أتمنى أن يكون الحب وحسن الظن والرفق نسيج العلاقة بيننا ، وأنا لا أنسى لعلماء السلف دورهم ، ولا أنسى لعلماء المملكة العربية السعودية - وخاصة - ماقاموا به من نصرة العقيدة الصحيحة ، (وكيف تصح أي عبادة من

قول أو فعل بدونها) ومن مقاومة للخرافات والبدع التي انتشرت في عهود التخلف في الأعصار الأخيرة كما لا أنسى غيرتهم على الإسلام ، ولئن فيهم أصدقاء وإنحصار كثيرون .. وأنا رجل أميل إلى تجاوز مراحل الخلاف بسرعة متأسياً بالسلف .. ولهذا أدعوا الله في هذا المقام - أن نتجاوز جميعاً المراحل الخلافية دون أن يكون ذلك على حساب دين الله .. وأقول في هذه المناسبة أيضاً : إنني أول من يخضع للحق الذي يأتيني مكلاً بأدب الإسلام وأخلاق الإسلام ، لا الذي يتوه ذهبه وسط أكواخ من التراب .

وأضيف أيضاً : إن التحديات الكبيرة يجب أن تجتمعنا ، فنحن أمام موجة صليبية جديدة كلُّوح تلبس ثوب العلمانية ، وقد تصدى لها من قبل في عدد من الكتب ، وفي الهجمة الأخيرة تصدى لها في كتابي «صيحة تحذير من دعاة التنصير»* .

وأنا أدعو إخوانى العلماء والدعاة جميعاً - وفي المملكة العربية السعودية - وخاصة - إلى تطهير قلوبنا والتفرغ للعمل الراشد والتعاون الكريم ، أمام القوى المتكتلة ضدنا والمترقبة بديننا وحضارتنا وجودنا كله .

وقد كان شعراً دائمًا : لنترك أى إذا كان يوهن الأخوة الإسلامية أو يضعف وشائج القربى بين المسلمين أو يفرق كلمتهم وصفوفهم ، فالمقاديد العليا أقوى وأولى من أى رأى فردى .. !

وأحب أن أؤكد هنا مرة ثانية أنني في خندق إخوانى العلماء ، وأننى ما قصدت ببعض تعبيراتى جمهرة العلماء ، وإنما قصدت أحاداً من المسؤولين على العلم من ضيقى الصدور والأفق الذين تعتبر نسبتهم إلى العلم موضع شك ، وهم - غالباً - حديثو السن يحتاجون إلى مزيد من الفقه والوعى . وبالطبع لست مسؤولاً عن ذلك الظن الواهي الذى ظنه بعض العلمانيين وأشباههم ، حيث تأولوا كلامى تأويلاً يتفق مع أهوائهم ، فتحولوا الرخصة المحدودة المضبوطة بضوابط شرعية إلى قاعدة متابحة الأفق تخدم أهواءهم ، التى لا ضوابط لها . وهؤلاء - إذا كانوا موضوعيين - عليهم أن يأخذوا بكل ما كتبته . وبالضوابط التى أضعها ، ولكنهم أصحاب أهواء .

* قلنا لأستاذنا الكبير : هناك كتابات منهجية هادئة يجمع المسلمين على الرضا عنها وعلى أنكم من خير من يكتب فيها مثل : (التفسير الموضوعى للقرآن) و(فقه السيرة) و (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) و(صيحة تحذير من دعاة التنصير) ، بينما

* من مطبوعات : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

تكتبون أحياناً بأسلوب مقاتل ، فكيف تجمعون بين طريقتين مختلفتين في التأليف؟

قال الشيخ الغزالى : الكتابة الإسلامية عندي غير مزدوجة المجرى ، فنحن نكتب أحياناً عن حقيقة الدعوة أو لب الثقافة الإسلامية .. وأحياناً تكون الكتابة عن جهاد الدعوة وسياسة إصلاح جوانب الحياة ومواجهة تحدياتها ، أعنى أنى كتبت (نظرات في القرآن) وفي الوقت نفسه كتبت (معركة المصحف) ..

وأنا كذلك أتبع منهاج القرآن الكريم عندما يتحدث عن أمجاد الألوهية في سورة الأنعام بأسلوب هادئ ، وعندما يفضح أعداء الدعوة في (براءة) مثلاً ، فليست الكتابة الإسلامية لوناً واحداً عند الذين يشعرون بشيء من القلق عندما يكتبون في سياسة الدعوة .

والحق أن الكتابة في سياسة الدعوة ثقيلة العبء مرة المذاق لأنها اشتباك مباشر من الأعداء المعوقين ومن ينظرون إلى الإسلام نظرة خامدة الأنفاس .

وقد يرضى الكثيرون عن البحث العلمي في حقيقة الرسالة الإسلامية وعن عناصر الدعوة ، إنهم يشعرون بالقلق عندما نشتبك مع خصوم الإسلام والكارهين للحق في هذه الحياة ..

وسيظل جهودنا موزعاً بين الناحيتين .. عرض الدعوة في مثل : (خلق المسلم) و(عقيدة المسلم) و(ليس من الإسلام) و(كيف نفهم الإسلام) وسياسة الدعوة في مثل (كفاح دين) و(التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) و«الاستعمار أحقاد وأطماء» و«معركة المصحف» و«صيحة تحذير» .

* هل يمكن أن نتوقف قليلاً عند «التفسير الموضوعي» للقرآن على أنه نموذج من كتابة النوع الأول ، وأنه مشروعكم الذي مازال مستمراً وينتظره محبوكم وقرأوكم ويسألون الله أن يطيل عمركم لتنموه؟

قال أستاذنا الشيخ الغزالى :

إننى أعتقد أن عصرنا الحاضر هو عصر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، وليس عصر التفسير الموضوعي ، وإن كان الأخير لا بد منه على أن يكون خادماً ومهداً للأول ، فالعقل الإنساني ارتقى كثيراً في هذه الأيام ، وتفاصيل القرآن يجب أن تطرد في عروضها مع مقتضيات العصر الحاضر ، ولا يكفينى أن أشرح القرآن جملة جملة ولا كلمة كلمة ، إننى أريد أن أقول للقارئ خذ عرضاً عاماً لسورة (آل عمران) مثلاً ، وسوف تراها تدور على محورين : فنصفها الأول حوار مع أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، ونصفها الثاني تعليق

على هزيمة معركة أحد ، وفي أواخر السورة حث للمسلم على الصبر على لأواء الجهد المزدوج .. الفكر وال الحرب .. لأهل الكتاب والوثنيين .

وعندما أعطى هذا الخط العام للسورة فإننى أعود مرة أخرى فأبرز الخطوط الخفيفة التى تشد أجزاء السورة كما تشد الأعضاء أجزاء الجسم ، فيظهر للقارئ أن الآيات ليست مرکومة في الأوراق كيما اتفق ، وإنما هي مرتبة ترتيباً دقيقاً ، تكتمل فيها أجزاء صورة واضحة المعالم رائعة الملامح .. فهذه النظرة الجيدة في التفسير لم أسبق إليها ، وإنما وجدتها في نظرات شيوخ لى عكفوا على تلاوة القرآن والدعوة إليه ، أولهم الشهيد حسن البنا - رحمة الله عليه - الذى كان يلقى نظرات في القرآن في المركز العام للشبان المسلمين في القاهرة .

ومن الصدق أن أقول إن (رشيد رضا) من وراء هذا التفسير ، وإن كان يمزج بين الموضوعى والموضوعى بلباقة ، ومن أحسن من كتبوا في التفسير الموضوعى الشيخ عبد الله دراز فقد كتب كتابه (النبأ العظيم) فجعل سورة البقرة كلها على طولها باقة منسقة الورود والفروع ، وجمع أول السورة وأخرها في نسق لم يسبق إليه .

وأنا أرجو أن أبدأ وقد بدأت فعلاً الخطوط الأولى في هذا التفسير ووصلت إلى سورة التوبة !!

* وفي هذا الإطار التأصيلي - يا أستاذنا : نلاحظ أيضاً أن قضية تأصيل المعرفة إسلامياً تحتل من اهتمامكم جانباً كبيراً ، مما مدى أهمية هذه القضية للمسلمين في رؤيتكم؟ استطرد أستاذنا الكبير قائلاً :

في أول كتاب ألفته في حياتي شبّهت الوحي الإلهي بماء النيل في مجراه الأعلى ينزل من السماء صافياً نقياً ، ثم يختلط بالأرض فيحمل من ترابها وغثائها وأخلاطها ما يجعل الانتفاع به صعباً حتى يُنقى الماء فيعود سماوياً كما كان .. قلت : ما أشبه الدين بماء النيل ، وما أحوجه إلى التنقية من أهواء الناس وشهوات الأغنياء والأقواء والضعاف .. إن الذي يؤسفني أن الإسلام هو أليق الأديان بالعصر الحاضر ، وأقدر الأديان على اقتياض الإنسانية في هذه المرحلة اليقظة من تاريخها .. وفي تعاليمه إشباع حقيقي للعقل والضمير وإمتاع للتفكير والعاطفة ، لكن المأساة أن الذين يعملون به يصدون عنه لأنهم يسيئون فهمه ويفرضون عليه صوراً لا مصدر لها إلا طباعهم المريضة ، وهم بذلك يجعلوننا ندعو مع الداعين : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ .. وهؤلاء الداعون كانوا يطلبون من الله ألا تقع بهم هزيمة تجعل أعداءهم

يقولون : لو كانوا على حق ما هزموا فتكون هزيمتهم سبباً في انصراف الناس عن الحق . ولا ينكر أحد من المتشلين بالدعوة الإسلامية أن حالة الأمة الإسلامية يستحيل أن تكون نصيراً لدينها .

ومن هنا كان حرصى شديداً على تأصيل المعرفة الإسلامية ، ووددت من أعماق قلبي لو عرض علم الكلام عرضاً جديداً تصور به عقائيدنا من القرآن الكريم والسيرة العطرة تصويراً يجذب أهل الشرق والغرب إليه .. ووددت لو أن الفقه الإسلامي وجد عارضين جداً يقدمون قضيائهما في ملفات حية تجعل المجدابهم إليه من أعماقهم .. إن الثقافة الإسلامية حتى الآن لا تزال في مادتها وفي عرضها وفي رجالها مأساة لابد من معالجتها بحكمة وإلا ضاعت رسالتنا من بين أيدينا .

وفي يقيني أن الله سبحانه وتعالى ربى محمداً ليربى به العرب ، وربى العرب بمحمد ليربى بهم الناس كلهم .. وهذا المعنى تكرر في موضوعين من القرآن الكريم .. أولهما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذِّلَكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .. ﴾^(١) وثانيهما في قوله تعالى : ﴿ .. هُوَ سَمَّاَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. ﴾^(٢) .

فنحن أمة مكلفة برسالة يجب أن تكون من الناحية العلمية مشرقة متداولة محمية ، أما أن تترك لتعصف بها الأوبئة والمحشرات فهذه جريمة أو خيانة عظمى .. ولو قيل لي : كيف تعلم العقائد الآن لقلتُ : أجيء بكتاب مثل كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) أو كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) وأضع فصوله العلمية تحت الآيات القرآنية العلمية التي تتحدث عن الكون والتي تربط الأديان بالنظر في هذا الملوكوت .. إنه قريب من منهاج الشيخ نديم الجسر في (قصة الإيمان) والشيخ وحيد الدين خان في كتابيه (الإسلام يتحدى) و(الدين في مواجهة العلم) .

* يرى بعضهم أنك تميل إلى لون من التصوف ، وتسميه (الجانب العاطفى من الإسلام) ويخشى بعضهم أن يكون الجانب العاطفى منزلاً إلى الواقع فى البدع .. فما العادلة الصحيحة - فى رؤيتكم - لمعالجة فقه النفس والقلب والوجودان فى الإسلام؟

. ٧٨ : (٢) الحج .

. ١٤٢ : البقرة (١)

قال أستاذنا الداعية الكبير محمد الغزالى:

أنا سميـت التصوف أحـيانـا علم الإحسـان أو علم القـلوب أو الجـانب العـاطـفى من الإـسلام . وأـنا مـسبـوق فـي هـذا بـرـجـلين مـن أـعمـدة الـعلم السـلـفـى هـما ابن تـيمـيـة ، وابـن القـيم ، فـلـابـن تـيمـيـة جـزـءـان فـي فـتاـواهـ الكـبـرى عن علم القـلـوب ، وـلـابـن القـيم كـتاب (مـداـرـج السـالـكـين بـيـن إـيـاكـ نـعـبـد وـإـيـاكـ نـسـتـعـنـ) وـقـد قـرـأـتـهـ كـلـهـ وـأـنـا فـي مـعـتـقـلـ الطـورـ ، فـكـنـتـ أـشـعـرـ وـالـأـسـتـاذـ البـهـىـ الـحـولـىـ رـحـمـهـ اللـهـ يـقـرـؤـهـ عـلـىـ أـنـىـ مـحـمـولـ عـلـىـ السـحـابـ حـتـىـ إـذـا اـنـتـهـتـ الـقـرـاءـةـ اـسـتـيقـظـتـ وـأـنـا عـلـىـ الـأـرـضـ ، وـيـخـيلـ إـلـىـ أـنـ الـجـفـافـ الـمـسـعـورـ السـائـدـ الـآنـ فـيـ حـرـيقـ الـمـطـامـعـ الـمـادـيـ جـاءـ مـنـ أـنـ عـلـمـ الـقـلـوبـ هـجـرـهـ الـمـسـلـمـونـ ، وـأـنـ الـجـانـبـ الـعـاطـفـىـ مـنـ الـدـيـنـ أـهـمـلـ ، وـأـصـبـحـ الـدـيـنـ عـنـدـ بـعـضـ حـمـلـةـ الـعـلـمـ مـظـاهـرـ وـأـشـكـالـاـ .. فـالـذـىـ أـفـتـرـضـهـ فـيـ الـدـعـاـةـ الـآنـ أـنـ يـكـوـنـ لـهـمـ زـادـ مـنـ هـذـاـ الـجـانـبـ الـرـوـحـىـ وـالـعـاطـفـىـ فـيـ تـرـاثـنـاـ الـثـقـافـىـ وـهـوـ مـحـرـرـ تـحـرـيرـاـ حـسـنـاـ فـيـ كـتـابـاتـ ابنـ تـيمـيـةـ وـابـنـ القـيمـ .

وـقـدـ فـشـلـ بـعـضـ الـدـعـاـةـ فـيـ عـصـرـنـاـ لـتـهـافـتـهـمـ عـلـىـ الـقـضـاياـ الـتـافـهـةـ وـجـبـنـهـمـ عـلـىـ الـانـسـيـاحـ فـيـ أـرـضـ اللـهـ وـهـمـاـ نـتـيـجـتـانـ تـرـجـعـانـ إـلـىـ هـذـاـ الـفـرـاغـ الـقـلـبـىـ وـلـأـزـةـ الـتـىـ نـهـاـيـتـهـاـ فـيـ عـلـمـ الـقـلـوبـ .

وـقـدـ يـقـعـ أـحـيـانـاـ أـنـ يـسـتـهـيـنـ شـدـيدـ التـوـكـلـ بـالـأـسـبـابـ أـوـ يـتـقـاعـسـ عـنـ بـعـضـ الـأـنـشـطـةـ وـهـذـاـ خـطـرـ عـلـىـ الـإـسـلامـ وـعـلـىـ مـنـ سـلـكـ هـذـهـ الـمـسـالـكـ .

وـعـمـلـ رـجـالـ الـدـعـوـةـ هـوـ تـجـمـيعـ النـاسـ عـلـىـ رـبـ الـأـسـبـابـ وـوـظـيفـةـ الـأـسـبـابـ ، وـالـمـعرـكـةـ لـنـ تـكـوـنـ عـلـىـ الـعـنـاوـينـ ، فـمـاـ يـعـنـيـنـاـ أـنـ يـحرـقـ اـسـمـ التـصـوفـ أـوـ يـبـقـىـ .. وـإـنـاـ يـعـنـيـنـاـ أـنـ كـلـمـةـ مـثـلـ كـلـمـةـ ابنـ عـطـاءـ اللـهـ : (ماـبـسـقـتـ أـغـصـانـ ذـلـ إـلـاـ عـلـىـ بـذـورـ طـمعـ) يـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ مـنـ أـصـوـلـ الـتـرـبـيـةـ الـتـىـ تـقـطـعـ أـطـمـاعـ الـبـشـرـ فـىـ غـيـرـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ ، وـثـقـتـهـمـ جـمـيـعـاـ فـيـ سـاحـتـهـ وـحـدـهـ ، مـنـهـ يـطـلـبـونـ وـعـلـيـهـ يـعـتـمـدـونـ!

* قـلـنـاـ لـأـسـتـاذـنـاـ الشـيـخـ الغـزـالـىـ : دـعـنـاـ نـصـلـ مـعـكـ إـلـىـ بـيـتـ القـصـيدـ فـيـ حـوارـنـاـ هـذـاـ ، وـنـسـأـلـكـ عـنـ مـوـقـفـكـ الـآنـ – فـكـرـيـاـ وـنـفـسـيـاـ – مـنـ إـخـوـاتـنـاـ السـلـفـيـنـ ، بـعـدـ أـنـ شـعـرـ النـاسـ بـوـجـودـ جـفـوـةـ بـيـنـكـ وـبـيـنـ بـعـضـهـمـ؟

أـجـابـ الشـيـخـ الغـزـالـىـ بـنـبـرـةـ حـزـينـةـ قـائـلاـ :

دـعـنـىـ أـعـلـنـ لـكـلـ النـاسـ سـلـفـيـنـ وـغـيـرـهـمـ أـنـىـ سـلـفـىـ أـصـيـلـ ، بـلـ قـدـ أـكـونـ درـوـيـشـاـ فـيـ مـحـبـةـ الصـحـابـةـ وـالـتـابـعـينـ ، وـأـشـعـرـ بـأـنـ هـذـهـ الـمـعـالـمـ الـغـائـرـةـ فـيـ تـارـيـخـنـاـ الـطـوـيـلـ هـىـ التـىـ تـحـمـلـ الـإـسـلامـ مـنـ الـقـرـنـ الـأـوـلـ إـلـىـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ ، وـأـعـىـ جـيـداـ قـوـلـهـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ : «ـخـيـرـ الـقـرـونـ قـرـنـىـ ثـمـ الـذـيـنـ يـلـوـنـهـمـ»ـ فـتـصـورـ بـعـضـهـمـ أـنـ هـنـاكـ فـجـوةـ

نفسية أو فكرية بيني وبين سلفنا الأول هو ضرب من الجنون ، فأنا من السلف أحمل دعوتهم وأثنى عليهم .. فهم أصدق الناس فطرة .

ولكن الإسلام طويل المدى ، وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام قال : «أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أو آخره» .

والأمة التي لاتاريخ لها ليس لها حاضر ولا مستقبل . ولذلك فأنا مع حبي العميق للسلف أحترم بسائر العبارقة من أئمة الفقه والأدب والعقيدة وسائر فنون المعرفة الذين ظهروا في تاريخنا .. ولماذا تقوم بيني وبينهم خصومة وهم جميعاً يقومون على الكتاب والسنة ويرفعون علم التوحيد ويجندون مواهبهم ومن معهم لخدمة الإسلام وقيمة أمته .

ومن ثم فأنا أحترم بالخلف كما أحترم بالسلف ، ولا أرى أن هؤلاء لهم وجه غير أولئك فالهجرة إلى الله عندهم جميعاً والكل يبغى وجهه ، ولذلك عندما سألني أحد الناس : أتبع رسول الله أم تتبع أبي حنيفة؟ قلت ساخراً من السؤال : أتبع كلام رسول الله كما فسره لي أبو حنيفة . وقيمة أبي حنيفة أو ابن حنبل ليست مستمدة من ذاته ، وإنما من العلم الديني الذي تصدى له ، وللانساب إلى المنهج النبوى الذى شرف به ، وكذلك سائر أئمتنا إلى يوم الناس هذا .

- والحقيقة العلمية عندي تستمد وجاهتها من شاهدين عدلين هما كتاب الله وسنة رسوله ، فليس هناك بديل ولا شريك في هؤلاء الشهداء .

وعندما أقرأ التفسير أو السنة أو العقائد أو السيرة فالشعور المسيطر على هو أن الحقيقة شائعة في هذه المعارف وفيمن حملها إلينا من السلف الأول إلى القرن الأخير .. نحن أمة لا يجحد صغيرها كبيرها ، ولا يتبرم تلميذها بأساستها ولا تتسلل العزة إلا من مصدرها الأصلى ﴿وَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) ، فهل أقبل بعد هذا الشعور الغامر أن يجيء إنسان يخالفنى في بعض الفروع أو الاجتهادات فيتهمنى في عقيدتى وسيرتى ودينى ودنياى؟!

وهذا الذي يرتكب هذه الجريمة هو كما قال ابن الجوزى في أمثاله : (في قلبه كبر فرعون) .

إن العملة المتداولة في ميادين الحياة الآن هي الأخلاق التي يسمونها (إنسانية) ونبينا عليه الصلاة والسلام هو القائل : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فأين رصيدها منها في العملة المبذولة الآن بين الناس !!

(١) المنافقون : ٨ .

فالعلامة المميزة للعلم الصحيح والثقافة الندية الصادقة هي الشارة الحمدية التي يجب أن تظهر ناصعة على المواريث القدمة والحديثة على السواء ..

الشيخ عبدالعزيز بن باز عالم سلفي نقى مخلص وهو من يؤثرون ربهم على دنياهم

لقد كنت أقول دائمًا في عالم سلفي نقى مخلص مثل الشيخ عبدالعزيز بن باز إنه من طلاب الآخرة ، ومن يؤثرون ربهم على دنياهم ، وقد تكون بيننا خلافات فقهية فما قيمة هذا الخلاف وما أثره؟!

إن الأئمة الكبار اختلفوا - بل إن داود وسليمان قد اختلفا في الحكم - وهما من هما في النبوة والعلم والحكمة!!

لا يوجد نظام دولي جديد.. والهدف الصلبي واحد..

* وعن العلاقة بين الدولة والدعاة وموقف المسلمين جمیعاً - دولة وأمة مما يسمى بالنظام الدولي الجديد قال شيخنا الغزالى :

إنتي أؤمن بأنه من الممكن جداً أن تكون بين الدولة والدعاة شعرة معاوية ، فلا يستعجل أحد المعركة أو الخلاف مادامت هناك رغبة في إيثار السلام وخدمة الإسلام - وعندى أن الأمر يحتاج إلى تصحيح النية ، وإلى إظهار الزهد الحقيقي في الدنيا ومناصبها - وأعتقد أن الحاكم الذي يشعر بأن الدعاة لا يسألونه شيئاً في يده ولا يزاحمونه على دنيا عنده ، بل يريدون الخير له وللأمة فإنه يكفي عن مقاومتهم بالضراوة التي نراها الآن من بعض الحكماء المسلمين للأسف الشديد ..

أما النظام الدولي الجديد والقديم فكلاهما يعادى الإسلام ، ولا يجوز أن ننخدع بعناوين براقة مثل (حقوق الإنسان) و(كرامة الشعوب) (احترام الديمقراطية) وغيرها من العناوين التي يراد بها أن تكون بديلاً عن الإسلام .. فإذا كان الإسلام - كما ثبت في عشرات التجارب - سيجد التنفس والانتعاش فيها ، فإن النظام الدولي يقتله معه .. !!

ومadam المسلمين ضعفاء مستهلكين ممزقين فإن أي نظام دولي لن يعطيهم إلا ما ينتهي به إلى تحقيق أهدافه منهم .. أهدافه هو لا أهدافهم هم .. وكفانا تعطيلًا للعقل ، وامتهانا لحقائق الأشياء .. فليس بين الحق والباطل إلا ما ذكره القرآن حقيقة ثابتة إلى يوم القيمة : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَسْتَعِمْ مَلَّهُمْ﴾^(١) .. ﴿.. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) .

(٢) يوسف: ٢١.

(١) البقرة: ١٢٠.

الإنسانية في حاجة إلى البعث الإسلامي

لقاء فكري بالقاهرة - بسيونى الحلونى:

أكَد الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالى أن الإنسانية في حاجة ماسة إلى البعث الإسلامي ليخرجها من حالة التخبُط التي أصابت أنظمتها الحاضرة ولا تجد لها مخرجاً . وهذا لا يتطلب إلا أن ينتفض المسلمون انتفاضة حكيمه يرجعون بها إلى أنفسهم ويعيدون تنظيم مواريَشِهم ويتعاونون على إقامة نظامهم الفطري الذي يتعاملون فيه بمقاييس الإيثار لا بمقاييس الأثرة .

ووصف الغزالى أولئك الذين يتجرأون على الدين ويصفونه بأنه فكرة متأخرة وما هو إلا مجرد مخلفات بالية - بأنهم سفهاء وضالون يفتحون أبواب الفوضى والخيبة لأمّهم .

جاء ذلك خلال اللقاء الفكرى الذى عقد بنادى هيئة قضايا الدولة بالقاهرة .

تحدىَت الشیخ الغزالی فقال : يظن نفر من الناس في هذا العصر أن الدين أمسى من المخلفات البالية ، وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده وتعدو حدوده وتسير وحدها دون رعاية لرب خالق أو تهيب لجزاء منتظر . ويتعلق أولئك الواهمون بأن العلم فض مغاليق الكون واكتشف أسراره وأرصد لكل مشكلة علاجاً من عنده لم تبق للدين موضعًا ولا لقضايا مكاناً وهذا الكلام إفك كله . ومهما نسبت فيه فلن تجد إلا ظلمات الادعاء والغرور ونضع الجهلة والشروع ، واتباع هذا اللغو مفتاح لأبواب من الفوضى والخيبة تلحق العالم آخر الدهر ، بل إن العالم يتعرّض الآن في بوادرها ويوشك أن يسقط في براثنها مالم يتبع إلى الله ويقلع عن هذا الغى .

التجزؤ على دين الله .. سفاهة وضلال

وأكَد الغزالى أن الدين كان ولم يزل وسيظل ملتقي العقول السليمة والفتَر القوية ، ما أخطأ منهجه فكر ثاقب ولا ضل صراطه طبع نظيف ، وأن العلم مهما اتسعت آماده وامتدت أبعاده وترادفت كشوفه فلن يجيء إلا بما يصدق الوحي ويدعم الإيمان ويمكن لهداية الرحمن ، وإنما يزيد الأتقياء بصرًا بجلال الله وقياماً بحقه وثقة بلقاء الموعود .

ثم إن التهمة التي توجه إلى الدين الآن ليست جديدة ، والقول بأن الإيمان لون من خرافات الأمية سبق أن قاله المشركون من عبادة الأصنام فقال تعالى : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ

إِلَّا كُلُّ مُعْتَدِّ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ المطففين ١٤ - ١٢ . وقال أيضًا : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكْنَةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ
إِذَا جَاءُوكَ يَجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١) .

والقول بأن الدين شيء من خرافات الأولين ضرب من الجرأة التي يتسم بها سفهاء كل عصر يرمون بها المسلمين ، لأن الإلحاد في آيات الله ذكاء وتقدير والاستجابة لهديه جمود وتأخر !! وذلك هو الضلال المبين .

سفاهة قديمة

وأكيد الشيخ الغزالى أن اتباع الدين والانقياد لتعاليمه يقتضى تفتحاً ذهنياً يتجاوز مع آيات الله في كونه ، كما يقتضى عزيمة قوية لفطام النفس عن المظالم والآثام ، وهذا الجهاد يجعل كفة المؤمنين في آية موازنة أرجح ، ويجعلهم أحق بالاحترام في الدنيا والآخرة .

وإذا كان اتهام الدين بأنه فكرة متأخرة ليس إلا سفاهة قديمة فكذلك ما ينضم إلى هذا الاتهام من تبجح أهل الربيع وتطاولهم كأنهم ورثوا ذلك الكبر بالإلحاد عن فسقة الجاهلية الأولى الذين كانوا يلقون رسول الله ﷺ فيسخرون منه ويستعجلون العقاب المعد للجادين ، ويصف الله تبارك وتعالى ذلك بقوله : ﴿وَإِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُرًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ أَهْتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٢٦) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢) .

أضاف الشيخ الغزالى : إن القوم هم القوم ، حذو النعل بالنعل ، وإن المرء ليتفرس في وجوه عشاق الإلحاد في هذا الزمان فلا يرى في ملامحهم البدنية والنفسية إلا ملامح المفتونين الصغار الذين تلى نبأهم من أعداء النبيين المكرمين ، الدعوى هي الدعوى ، والسيرة هي السيرة . أما الشريعة باسم العلم وتقديره فهي شكل ليس له موضوع فإن العلم دليل على الله وقائد إليه وهياهات ، هيئات ، أن يفرد العلم بقضية تنقض الاعتقاد في وحدانية الله ووجوب طاعته وضرورة الإعداد للقاءه ﴿يَوْمَ يَقُومُ

(٢) الأنبياء : ٣٦ - ٣٧ .

(١) الأنعام : ٢٥ .

الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ
الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيْ رَبِّهِ مَا يَشَاءُ (١).

دين علمي

وأكَدَ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ يَبْنِي كِيَانَهُ الْمَادِيَ وَالْأَدْبَرِ عَلَى التَّعْمِيقِ فِي الْعِلْمِ وَالتَّزُودِ مِنَ
الثَّقَافَةِ وَعَلَى دَوْمِ الْصَّلَةِ بِعَمَلِ الْقَدْرَةِ الْعُلِيَّا فِي مَجَالِ الْعَالَمِ الرَّحِبِ ، وَأَوْلُو الْعِلْمِ فِي هَذَا
الْمُضْمَارِ قَرْنَاءَ مَلَائِكَةِ اللَّهِ فِي التَّصْدِيقِ بِعَظَمَتِهِ وَالْشَّهَادَةِ بِعَدَالَتِهِ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى :
﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ..﴾ وَالْمَتَّمُ فِي الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ يُوقَنُ بِأَنَّ الْكَوْنَ مَدْرَسَةُ الْإِيمَانِ الْحَقِّ وَأَنَّ الْعِلْمَ مَدْدُهُ الْمَوَارِ وَنَبْعَهُ الْفَوَارُ ، وَأَنَّ كُلَّ
خَطْوَةٍ إِلَى الْأَمَامِ فِي دراستِهِ إِنَّمَا هِيَ زِيَادَةٌ جَدِيدَةٌ فِي دَلَائِلِ التَّصْدِيقِ وَأَسْبَابِ الْيَقِينِ .
إِنَّ الْإِسْلَامَ يَرْبُو عَلَى الْعِلْمِ كَمَا يَرْبُو الْجَسْمُ عَلَى الْغَذَاءِ الْجَيْدِ . وَيَنْمُو بِاسْتِبْحَارِ
الْعِرْفَةِ كَمَا يَغْلُظُ النَّبَاتَ عَلَى الشَّعَاعِ وَالْمَاءِ .. فَيَا عَجَبًا ، كَيْفَ يَزْعُمُ زَاعِمٌ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ
ضَدَ الْعِلْمِ أَوْ أَنَّ الْإِسْلَامَ ذَهْبٌ أَوْ أَنَّ الْعِلْمَ قَدْ تَوَطَّدَ أَرْكَانَهُ؟؟

وَوَصَفَ الْغَزَالِيُّ هَذَا القَوْلَ بِأَنَّهُ انتِكَاسٌ فِي الْفَهْمِ وَانْطِمَاسٌ فِي الْبَصَائرِ وَهَذَا مَا
أَكَدَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ
وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) .

ثُمَّ تَسْأَلُ الْغَزَالِيُّ قَائِلًا : لَنْ نَنْظُرْ أَيْ كَمَالٍ تَبْلُغُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِعِيْدًا عَنْ مَنْطِقِ الْإِيمَانِ
وَإِيْحَاءِ الدِّينِ؟! إِنَّ دَسَائِسَ النَّفْسِ لَبَلُوغَ مَأْرِبِهَا لَا حَصْرَ لَهَا وَمَا لَمْ يَحْكُمْهَا ضَمِيرُ
مَوْصُولِ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ يَسْتَحْيِي أَنْ تَخْلُصَ لِلْخَيْرِ أَوْ أَنْ تَتَجَرَّدَ مِنَ الشَّرِّ .

سيظل الإسلام ملتقى العقول السليمة رغم أنف الحاقدين والعلمانيين

جِبْرِيلُ الْمُتَفَوِّقِينَ

وَأَضَافَ : لَقَدْ حَصَلَ الْمُسْتَعْمِرُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى أَنْصِبَةٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ
وَالْتَّفْوُقِ الْمَادِيِّ ، فَمَاذَا صَنَعُوا بِهِ؟ وَمَاذَا أَفَادَتِ الدِّينِيَّةُ مِنْهُ؟ مَلَكُوا الْقُوَّةَ فَكَانَتْ فِي يَدِ
الْفَاتِحِ الْغَالِبِ سَلَاحًا لِلنَّهْبِ وَالْغَصْبِ وَأَدَاءَ لِلْجَبْرِوتِ وَالْكَبْرِيَاءِ وَوَسِيلَةً لِقَهْرِ الْأَمْ وَتَكْبِيلِ
عُقُولِهَا وَضَمَائِرِهَا بِالْأَغْلَالِ ، إِنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي يَسْتَهْدِفُهَا الْإِلْحَادُ لِسَكَانِ هَذَا الْكَوْكَبِ الْمَرْهَقِ

(٢) الْجَاثِيَّةُ : ٢٣ .

(١) النَّبَأُ : ٣٩ - ٣٨ .

حياة لا صواب فيها ولا رحمة ، حياة يصرخ فيها المدل بتفوقة صرخة الرعيم الصهيوني القديم «قارون» عندما قيل له : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسِ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..﴾ القصص ٧٧ ، ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيهِ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي..﴾^(١)

حياة يقول فيها سراقو الحقوق وموقعاً البحس إذا قيل لهم : ﴿وَلَا تَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعثُرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢) بقيتُ اللَّهُ خَيْرُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ هود ٨٦ . ﴿قَالُوا يَا شَعِيبَ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمَنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾^(٣) .

إن الإلحاد ليس خراباً قلبياً فقط ، وليس ظلاماً فكريّاً فقط ، بل هو – إلى جانب ذلك وهذا – دمار اجتماعي يقوض أسس الشرف ويرد منابع العفاف ويطلق ألسنة العاهرين بطاردة أهل الطهر وأولي النهى قائلين ﴿.. أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرِبَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ﴾^(٤) .

واستطرد الشيخ الغزالى وصفه لبعض مظاهر الانحلال والضلال التى بدأت تتفشى فى المجتمع الإسلامى قائلاً : إن الحياة بعيداً عن فضائل الدين وشعائره انطلاق حيوانى محض ، ولا يجوز أن ينخدع العقلاء بهظاهر الارتفاع الذى تلوح أحياناً بين أقوام متخللين من شعب الإيمان وتعاليم الدين ، فإن أزمات العالم التى تهدده بالويل والعداب الأليم إنما تنشأ من غرائز السوء التى تمت فى ظلال الإلحاد وانطلقت من عقالها انطلاق السباع من غابها .

وماترجع البركة إلى الأرض إلا إذا عاد الناس إلى ربهم منيبين راشدين .

أهمية الدعاء

ويلى حال الدعاء يؤكّد الشيخ الغزالى المهمة الرئيسية التي تنتظر أن يقوموا بها فقال : إن مهمتنا نحن هي تعريف الإسلام لأهله حتى يعودوا مسلمين ، فمن شأن جمال الإسلام إذا تحلى به أهله حقاً أن يكون عملهم به وسيرتهم القائمة على أخلاقه وسيلة لمعرفة الآخرين به .

فمن عرف شيئاً صار صديقاً له ومن جهل شيئاً عاداه ، وإن تسعه أعشار عداوة غير المسلمين للإسلام ناشئة في هذه العصور عن فقدان القدوة ، وعن تقصير المسلمين في أن تكون معاملاتهم وأخلاقهم وتصيرفاتهم مثلاً لإسلامهم فخيال إلى غير المسلمين أن معاملاتنا وأخلاقنا وتصيرفاتنا المختلفة للإسلام من الإسلام فكرهوه لذلك .

(٢) الأعراف : ٨٢ .

(٣) هود : ٩١ .

(٤) القصص : ٧٨ .

إن الإسلام الذي تطمره الأن عواصف متابعة الهبوب وأمته التي انفرد الخصوم بكل جزء منها كما ينفرد فطاع الطريق برجل مليء في مكان موش .. هذا الإسلام من حقه أن يحيا ، وهذه الأمة من حقها أن تؤمن . لماذا تتائب الدنيا والرزايا عليه وعليها؟

واستطرد الشيخ الغزالى حديثه بقوله : أنا أعتقد من عشرات السنين أن الإنسانية في حاجة إلى البعث الإسلامي ؛ لأنها تخبط في أنظمتها الحاضرة ولا تجد لها منحرجاً من هذا التخبط إلا بأنظمة الفطرة القائمة على أساس الأخلاق ، وأنظمة الفطرة القائمة على أساس الأخلاق لا تحتاج إلى من يخترعها من جديد ؛ ذلك أنها موجودة بالفعل في نظام الإسلام الذي أهمله المسلمون فصاروا حجباً بين الإنسانية وبين معرفة هذا النظام ، فاضطر الغرب إلى أن ينزلق في أنظمة أملأ عليه اليهود بعضها ، وأغروه ببعضها أو جعلوه منها أماماً أمراً واقعاً ، أو كانت لهم يد في تعديل البعض الآخر أو توصل غير اليهود إلى بعض المبادئ ، فوجدها اليهود داخلة في برامجهم فأيدوها وروجوها وفسروها ونشروها حتى صارت من صلب ذلك النظام المعمول به في الغرب والذي أخذنا نقتبس عنه تقاليد حياتنا منذ نحو مائة سنة .

فعشى دواوين حكمنا وأسواق تجارتنا وساد في مجتمعنا ، وسابق نساينا رجالنا إليه في الأزياء والأداب والمعاشة حتى آمنا به وكفرنا بما سواه ، وأصبح الرجل المستقيم منا هو الذي يمدحه الناس بأنه ملتزم بذلك النظام الأجنبي وغير مخلٌ بشيء من أصوله أو فروعه أو أدابه .

ولو أن المسلمين انتفاضوا انتفاضة حكيمة يرجعون بها إلى أنفسهم ويعيدون تنظيم مواري THEM ويتعاونون على إقامة نظامهم الفطري الذي يتعاملون فيه بمقاييس الإيثار لبعضهم الأثرة فإنهم لا يلبثون أن يوجد فيهم من أبنائهم جيل ترى فيه الإنسانية جمال الإسلام ويتبين لها أنه ضالة الإنسانية التي كانت تنشدها فيتجدد بذلك تاريخ الإنسانية جميماً .

وكشف الشيخ الغزالى عن أن هناك سباقاً قائماً بين عدة أديان كى يثبت كل منها أنه أولى بالحياة وأجدر بالبقاء ، وقال : الغريب أن بعض المنتسبين إلى الإسلام يجهل هذا الواقع ويرتكب حماقات تسىء إلى دينه بل تنفر منه وتصد عنه ، وتساءل متعجباً : لحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام ويصورونه بعيداً عن مقررات الفطرة وأسواق الإنسانية الكاملة؟! ولحساب من يعلو صوت الإسلام في قضايا هامشية ويخفت خفوئاً منكراً في قضايا أساسية؟

جهاز عالمي لدعم الأخلاق والقيم

جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس ، عقدت مؤتمرها الأول فى شيكاغو ، و تستعد لعقد مؤتمرها الثانى بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على تأسيس هيئة الأمم المتحدة ، و قيل لى بعد اختيارى عضواً : إن مؤسستنا عالمية تضم رجالاً من كل دين سماوى أو أرضى ، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأى دين . المهم أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة ، ويحترمون المثل العليا التى يجب أن تحكم العالم .. وأنا رجل شرقي ، الأول والأخير أنى أقول وراء محمد ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) . أنا أشعر حين أكل بأن الله هو الذى وضع اللقمة فى فمى وحين أفكر بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى . إنه يستحيل أن أفك أو أسوى بين مؤمن وكافر أو أشتراك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها فى عمل ما لرفع مستوى البشر . !! شعرت بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة ، أنهم لا يهتمون بتزكية الروح ، وأنهم قد يدفعون المظلوم عن أنفسهم ، لكنهم لا يدفعونها عن غيرهم ! فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى جاء فيها ما يلى :

شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمي لدعم الأخلاق والتسامى بالبشر .
وقلت : إن الفطرة الإنسانية لا تزال طيبة تعشق الكمال وتسعى إليه ، وتقاوم السعار
المادى الذى يربط المرء بنفسه وماربه وشهواته ، ومعروف أن العالم تقارب أقطاره
واختصرت أبعاده ، ونشأت فيه - لأول مرة من تاريخه المديد - هيئة للأم كلها ، أي أن
أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور دراسة ما يثور من مشكلات ، والتعاون
على حلها . لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا فى ظل الاكتمال الخلقى وكمت غرائز
الأثرة والكبرياء . فهل ننصر فى توفير الوسائل المشودة لتحقيق مانصبو إليه ؟

مكارم الأخلاق

إن نبى الإسلام يقول : «بعثت لأتم مكارم الأخلاق» ، ويقول لعلى بن أبي طالب : «ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عن ظلمك» .

ويقول لأصحابه : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلة والصدقة؟ قالوا : بلى ! قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تخلق الشعر ولكن تخلق الدين» !!

إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأم ، وتسدد خططاها ، وتحصنها من المخاوة والهوى .

لكنني – ولأكن صريحاً – شعرت بحرج شديد عندما علمت أن «البرلمان» الأخلاقى فتح الباب للمؤمن والكافر ، للموحد والمشرك ، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت ! قد تقول : هذه هي الدنيا وهؤلاء أبناؤها . وقد تكونت الأم المتحدة من ملل متناقضة ، وتجاوزت فى مقاعدها لتدرس قضائياها المختلفة . وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك ! ولى على هذه الإجابة تعليق !

إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لاصلة لها بالأخلاق أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين ، أو هو أمر يشير الاشمئزار ، لماذا يخلق الله ويعبد غيره؟ ولماذا يعطى ويشكر غيره؟ هل العقوق ردية إلا في معاملة الله؟!

تقوية الفضائل ومحاربة الرذائل

إننى لو أجزلت العطاء لأحد ثم رأيته يجحدنى لاشتد سخطى عليه واحتقارى له ! فكيف أرضى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحاً ومساءً ثم تتجرأ عليه وتنكرو وجوده وحقوقه ؟ ! أعتقد أننا لا ينبعى أن نعترف بهم ، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم فلنرسم لذلك سياسة خاصة توقف بين عقائدهنا وحقهم فى الحياة ، من يدرى ؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسنـاهم .. ومن دواعى سرورنا نحن المسلمين أن نلتقي بأتىاع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جامع لتحسين الحسن وتقبیح القبیح وتقوية الفضائل ومحاربة الرذائل . إن لدينا الكثير الذى نود أن نقوله ، والترااث الذى تركه لنا محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها ، ولا رغبة في التسامى إلا ذاكها وشجع عليها . إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بكارم الأخلاق ، ولا أعرف رسولًا سماوياً ولا فيلسوفاً أرضياً خلف مثل هذه التركة !! ومن أراد الاطلاع أو الترجمة للنناه على المراجع التي يحتاج إليها .. ثم إننا نحن المسلمين نحب أن نتعرف على الناس ، وأن يتعرف علينا الناس ، هكذا علمنا ربنا .

فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ، ولنسفك الدماء ، بل خلقها لنرتقق خيره
ونشكّره عليه ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَا كَبَّهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ
وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾^(١) .

المعاملة بالمثل

ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلو المسلمين المعاملة نفسها! قرأت
أن يهودياً في مدينة الخليل استولى على بيت عربي ، ثم قال لرب البيت : «هذا البيت
ملكي من بضعة ألف عام وقد عاد إلى ، ولست أطلب منك أجر سكناه طوال هذه
القرون ، لقد تنازلت عنها ، فاذهب إلى أي مكان وأقم به أو اسكن في العراء إن شئت
ولا تعد هنا وإلا ... ». هل تستقيم علاقة إنسانية مع هذا المنطق؟!

والسياسة الاستعمارية التي سيرت العالم في العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها.

فإن الجريمة التي ارتكبها الإسلام - كما يرى البعض - أنه دحر الإمبراطورية
الرومانية التي كانت تحتل الأناضول وشرق البحر المتوسط ووادي النيل وشمال إفريقيا
وأقطاراً كثيرة أخرى جهاز الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين ، الذين اعتنقوا الإسلام
بداهة . !! وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة
يجب أن يستعيدها وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون .

ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أساس إنسانية مجردة فتح صفحة جديدة
في تاريخ العالم ، وكفف من غلواء الاستعمار السابق ، لكن هل المنتصرون الذين بنوا
هذه الهيئة النبيلة برأوا من مسؤوليات الحقد القديم وحاربوا التعصب والجشع؟

لعل إنشاء جهاز أخلاقي عالمي يساند الخصائص الإنسانية العليا ، وينشط الجهود
المبذولة لدعمها ، ويصل بالهيئة إلى مانيريد ويقوى العالم شرور الانقسام والخصام .

تعريف الظلم

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : «ياعبادي إنني
حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محراً فلا تظالموا» وفي الحديث أيضاً : «اتقوا
الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيمة» الواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفاً في
رضاه وفي غضبه ، فلا يستبيح خصمًا ، ولا يجور على ضعيف بل يقف عند الحق
ويستريح للعدل و يعلم أن النزق والجحود من صفات السبع لا من خلائق الإنسان .

^(١) الملك : ١٥ .

ويؤسفني أن الإنسانية في تاريخها الطويل احتالت على ارتکاب المظالم ، ورأى في اختلاف البشر - قوة وضعفاً . وغنى وفقراً ، وأيماناً وكفراً - ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ماتريد وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شيء ماديًا كان أو أدبياً ﴿ .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ إِلَّا لِلَّهِ الْوَالَّدُ الَّذِينَ وَالْأَقْرَبُونَ .. ﴾^(١) .

وفي آية أخرى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾^(٢) . لقد وهل الناس أن اختلاف الدين يبيح التظلم ويترك المجال رحباً للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة ، وهذا كذب على رب الدين وباعث المسلمين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَإِلْحَانِ .. ﴾^(٣) ، وأذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفريدة وتبرئ الإسلام من هذه التهمة .

الحديث الأول : « دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه » .

ال الحديث الثاني : « دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - ليس دونها حجاب » .

ال الحديث الثالث : « عن أبي ذر قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال : كانت أمثلاً كلها : أيها الحاكم السلطان المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنني بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر .. !!»

ومن دواعي الدهشة أن يموت نبي الإسلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله!

ما أثر اختلاف الدين هنا؟

إن اليهودي التائه عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال في عاصمة الإسلام!

هل كانت غربته سبباً في أن يجور عليه أحد؟

(٢) النحل : ٩ .

(٢) المائدة : ٨ .

(١) النساء : ١٣٥ .

يا أيتها النفس المطمئنة

إن الله لا يعطي غنياً المال كى يقول لغيره : ﴿ . أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعْزُّ نَفْرًا ﴾ إنما يعطيه ليشرك غيره فيه ويسارع إلى مواساة المحتاجين وتغريج كربهم ولم يحرم أحداً المال ليبكي على دنيا فاته أو يحسد من أتوى شيئاً منه بل ليصبر ويكافح ويتربي على العفاف . ومن بدء الخليقة فاوت الله بين أرزاق الناس لحكم منشودة وامتحان مقصود ولذلك قال - بعد وقوع هذا التفاوت : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتَيمَ ﴾^(١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِنِينَ^(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمَا^(١٩) وَتَحْبُّونَ الْمَالَ حُبًا جَمَّا^(٢٠) وقد نشب معركة الخbiz من قديم واجتذبت إليها أنشطة البشر جميعاً ، وضررت الحرب بين الأثرة والإيشار والبخل والعطاء وأقول وأنا محزون إن وصايا الدين انهزمت وغرائز الوحش غلت ، ثم ظهرت فلسفة الشيوعية التي تولت عن الله تقسيم الأرزاق لأنها اتهمته بالجور! فماذا حدث؟ قال الإنسان في ظلها بعدها اكتوى بذلها وبؤسها :

رب يوم بكى منه فلما صرت في غيره بكى عليه

وسألت نفسي ماذا قدم المسلمون للجماهير التائهة على ظهر هذه الأرض؟ لا شيء ، فد غطوا وجه الإسلام وشوهدوا جوهره ، بل لقد رأيت في دار الإسلام أحرازاً يتلمسون الكرامة في أرض أخرى ويبحثون عن العدالة التي عزت مصادرها في أرضهم! لم يبق إلا انتظار البعث الآخر ، ﴿ كَلَّا إِذَا دُكِّتُ الْأَرْضُ دَكَّا دَكًا ﴾^(٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا^(٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَ^(٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَمْتُ لَحِيَاتِي^(٢٤) ! هذا صياغ الندم يوم لا ينفع ندم! أما الصالحون من عباد الله فهذا يوم البشرى وتهلل الوجوه بالفوز . روى الطبراني عن سعيد بن جبير قرأ رجل عند رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ ﴾^(٢٥) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً^(٢٦) فادخلي في عبادي^(٢٧) وادخلي جنتي^(٢٨) فقال أبو بكر : ما أحسن هذا!! فقال له النبي ﷺ « أما إن الملك سيقولها لك عند الموت ». أول العدول الراشدين ، ومن أولى

(١) الفجر : ١٧ - ٢٠ . (٢) الفجر : ٢١ - ٢٤ . (٣) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

الناس بها ، ولكن السياق عام في القرآن الكريم يتناول كل مؤمن أسلم لله وجهه وأصلح له عمله ، فالكلمة الجميلة تنتظره ليدخل الجنة ، ويشارك في أحفال التسبيح والتحميد التي تملأ رحابها ، جعلنا الله بنه وفضله من أهلها .

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلْدَ ﴾ يعني أقسم بـك الله على بصرة ، مع أن البلدة حرم يصان فيه الحيوان والنبات فإن محمداً استبيح واستمر العدوان عليه ، ولماذا القسم بـبلد يقع فيه هذا التناقض؟ لأن الدعوة إلى التوحيد هنا وبناء جيل جديد يرتبط بالله إجابة لدعاء وقع من وراء القرون يقول فيه إبراهيم وأسماعيل : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ولذلك نحن نفسر : ﴿ وَالَّدِ وَمَا وَلَدَ ﴾ بأن الوالد هو إبراهيم وأن محمداً من ذرية إسماعيل هو ولده الذي يختتم الرسالات ويقيم دولة التوحيد في الأرض ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ إن الجنس الإنساني يحمل أثقال التكاليف ولجام الشريعة يحجزه عن تحقيق شهواته وقد يكره الإنسان وينكر أنه سيحيى مرة أخرى لماذا؟ أيعجز الله عن إعادته بعد إماتته؟ ﴿ أَيَحْسَبُ إِنْسَانٌ أَنَّ لَنْ نَجْمِعَ عِظَامَهُ ﴾؟ وذلك قوله في سورة أخرى : ﴿ أَيَحْسَبُ إِنْسَانٌ أَنَّ لَنْ نَجْمِعَ عِظَامَهُ ﴾ ويغتر الإنسان بما أسدى وأنفق من ثروة يقول : ﴿ أَهْلَكْتُ مَا لَأَبْدَأَ ﴾ كثيراً ، وتلك طبيعة العرب في الافتخار بالجاه والثراء والعطاء ويقول عنترة :

إِذَا سَكَرْتَ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعَرْضِي وَافْرَ لَمْ يَكُلِمْ . . . !
 إِذَا صَحَوْتَ فَمَا أَقْصَرْتُ عَنْ نَدِي وَكَمَا عَلِمْتُ شَمَائِلِي وَتَكْرَمِي . . . !
 وَمَا قِيمَةُ هَذَا كَلْهِ إِذَا لَقِيَ الْمَرْءَ رِبَّهُ عَرِيَانَ لَا يَكْسُوْهُ إِيمَانَ وَلَا صَلَاحٌ ﴿ أَيَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرِهُ أَحَدٌ ﴾؟ إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ امْرَئٍ عَنْ مَا لَهُ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ ثُمَّ يَذَكُرُ الْمَوْلَى عَبْدَهُ بِمَا أَوْدَعَ عَنْهُ نَعْمَ تَسْتَدِعُ الشَّكْرُ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴽ ٨ ﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ وَهَدِينَاهُ النَّجْدَيْنِ ، فَهَلَا كَسْرَ قِيَودِ الْكُفَّرِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَاقْتَحَمَ طَرِيقَهِ إِلَى اللَّهِ مُؤْمِنًا بِهِ مُطِيعًا لِأَمْرِهِ وَمَاذا يَصْنَعُ لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ؟
 وَسُورَةُ الْبَلْدَ بَيَّنَتْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَنْجُحُوا فِي هَدَايَةِ أَطْرَافِ الْجَزِيرَةِ شَمَالًا وَجَنُوبًا حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ الْخَاتَمُ فَابْتَعَثَ مِنْ وَسْطِ الْجَزِيرَةِ رِجَالًا حَمَلُوا الْمَشَاعِلَ إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعِ .

الأمم لا تقام بالهممـة والبطـالة

القاهرة – وكالة الأنباء الإسلامية :

أكـد الشـيخ محمد الغـزالـي أنـ مـشـرـطـ الطـبـيبـ وـدوـاءـ الصـيدـلـانـيـ وـفـأسـ الزـارـعـ وـقـلمـ الصـحـفىـ أـدـوـاتـ لـنـصـرـةـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ وـإـعـلـاءـ كـلـمـتـهـ .ـ وـفـىـ مـجـالـ التـأـمـلـ فـىـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ ﴿فـمـنـ يـعـمـلـ مـنـ الصـالـحـاتـ وـهـوـ مـؤـمـنـ فـلـاـ كـفـرـانـ لـسـعـيـهـ وـإـنـاـ لـهـ كـاتـبـونـ﴾ـ قـالـ فـضـيـلـةـ الشـيخـ الغـزالـيـ :ـ إـنـهـ مـنـ الـمـسـتـحـيـلـ إـقـامـةـ مـجـتمـعـ نـاجـحـ الرـسـالـةـ إـذـاـ كـانـ أـصـحـابـهـ جـهـاـلاـ بـالـدـنـيـاـ ..ـ عـجـزـةـ فـىـ الـحـيـاـةـ .ـ وـيـضـيـفـ فـضـيـلـتـهـ أـنـ الـعـبـادـةـ السـمـاـوـيـةـ لـاـتـسـغـرـقـ نـصـفـ سـاعـةـ عـلـىـ مـدـىـ يـوـمـ وـلـيـلـةـ ..ـ تـعـالـيـمـهـاـ تـحـتـلـ صـفـحـةـ أـوـ صـفـحـتـيـنـ لـيـبـقـيـ الـزـمـانـ بـعـدـ ذـلـكـ وـاسـعـاـ وـالـجـالـ رـحـبـاـ لـفـهـمـ الـحـيـاـةـ وـاـكـتـشـافـ طـاقـاتـهـاـ وـتـسـخـيرـهـاـ «ـكـلـاـ وـجـزـءـاـ»ـ لـخـدـمـةـ الـدـيـنـ ،ـ وـضـرـبـ مـثـلـاـ فـقـالـ إـنـ نـفـرـاـ مـنـ الـعـابـدـيـنـ رـأـواـ أـنـ يـحـصـرـوـاـ عـبـادـتـهـمـ فـىـ الـصـلـوـاتـ وـالـأـذـكـارـ يـبـدـأـوـنـ وـيـعـيـدـوـنـ وـيـظـنـوـنـ أـنـ الـأـمـ تـقـامـ بـالـهـمـمـةـ وـالـبـطـالـةـ .ـ فـمـنـ يـنـصـرـ اللـهـ وـرـسـلـهـ إـذـاـ كـانـ أـولـيـكـ جـهـاـلاـ بـالـحـدـيدـ وـأـفـرـانـهـ وـمـصـانـعـهـ ..ـ وـالـلـهـ يـقـولـ فـيـ كـتـابـهـ الـعـزـيزـ :ـ ﴿..ـ وـأـنـزـلـنـاـ الـحـدـيدـ فـيـهـ بـأـسـ شـدـيدـ وـمـنـافـعـ لـلـنـاسـ وـلـيـعـلـمـ اللـهـ مـنـ يـنـصـرـهـ وـرـسـلـهـ بـالـغـيـبـ إـنـ اللـهـ قـوـيـ عـزـيزـ﴾ـ^(١)ـ .ـ

إـنـ هـنـاكـ سـبـعـينـ صـنـاعـةـ مـدـنـيـةـ وـعـسـكـرـيـةـ تـتـعـلـقـ بـالـنـفـطـ وـالـأـنـتـفـاعـ بـمـشـتـقـاتـهـ لـاـ نـعـرـفـ عـنـهـاـ شـيـئـاـ فـهـلـ تـخـدـمـ عـقـيـدـةـ التـوـحـيدـ وـمـاـ يـنـبـغـىـ أـنـ يـنـبـئـنـىـ عـلـيـهـاـ بـهـذـاـ الـعـجـزـ الـمـهـيـنـ؟ـ وـيـتـعـجـبـ فـضـيـلـتـهـ مـنـ يـزـعـمـونـ الـإـيمـانـ وـالـجـهـادـ قـائـلـاـ :ـ إـنـ اللـهـ لـاـ يـقـبـلـ تـدـيـنـاـ يـشـينـهـ هـذـاـ الشـلـلـ الـمـسـتـغـرـبـ .ـ مـشـيـرـاـ إـلـىـ أـنـنـاـ نـعـانـىـ مـنـ الـطـفـولـةـ التـىـ تـجـعـلـ غـيـرـنـاـ يـطـعـمـنـاـ وـيـداـوـيـنـاـ وـيـمـدـنـاـ بـالـسـلاحـ إـذـاـ شـاءـ .ـ وـيـنـصـحـ الشـبـابـ الـذـيـنـ يـظـنـوـنـ أـنـ التـقوـىـ هـىـ بـذـلـ وـقـتـ أـكـبـرـ فـىـ الـقـرـاءـتـ الـدـيـنـيـةـ وـالـأـخـذـ بـقـدـرـ يـسـيرـ مـنـ شـئـونـ الـدـنـيـاـ وـعـلـومـ الـحـيـاـةـ فـيـقـولـ :ـ «ـالـإـسـلـامـ لـاـ يـكـسـبـ خـيـرـاـ مـنـ هـذـاـ مـسـلـكـ وـلـاـ تـتـصـرـ عـقـائـدـهـ إـذـاـ كـانـ أـهـلـهـ فـىـ بـلـاهـ الـهـنـودـ الـحـمـرـ وـكـانـ أـعـدـاؤـهـ يـمـلـكـونـ مـكـوـكـ الـفـضـاءـ»ـ .ـ

وـيـقـولـ لـلـشـبـابـ :ـ اـمـلـكـوـ نـاصـيـةـ الـحـيـاـةـ بـعـلـمـ وـاـقـتـدارـ لـتـقـدـرـوـاـ عـلـىـ نـصـرـةـ الـحـقـ الـذـيـ نـعـتـنـقـ ،ـ أـمـاـ قـبـلـ ذـلـكـ فـهـيـهـاـ .ـ

(١) الـحـدـيدـ :ـ ٢٥ـ .ـ

نرفض الشذوذ والإباحية

الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالى لا ينكر بعض المكاسب التى تحققـت لل المسلمين من وراء انعقـاد هذا المؤتمـر بالقاهرة ، لكنـه يرفضـ أن تفرضـ الدولـ الغربية أفـكارـها ومـبادئـها بما فيها من شذوذـ وإباحـة على المسلمين ، ويقولـ : إنـ أورـوبا رأـت أنـ الأمةـ الإسلاميةـ لـاتزالـ مـتمسـكةـ بـالأخـلاقـ الـإسلامـيـةـ فـقرـرتـ ضـربـهاـ عـنـ طـريقـ إـلـزـامـهاـ بـقوـانـينـ وـقـرـاراتـ تـتنـافـىـ مـعـ قـيمـهاـ وـلـاتـتفـقـ مـعـ عـادـاتـهاـ وـتـقـالـيدـهاـ إـسـلامـيـةـ الـمـورـوثـةـ .

ويوضحـ الشـيخـ الغـزالـىـ أنـ هـجـومـ الـعـلـمـاءـ عـلـىـ المؤـتمـرـ قـبـلـ انـعقـادـهـ لمـ يـأتـ مـنـ فـرـاغـ وـلـمـ يـكـنـ الـهـجـومـ مـجـرـدـ إـبـرـازـ الـعـضـلـاتـ أوـ تعـطـيلـ عـمـلـ جـيدـ لـمـصـرـ وـلـلـمـسـلـمـيـنـ ، وـلـكـنـ كـانـ نـتـيـجـةـ طـبـيعـيـةـ لـماـ تـضـمـنـهـ الـوـثـيقـةـ التـىـ كـانـتـ سـتـمـرـ وـسـيـتـمـ التـصـدـيقـ عـلـىـهـاـ ، لـوـلـاـ رـأـىـ الـعـلـمـاءـ وـحـمـلـتـهـمـ ..ـ فـالـمـشـرـوعـ المـقـترـحـ مـنـ أـخـطـرـ مـاعـرـضـ عـلـىـ الـعـالـمـ إـسـلامـيـ بـلـ هـوـ حـلـقـةـ خـطـيرـةـ ضـدـ الـأـدـيـانـ كـلـهـاـ لـأـنـهـ يـتـجـاهـلـ بـوـقـاحـةـ قـيمـ الـدـيـنـ ..ـ وـيـقـولـ : لـقـدـ قـرـأتـ مـشـرـوعـ الـوـثـيقـةـ وـضـاقـتـ نـفـسـيـ وـشـعـرـتـ بـأـنـهـ حـلـقـةـ فـىـ سـلـسلـةـ طـوـيـلـةـ وـحـقـيرـةـ لـضـربـ الـإـسـلامـ ..ـ وـلـكـنـ أـثـبـتـتـ الـمـنـاقـشـاتـ فـىـ الـمـؤـتمـرـ أـنـ الـأـمـةـ إـسـلامـيـةـ لـنـ تـمـوتـ وـسـتـظـلـ تـدـافـعـ عـنـ مـبـادـئـهـاـ وـشـرـائـعـهـاـ رـغـمـ مـحاـواـلـاتـ التـموـيـلـ الـشـفـافـيـ وـالـأـخـلـاقـيـ وـالـخـضـارـيـ الـتـىـ تـتـعـرـضـ لـهـاـ الـأـمـةـ .

وـأـشـارـ الشـيخـ الغـزالـىـ إـلـىـ أـنـ الـمـشـكـلـةـ أـنـ الـمـسـلـمـيـنـ الـآنـ فـقـدـوـاـ الشـقـةـ فـىـ الـمـنظـمـاتـ الـدـولـيـةـ وـعـلـىـ رـأـسـهـاـ الـأـمـةـ الـمـتـحـدـةـ بـعـدـ مـوـاـقـفـهـاـ السـلـبـيـةـ بـلـ وـالـمـخـزـيـةـ مـنـ قـضـاـيـاـ وـمـشـكـلـاتـ الـمـسـلـمـيـنـ فـىـ الـعـالـمـ ، وـلـذـلـكـ فـهـمـ يـتـخـوـفـونـ مـنـ كـلـ تـصـرـفـاتـ الـأـمـةـ الـمـتـحـدـةـ ..ـ وـنـحـنـ لـاـنـنـكـرـ أـنـ الـأـمـةـ الـمـتـحـدـةـ تـسـتـشـعـرـ خـطـرـ زـيـادـةـ السـكـانـ الـمـسـلـمـيـنـ فـىـ الـعـالـمـ بـعـدـ أـنـ أـصـبـحـوـاـ يـمـثـلـونـ خـمـسـ سـكـانـ الـعـالـمـ ، وـلـذـلـكـ تـحـاـولـ دـوـلـ الـغـربـ تـطـوـيـقـ هـذـهـ الـزـيـادـةـ فـىـ الـقـرـنـ الـقـادـمـ .

وبـصـوـتـ مـلـىـءـ بـالـحـزـنـ وـالـأـسـىـ يـقـولـ الشـيخـ الغـزالـىـ :ـ إـنـ هـنـاكـ جـهـودـاـ شـيـطـانـيـةـ لـإـبـقاءـ أـمـتـنـاـ أـمـةـ فـقـيرـةـ ..ـ وـلـاـ يـخـفـىـ عـلـىـ أـحـدـ مـنـ الـخـلـصـيـنـ أـنـ الـغـربـ هـمـ صـنـاعـ فـقـرـ الـأـمـةـ حـيـثـ اـسـتـطـاعـوـاـ بـتـفـكـيرـ جـهـنـمـيـ غـرـيبـ أـنـ يـقـنـعـونـاـ بـأـنـ خـيـرـاتـ وـمـوـارـدـ الـعـالـمـ تـقـلـ مـعـ زـيـادـةـ النـسـلـ ..ـ لـذـلـكـ يـلـزـمـ ضـرـورـةـ الـحـدـ مـنـ النـسـلـ بـأـيـ وـسـيـلـةـ مـنـ الـوـسـائـلـ دـوـنـ الرـجـوـعـ

في ذلك إلى دين أو عقيدة . وهذه أفكار لا أساس لها من الصحة ، ولا يقبلها دين أو عقل سليم ، فهو لاء ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُم ﴾ ونسوا قول الله تعالى : ﴿ .. وَقَدْرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴾⁽¹⁾ فالله سبحانه وتعالى قادر لكل مخلوق قوته ورزقه إلى يوم القيمة .. وجاء في الحديث القدسى مامعنـاه : « .. لو أن أولكم وأخركم وإنـكم وجنـكم سـأـلونـى فـى وقتـ وـأـعـطـيـتـ كـلـاـ منـهـمـ مـسـأـلـتـهـ مـاـنـقـصـ ذـلـكـ مـنـ مـلـكـ شـيـئـاـ » .. وقال سبحانه في كتابه العزيز : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ .. ﴾ .. ولكن للأسف انساقت الأمة وراء ضلالات الحضارة المادية الحديثة التي تترعـمـها دولـ الغـربـ .

فـقـرـأـخـلـاقـ

وأكـدـ الشـيـخـ الغـزالـىـ أـنـ الـأـمـةـ الـإـسـلـامـيـةـ لـاتـعـانـىـ الـفـقـرـ كـمـ يـدـعـىـ أـعـدـأـهـاـ ،ـ إـنـماـ فـقـرـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ فـقـرـ أـخـلـاقـ لـاـ فـقـرـ أـرـزـاقـ وـمـوـارـدـ ،ـ فـالـأـمـةـ تـعـانـىـ فـقـرـاـ فـىـ أـخـلـاقـهـاـ وـمـوـاهـبـهـاـ وـعـقـائـدـهـاـ ،ـ وـالـسـبـبـ فـىـ ذـلـكـ سـوـءـ التـرـبـيـةـ فـيـهـاـ وـبـعـدـهـاـ عـنـ خـالـقـهـاـ وـرـازـقـهـاـ ،ـ وـلـذـلـكـ لـاـ أـمـلـ فـىـ أـىـ إـصـلـاحـ إـلـاـ بـالـعـودـةـ الـحـقـيقـيـةـ لـإـسـلامـ .

* * *

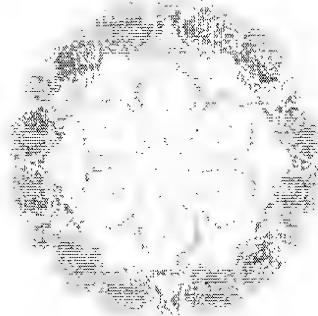
(1) فصلـتـ : ١٠ .

الإسلام دين ودولة

الإسلام دين ودولة ، ولا يمكن البتة جعله علاقة فردية خاصة ، والدولة في ديننا تخدم على سواء أمرین مهمین : الرسالة التي تمثلها ، والأمة التي تحملها ، وهى خدمة منزهة عن الأثرة والاستعلاء تساندها شورى صحيحة لامزورة ، وضمائر حقوق الإنسان تحميء من كل ضروب الظلم ، والولاء للإسلام لا للجنس ! والأخوة الإسلامية هي الرباط الأول وإن تباعدت الأمكنة والأزمنة . ولغير المسلمين جميع الحقوق التي للمسلمين وعليهم جميع الواجبات ماداموا في ذمتنا . وفي الخلافة الرشيدة نموذج للحكم الإسلامي النزيه . ويمكن التوسع في التطبيق ، وابتداع الوسائل التي تحقق المقررات الإسلامية ! وليس الحكم الديني عندنا تنفيساً عن شهوات فرد ، ولا ستاراً للاستبداد المطلق ، بل أساسه بيعة حرة ، وشورى ملزمة ، ومثل دينية واضحة . وليس الدولة خدمة الفرد أو الفرد في خدمة الدولة ، بل الكل لإعلاء كلمة الله ، وتنفيذ وصاياته بين الناس ، وهي وصاياتا تصون الدماء والأموال والأعراض ، وتحقق الخير والمعروف وتأمر بهما .. وقد ألفت كتب كثيرة عن نظام الحكم في الإسلام ، عن حقوق الإنسان وعن الخلافة والشورى ، وأرى في كتاب «الشورى» للدكتور عبدالحميد الأنصاري ما يؤكد المعانى التي أؤمنا إليها أنفًا .

والشخصيات الأدبية والمادية لأمتنا تتعرض من قرون طوال لحرب شعواء ، وظاهر أن استئصال الإسلام وأمته هدف حقيق ملل شتى ! فإذا لم يتيسر الإفشاء الحسى ، فلتقم حرب المفتريات بتشويه معالمه وتنفير العالمين منه .. وهذا الموقف يفرض علينا جهداً مضاعفاً للحفاظ على أنفسنا وتاريخنا وقوماتنا كلها ، ولا يسوع أن تكون عوناً لعدونا في إهالة التراب على حقائقنا وأثارنا ، ويتقاضانا ذلك إعادة النظر في تاريخنا العلمي والحضاري والسياسي ، وجعل دراسته ركنا ثقافياً لا نافلة عارضة . هناك مؤلفات عربية للعقاد ، وكرد على ، ومحمد منتصر ، وعادل مظهر ، تحدثت عن الحضارة الإسلامية بإفاضة . ينبغي أن تدرس بعناية

فى جامعاتنا كلها . . وهناك إخفاء لا أدرى عن غباء أو تعمد لدور الصليبية العالمية فى مهاجمتنا على امتداد تاريخنا كله بدءاً من مؤتة وتبوك ، إلى أن انهارت الخلافة التركية فى القرن الرابع عشر إلى الآن ، لماذا لا تبرز هذه العداوات فى أثناء تدريس التاريخ؟ ولحساب من يتم إخفاؤها؟ وصاحب الغزو العسكرى الحديث نشاط تبشيرى واستشرافى هائل ، ما يجوز إهماله ولا الغض من خطره ، وقد ألف عمر فروخ وغيره كتاباً قيمة فى هذا المجال يجب توزيعها على نطاق واسع حتى نحصل على الثغرات الكثيرة فى هذا المجال التى تسلل منها الغزو الثقافى .



إصلاح النفس البشرية

في تدبرى للقرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة رأيت الإسلام يبني الشخصية الإنسانية على سلامـة الفطرة وأصالة الفكر ، فمن فسدت فطرته وغامت فكرته هبطت عبادته ، فما تساوى عند الله شيئاً ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَاب﴾^(١) . وعلى هذا الأساس يقوم الإصلاح الحقيقى للنفس البشرية .

أنا لا أنتـمـى إلى فرقـةـ من الفرقـ ولا أتعصبـ لمذهبـ من المذاهـبـ ، وإنـماـ أنـظـرـ بـأـدـبـ وـتوـاضـعـ إـلـىـ المـذاـهـبـ إـلـاسـلـامـيـةـ كـلـهـاـ ، مـدارـسـ المـفـسـرـيـنـ وـالـمـحـدـثـيـنـ وـالـفـقـهـاءـ وـالـأـصـوـلـيـنـ وـالـفـلـاسـفـةـ وـالـمـتـكـلـمـيـنـ وـالـمـتـصـوـفـةـ .. وـأـبـحـثـ عـنـ الـحـقـ بـتـجـرـدـ .

وفي مجال إصلاح النفس انتـفـعتـ بـرـجـلـيـنـ مـخـتـلـفـةـ ، أـولـهـمـاـ ابنـ قـيمـ الجـوزـيـةـ ، وـالـآخـرـ ابنـ عـطـاءـ اللـهـ السـكـنـدـرـيـ ، وـمـاـ أـلـزـمـ أـحـدـاـ بـرـأـيـيـ ، فـإـنـ الـجـامـعـ الـأـوـلـ وـالـأـخـيـرـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ أـجـمـعـيـنـ هـوـ كـتـابـ اللـهـ تـعـالـىـ .. ثـمـ منـ اسـتـبـطـنـ هـذـاـ الـقـرـآنـ خـلـقـاـ لـهـ ، وـبـلـغـ الـأـوـجـ فـىـ هـدـيـةـ النـاسـ بـهـ وـتـرـبـيـتـهـ بـحـكـمـتـهـ .. المـثـلـ الـكـامـلـ لـسـائـرـ الـبـشـرـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ صلـوةـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـامـ وـبـرـكـاتـهـ عـلـىـهـ .

وعـصـرـنـاـ الـحـاضـرـ أـحـوجـ الـعـصـورـ إـلـىـ الـحـكـمـةـ الـقـرـآنـيـةـ وـالـسـيـرـةـ النـبـوـيـةـ فـىـ التـهـذـيبـ وـجـهـادـ الـنـفـسـ وـالـهـجـرـةـ إـلـىـ اللـهـ مـنـ عـائـمـ الشـهـوـاتـ الـجـلـيـةـ وـالـخـفـيـةـ .

أـلـاـ فـلـنـعـلـمـ أـنـ عـمـىـ عـنـ وـجـهـ اللـهـ ، وـاستـيقـظـ مـنـ نـومـهـ ليـتـحـركـ حـولـ نـفـسـهـ وـأـهـوـائـهـ لـيـسـ لـلـآخـرـةـ فـىـ وـعـيـهـ حـسـابـ فـهـوـ هـالـكـ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾^(٢) أـوـلـئـكـ مـأـوـاهـمـ النـارـ بـمـاـ كـانـوـاـ يـكـسـبـوـنـ ﴿^(٢)﴾ .

وـذـكـرـ اللـهـ أـكـبـرـ مـنـ أـنـ يـكـونـ حـرـكـةـ شـفـتـيـنـ ، إـنـهـ يـقـظـةـ قـلـبـ وـرـؤـيـةـ آيـاتـ ، وـنـصـحـ خـالـصـ وـهـضـمـ لـلـنـفـسـ وـاعـظـامـ لـلـهـ وـحـدـهـ .

(٢) يـونـسـ : ٧ - ٨ .

(١) الـبـقـرةـ : ٢٦٩ .

إن الإسلام يتشعب شعبيتين : إحداهما تس القلب لتنشئ فيه مشاعر الرغبة والرهبة ، والصبر والشكر ، والتوكل والحب ، إلى آخر ما أفضى المتصوفة في شرحة ، وامتلأت كتبهم به ، وفي طليعتها كتابات ابن عطاء الله وابن القبم وغيرهما من السابقين واللاحقين .

والشعبة الأخرى تتصل بالعقل لتغرس فيه عقائد وأحكاماً شتى ، وقد غصت كتب الفقهاء والمتكلمين بهذا النوع من المعرف المهمة .. وماتغنى شعبية عن أخرى .

بيد أنني لاحظت أن العوام لهم اهتمامات مثيرة ، فهم يكترون لوضع اليد في الصلاة ، أو تكون تحت العنق أم فوق الصدر أم على السرة ! أكثر ما يكترون لفرضية الخشوع ، أو لضرورة تدبر ما يتلى من القرآن .

إن المراسيم الظاهرة تعنيهم ، وقد يتطاولون على الأئمة لاختلافهم في هذه الهيئات وهذا داء قديم حاول ابن تيمية علاجه في كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» كما حاول أبو حامد الغزالى ذلك في كتابه : «فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة» .

إن التدين الصورى وراءه إمداد دافق من القصور العقلى والغرور الأعمى ، وقد يدفع إلى ارتكاب رذائل منكرة .

إنصاف الإسلام للمرأة

في عصرنا الحديث افتن الذين يتبعون الشهوات في عرض مفاتن النساء وإقحامهن في كل ميدان ، دوغا حاجة إلى هذا الإقحام .

عند عرض راديو جديد قالوا : صوته صوت سيدة! وعند عرض شراب بارد ، جاءوا بأمرأة تضع عنق الزجاجة في فمها! وعند عرض ثوب للعمل أو للراحة جاءوا بأمرأة ترتديه في أوضاع شتى ، وعندما شاءوا خدمة ركاب الطائرات جاءوا بفتاة تحسن التلطف في تقديم الطعام ، وعندما أرادوا مزيداً من الإقبال على شراء السلع جاءوا بأمرأة تجلس إلى الخزينة وتقبض النقود ، وعندما يريد مدير عظيم أن يبرز سطوه وأناقته يجئ بأمرأة تكون (سكرتيرة) لمكتبه ... الخ .

وقال لي بعض من يعرفون أوروبا : إن هناك دوراً للبغاء توضع النساء فيها وراء زجاج (الفتارين) ، لكنى تنظر الذئاب الجائعة ، ثم تختار ما يعجبها .

وقد قلت يوماً : إننى لا أظن البشرية عرفت عصرًا أمكن فيه السطو على المرأة ، واستباحتها ظاهراً وباطناً ، كهذا العصر الذى نحيا فيه! فهل هذا هو تحرير المرأة؟؟؟ إن المسافة شاسعة بين ابتدال المرأة كما يريد البعض ، وبين ضمان حقوقها الإنسانية التى كفلها الوحى ، وضمن بها البعض .

إن ما يقع الآن في الغرب - ونقلده في الشرق - هو فيضان مشاعر مسحورة وأهواء جامحة ، ت يريد تطويق المرأة لمبادل سيئة ، وليس من وراء هذا احترام لدين أو رغبة في إنصاف النساء ، وصون إنسانيتهن ..

والذى يدعوا إلى الأسى أن البعض عندنا لا يفهم من تحرير المرأة إلا هذه الصورة التي تنكرها ولعن أصحابها ، وقد تكون رد فعل لحبسها الطويل في الظلام ، وعجزها عن الأخذ لنفسها ، وقدرة بعض الرجال الأشرار على دفعها إلى الهاوية ، وفي هذا يقول الأستاذ أنيس منصور : (ما زالت المرأة تكشف عن مفاتنها ، وتتعري ، حتى بلغت أقصى درجات الفساد والانحلال .. وإذا تعرت المرأة فلأن الرجل أراد ، وإذا انحرفت فلأن الرجل دفعها إلى ذلك ، ولا بد أن الرجل قد تردى إلى ما هو أحط وأحقر حتى بلغ هذا الدرك الأسفل) .

إن الإسلام نسق آخر في الفكر والسلوك بعيد عن هذا الشطط ، أساسه أن النساء شقائق الرجال ، وأن بينهن وبين الرجال حقوقاً متبادلة ، وكرامات متساوية ، قال تعالى : ﴿... لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(١) .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحِسِّنَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُجَزِّئُنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) .

وعلى هذا الأساس طار المجتمع الإنساني إلى أهدافه العليا بجناحين من الذكورة والأنوثة ، ووسع المسجد الجنسيين معاً يطلبان العبادة والمعرفة .

المصيبة أن البعض الآخر دون مستوى الفهم لطبيعة المجتمع الإنساني ، ولوظيفة المجتمع الإسلامي ، وقد رفع عقيرته في الأيام الأخيرة من يقول : لا عمل للمرأة إلا أن تضع الأولاد .

وعندما تكون المرأة بقرة لإنجاب فقط فلا بد أن يكون رجلها ثوراً ، ولا بد أن تحدر الأمة كلها إلى أن تكون حديقة حيوانات ..

هل الإسلام يقدم رسالته إلى العالمين بمجتمع من هذا النوع الهاابط؟ إننا نرفض المجتمع النحل ونرفض كذلك المجتمع المختل ، نرفض أن تكون المرأة دابة للنسل ، وتنتهي رسالتها في الدنيا إلى هذه الغاية .

المرأة تتعلم وتجاهد ، ولها الحق في أن تدرس ، وتطبب وتقوم بأعمال شتى تناسب بداعها مع طبيعتها الأنوثية ، وعملها الأول والأهم هو أن تكون ربة بيت وحاضنة أسرة . وهذا العمل يتطلب ثروة من الأدب والعلم لا حصر لها ، وإلا فإن المرأة لن تنشئ إلا ذرية أسوأ .

(٢) النحل : ٩٧ .

(١) آل عمران : ١٩٥ .

للفضائل دعائم اقتصادية

أجدني بحاجة إلى أن أؤكد مرة أخرى قيمة الفطرة الإنسانية ، ومبعد الكمال الذي تستطيع معنوياتها أن تصل إليه ، مهما أحاطت بالعوامل المضادة لها .

فقد تحفظ الجذوة بحرارتها واحتلالها أمدًا طويلاً بين أكواخ التراب البارد!! وقد تنموا في جوف الصحراء ، أشجار تخزن في أوراقها الماء والخضراء والرطوبة !

وإقرار هذه الحقائق لا ينكر حقائق أخرى ، تعلن أن الفضائل الإنسانية والقومية تفتقر في نوها إلى موارد دافقة ، من أمواج الحياة الغنية الكريمة العزيزة ، وأن هذه الفضائل قد تذوي وتنتهي إذا لم تجد هذه الأمداد المتتابعة التي تمدها بالغذاء والنمو .

وما هو جدير بالذكر أن النبي صلوات الله عليه وسلم كان يستعيد بالله كثيراً من الديون وشروطها ، وقد سمع ذلك منه مراراً حتى سُئل في ذلك فأجاب بأن المدين قد تلجهه قلة الوفاء إلى الكذب .

فإذا كانت بعض أحوال الدنيا توحى بالكذب والبخل ، فبعضها الآخر يوحى بالصدق والكرم – لا مراء – ونريد نحن أن ننظر إلى بيئتنا لنرى ، أو توحى بالفضائل وتنشئ النفوس عليها ، أم أنها إيحاء آخر؟؟

وفقدان العدالة الاجتماعية في أنحاء العالم الإسلامي جعل الناس يخرجون من ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة ، لا عمل لهم إلا ما توارثوه من بذر الحب وانتظار الشمار من رب كما يقولون .

فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم ، لم يجعل الفقر لهم من دونها ستراً بل طلعت على قوم لا يكادون يفقهون قوله .

وكان لزاماً - في هذه الحياة الراكدة الجامدة - أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلٍ هبط بقواهم الأدبية ، هبوطٍ بقواهم المادية . ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان كجسمه ، يحتاج إلى غذاء دسم منظم ، لكنه يستمر ثماً ويتهم كماله ، ذلك أنه - كثيراً - مانجد الرجل في سن الخمسين ، وعقله دون هذه السن بكثير ، فنجد له تفكير الأطفال ، وقصور فهمهم لشئون الحياة العامة .

السر في ذلك بَيْنَ . ففِي حِينَ وَجَدَ هَذَا الرَّجُلُ حَاجَاتَهُ الضروريَّةَ لِجَسْمِهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ ، فَقَدْ حَاجَاتَهُ الضروريَّةُ لِعَقْلِهِ ، مِنْ عِلْمٍ وَ ثَقَافَاتٍ وَأَدَابٍ .

وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْدُنُ الْعُقْلِيُّ لِهَذَا الرَّجُلِ نَفِيسًا ، وَلَكِنَّهُ كَالْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ التَّرْبَةِ ، لَمْ تَجِدْ مَاءً وَلَا بَذْرًا فَلَمْ تَجِدْ فِيهَا حَيَاةً وَلَا ازدهارًا .

وَمِنَ الْمُحْزَنِ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى كَثِيرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا ، فَنَرَاهُمْ قَدْ أَصَبَبُوا بِهِذَا الشَّللِ الْعُقْلِيِّ ، وَالْعَقْمِ الْفَكْرِيِّ ، وَالْهُوَانِ الْأَلِيمِ فِي إِنْسَانِيَّتِهِمْ ، لَأَنَّهُمْ حَرَمُوا فِي طَفُولَتِهِمْ ، وَفِي رَجُولَتِهِمْ هَذَا الْغَذَاءُ الْعُقْلِيُّ ، الَّذِي لَابِدُ مِنْهُ .

وَالنَّقْصُ الْأَدْبَرِيُّ لَا يَحْسُسُ بِهِ صَاحِبُهُ إِحْسَاسِهِ بِالنَّقْصِ الْمَادِيِّ .

بَلْ رِبَّا أَحْاطَتْ بِهِ أَحْوَالٌ تُشَعِّرُهُ بِالْكَمَالِ وَالْعَظَمَةِ ، وَتَهُونُ فِي نَاظِرِيَّهِ القيِّمِ الْمَعْنَوِيَّةِ .

وَلَوْ أَنْ كُلُّ مَحْرُومٍ مِنْ وَسَائِلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْفَضْلِيَّةِ ، يَتَأَلَّمُ لِذَلِكَ ، أَلَمْ الْجَوْعَانُ لِفَقْدَانِ مَا يَرْحَمُ مَعْدَتَهُ مِنْ وَقْدَ ، لَا سُرُّاحُ النَّاسِ وَاسْتِرْحَانُهُ مِنْ لَوَثَاتِ الْأَغْبَيَاءِ وَالْأَدْعَيَاءِ !! لَكِنَّ الْمَجَمِعَ الْعَامَ - بِعَكْسِ الْفَرْدِ - شَدِيدُ التَّأْثِيرِ وَالْإِحْسَاسِ بِمَدِي الْكَمَالِ الْمَعْنَوِيِّ لِمَنْ يَنْتَمِيُ إِلَيْهِ وَيَعِيشُونَ فِيهِ .

فَمِنَ النَّاحِيَةِ الديِّنِيَّةِ ، يَحْتَاجُ الإِيمَانُ إِلَى الْكَمَالِ الْعُقْلِيِّ . وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿وَأَتَقُونُ يَا أُولَئِي الْأَلْبَابِ﴾⁽¹⁾ .

وَمِنَ النَّاحِيَةِ الديِّنِيَّةِ ، تَقْلُلُ الْفَوَارِقُ كَثِيرًا بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالْحَيْوانِ ، كُلُّمَا قَلَ عَقْلُهُ ، فَيَهُبِطُ السُّلُوكُ الْإِنْسَانِيُّ إِلَى الْخُضِيُّضِ بِهُبوطِ التَّفْكِيرِ .

وَنَحْنُ أَمَّةٌ أَحَوجُ مَا تَكُونُ إِلَى الْعِلْمِ الْوَاسِعِ ، لِتَنْتَفِعَ بِهِ فِي دِينِهَا وَدُنْيَاها . وَكَيْفَ الْطَّرِيقُ إِلَى ذَلِكَ إِذَا لَمْ تَتَلاشُ فوارقُ الطَّبَقَاتِ ، وَلَمْ يَتَلاشُ مَعَهَا التَّظَالُمُ الْاجْتِمَاعِيُّ . ثُمَّ يَبْنِي الْمَجَمِعُ عَلَى أَسْسٍ مِنْ احْتِرَامِ الإِنْسَانِ ، وَتَقرِيرِ حَقُوقِهِ . وَتَنْمِيَةُ مُلْكَاتِهِ وَتَدْعِيمُ فَضَائِلِهِ؟ .

ذَلِكَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ .

أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الْقَوْمِيَّةِ ، فَإِنَّ فَضَائِلَ الشَّعُوبِ الْحَيَّةِ يَنْقُصُنَا - مَعَ الْأَسْفِ - الْكَثِيرَ مِنْهَا .

(1) البقرة: ١٩٧ .

إذ لابد للشعب الحر من توافر الحمية والأنفة والشجاعة والتضحيّة ، فأنى ذلك؟ وللأمّيّة الغالبة على بلادنا أثر بالغ السوء في تبدل المشاعر وضعف الفهم لقضايا الوطن ، وقلة الحماسة العامة لها . وعدم انعقاد الإجماع على نصرتها ورواج النفاق السياسي بين المحترفين القدامى من الساسة والشيوخ ، الذين تصدروا الصحف - لأن الغاصبين أرادوا لهم أن يتقدموها ، وبين الهواة الجدد من أغرتهم المنافع ، وظنوا أن في الاستغلال بالسياسة كسباً لأشخاصهم ، وليس واجباً يفرضه عليهم هذا الوطن المغلوب على أمره!

ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة ، لمن يرقبون أطوار اليقظة القومية في بلادنا . فقد دلت على أن هناك بقايا كثيرة من التخدير الذي أمات الإحساس الصحيح في جسم الأمة ، فهى تحاول النهوّض ، فيطاوّعها بعض أطرافها ، ويستعصي البعض الآخر!! .

وهي تنظر بعين فيها بوادر الغضب ، وفيها فتور النوم ! وهي تفتح فمهما فلا تدرى : ألتقول الكلمة الفاصلة؟ أم لتشاءب ، أم لتخلط بين الأمرين! .

ذلك كلّه .. لأنّ الوعي الاجتماعي ضعيف عندنا ، والفضائل القومية - تبعاً لذلك - فاترة مريضة .

ولكيما تقوى وتتصبح ، يجب أن نبحث لها عن الدواء ، ولن نعرف الدواء إلا إذا عرفنا أن للفضائل العامة والخاصة دعائم اقتصادية ، يجب تعريفها وتقريبها .

سورة النور ودورها في بناء الأسرة المسلمة

سورة النور .. سورة تميزت بالحفظ الشديد على كرامة الأسرة ، وقيمة العرض ودعمت جانب الشرف ، وفضلت ماينبغى أن يلزم المجتمع كى يحافظ على حرمات الله وحقوق الناس ، ورسمت للتقاليد الجنسية والاجتماعية صوراً دقيقة ألمت المؤمنين بها ووقفتهم عند حدود الله فيها ..

ومع أن سور القرآن كلها منزلة من عند الله ، ومعروف أنها سور إلا أن هذه السورة وحدها دون سور القرآن كلها تميزت بهذا البدء : ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) . والسبب فى ذلك : أن السورة تدور حول مشكلات الغريزة الجنسية وهى من أعنى الغرائز وأقواها ولما كان ضبط هذه الغريزة فى مسارها وانطلاقها لابد منه لضمان نفس شريفة ، وخلق مستقيم ، وعفة شاملة مستوعبة ، ومجتمع نقى طهور فإذا السورة بدأت هكذا ... ولا بد أن نعلم أبتداء أن الإسلام دين الفطرة – أى دين الطبيعة السوية المستقيمة .. يرفض التكلف والافتعال .. ومائنzel الله من تعاليم فى هذا الدين القيم هو لضبط الفطرة وضمان أن تسير سيرًا حسناً .. لهذا كان للغريزة الجنسية تعاليم واضحة فى هذا الدين .. وكان لأنحرافاتها عقوبات محددة فى هذا الدين .

الغريزة والزواج

وسورة النور تتحدث عن احترام الغريزة وضبطها حتى لا تنحرف يمنة أو يسراً ، ثم التخويف لمن يدع حدود الله أو يترك العقوبات التى قررت تقريراً حاسماً فى هذه السورة المباركة .. القرآن الكريم لم يعتبر الغريزة الجنسية رجساً من عمل الشيطان .. اعترف بها وجعل المتنفس الوحيد لها الزواج : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(٢) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاهَ فَاعْلُوْنَ﴾^(٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُوْنَ﴾^(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلَوَّمِينَ﴾^(٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُوْنَ﴾^(٢) واعتبر الزواج عبادة بل جاء فى السنة أنه نصف الدين :

(٢) المؤمنون : ٣ - ٧ .

(١) النور : ١ .

«إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف دينه فليتق الله في النصف الباقي»^(١) إذاً الزواج فريضة اجتماعية لابد أن تتوافق الأمة الإسلامية بتيسيرها .. لكن ذلك متربوك للوعى العام وللضمير المؤمن .. وقد جاءت آيات في هذه السورة تتحدث إلى أولياء الفتيات ، وجاءت أيضاً تتحدث إلى من يريد الزواج أو من يقدر عليه ويطلبها .. في الآيات الأولى نقرأ قوله تعالى : ﴿وَأَنْكِحُوهَا أَيَامًا مِّنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَعْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾^(٢) ويشرح النبي ﷺ هذا التوجيه فيقول : «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٣) ووكل ذلك - بداعه - إلى تقدير ولى الفتاة وإلى تصور الأسرة للنفقة وما يتصل بها .. الواقع أن هذا التقدير لا يمكن أن يبيت فيه قانون ، إنما الذي يبيت فيه مجتمع مؤمن ، والذي يبيت فيه رجال يتقوون الله ويريدون أن يشعروا العفة والقناعة في المجتمع .. وإلى أن يتزوج طالب الزواج ، وإلى أن يستكمل دينه ماذا يصنع؟ يقول الله : ﴿وَلَيَسْتَعْفِفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغَيِّبُوهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤) فلا بد أن يستعفف .. وعبارة الاستعفاف تعنى أن المرء يتكلف أو يعاني أو يتعب نفسه ، ولا بد من ذلك فى كبح الهوى وضبط الغريزة .. فإن الغريزة العاتية تحتاج إلى إرادة حديدية .. وهنا نجد أن الإسلام حارب الانحراف والجنس بمحاربة بوادره الأولى أو المقدمات التى تُغرى به .. وكان فى هذا ديناً عملياً ..

لا لاقتحام البيوت

في هذه السورة نقرأ قوله تعالى وهو يمنع الانحراف الجنسي : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَسِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٥) وكما قال أحد السلف إذا سمعت الآية تقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأعيرها سمعك فإذا خير تؤمر به أو شر تُنهى عنه .. هذا النداء يستثير الإيمان ..

(١) رواه البهقى في شعب الإيمان عن أنس بن مالك واسناده حسن كما في صحيح الجامع للألبانى ١٣٦/١ .

(٢) النور : ٣٢ .

(٣) رواه الترمذى في النكاح . باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه . وقال : حسن غريب .. تحفة الأحوذى ٢٠٥/٤ وابن ماجة ٦٣٣/١ والحاكم ١٦٥/٢ .

(٤) النور : ٢٧ .

(٥) النور : ٣٣ .

لماذا؟ لأن الإيمان هو الذي يخلق الضمير اليقطان الحى الذى يجعل الإنسان إذا قرع بيته ولم يجد الرجل فيه يرجع من حيث جاء .. لا يجوز بتةً اقتحام بيت ليس فيه صاحبه .. لا يجوز ديناً ولا مروءة اقتحام البيت وفيه امرأة وحدها فإن البيت حصنها، وينبغي أن تبقى في هذا الحصن مصونة .. والإسلام يرفض كل تقليد اجتماعي يتواضع الناس عليه لجعل الخلوة بالمرأة ممكنة .. يرفض الإسلام هذا لأنه بذلك - فعلاً - يسد أبواب الفتنة .

غض البصر

ثم توجيه آخر لابد منه وهو : غض البصر .. فإن الإنسان إذا أرسل عينه تتلخص على الأعراض من هنا أو من هنا فإنه يفتح أبواب الشر على نفسه .. وقد قال شاعر قديماً :

والماء مادام ذاعين يقلبها
في أعين الغيد^(١) موقوف على الخطر
يسرا مقتله ما ضرمه جنته
لام رحبا بسرور عاد بالضرر

إن فتح باب الفتنة يكون بالعين المحملقة والبصر الطامح .. والإيمان أساس - هنا - في كبح الهوى لأنه من الذي يعلم خائفة الأعين؟ من الذي يعرف كيف ترسل بصرك وما النية الكامنة وراء هذه النظرة؟ إن الإيمان هو الأساس الذي لابد أن يُثبت في القلوب ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فَرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٢) .

المثيرات مرفوضة

توجيه ثالث : وهو منع المثيرات الحسية : ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُبْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فَرُوجَهُنَّ وَلَا يُدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنَهَا وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جِيُوبِهِنَّ﴾^(٣) . ومعنى هذا أن جسد المرأة عورة ينبغي أن يُوارى أو أن يُدارى وما عدا الوجه والكففين ينبغي ستره .. فلا يجوز أن تلبس ملابس تصف البدن أو تشف عن

(١) الغيد : النعومة ، وامرأة غيدة وغادة أي ناعمة . (٢) التور : ٣٠ . (٣) التور : ٣١ .

مفاتنه أو تغري العيون الجائعة باستدامة النظر إليه فإن هذا كله فتح لباب الفتنة .. والإسلام عندما يأمر بالعفة وعندما ينهى عن الفحش فهو يسُدُّ الطريق ابتداء أمام المثيرات التي ينزلق بعدها القدم .. لهذا كانت السورة كما قلنا سورة أدب جنسية إلى جانب أنها ضمانات وحصانات للأعراض وللشرف وللقيم .. من ذلك في أول السورة وأخرها الاستئذان .. ففي أول السورة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيوْتًا غَيْرَ بُيوْتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فإن لم تجدها فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم أرجعوا فارجعوا هو أزكي لكم والله بما تعملون عليهم ﴿١﴾ .

آداب منزلية

وفي آخر السورة يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكُتُ أَيْمَانَكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْعُغُوا الْحَلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ مِّنْ قَبْلِ صَلَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ شِيَابِكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمَنْ بَعْدَ صَلَةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عُورَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يَسِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨) وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يسِّن الله لكم آياته والله علِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إن الأولاد في البيت ينبغي أن يعلموا أدب الدخول في الغرف .. هذا المعنى .. معنى أن الأسرة التي تسكن شقة وفيها غرف ينبه على الأطفال في أوقات معينة ألا يدخلوا إلا بعد استئذان واضح .. هذا أدب إسلامي ينبغي أن يعرفه المسلمون وأن يتزموه .. هذا أدب إسلامي لا ينبغي أن نتجاهله أو نزدريه لأنه من ضوابط العرض وصيانت الشرف التي تربى عليها الأسرة الإسلامية .

عقوبات

إذا حدث بعد ذلك أن انحرف أحد فإن العقوبة الإسلامية هي الجلد .. بإجماع المسلمين يجلد الزاني الذي لم يحصل .. أى لم يتزوج .. وجمهور المسلمين على رجم

(١) النور : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) النور : ٥٨ - ٥٩ .

المحصن .. والآية في هذا واضحة : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذُوهُمَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَشَهِدُ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

والجلد عقوبة للإنسان إذا هبط إلى درك الحيوان .. وكما أن الحيوان يُضرب بالعصا حتى ينفذ الأمر الذي صدر إليه لأنه لاعقل له كذلك إذا هبط إنسان عن منزلة العقل والضمير وارتکس في حمأة الشهوة وأصبح منقاداً لغريزته الحيوانية فإنه يتعرض للعقوبة التي يتعرض لها الحيوان .. لأنه أصبح حيواناً إذ يسطو على عرض كان ينبغي أن يصونه .. إذ ينتهك حرمات الله كان ينبغي أن يحفظها وأن يرعاها .

فإذا هبط إلى مستوى الحيوان فهو مستحق لعقوبة الحيوان .. على أن الرجم الذي جاءت به السنة إنما جاء إحياء لشريعة قديمة .. فالإسلام لم يبتدع عقوبة الرجم للزاني أو الزانية إذا كانا محصنين .. إنما هذه الشريعة شريعة التوراة^(٢) ولا تزال برغم ما أصاب كتب اليهود من تحريف .. لا تزال هذه الشريعة موجودة إلى الآن تنص على رجم الزاني والزانية ماداماً محصنين^(٣) ويقول أحد الأدباء تعليلاً طريفاً لهذه الحكم : إن من هدم بيت الزوجية بزناه أو من هدمت بيت الزوجية بزناها ينبغي أن تنتقم أحجار البيوت كلها من جلده ومن بدنه حتى يتعلم كيف يصون البيت !! ولذلك قال القرآن : ﴿وَلَا تَأْخُذُوهُم بِهِمَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(٤).

القذف حرام

والى جانب صيانة الأسرة عن طريق منع العمل الرديء ، فإن الأسر يجب أن تCHAN عن طريق رفض أى اتهام لا يليق من هذا القبيل ، والإسلام فى هذا كان حاسماً ..

٢) النور:

(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقلوا : نفحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد ، فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يجنا على المرأة يقيها الحجارة». أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب قول الله تعالى : «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» . ٤٥١ ومسلم في كتاب الحدود - باب رجم أهل الذمة في الزنى ٥١٢١، ١٢٢ .

(٣) ففي سفر التثنية - إصحاح ٢٢ «إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يُقتل الاثنان». (٤) التور: ٢

فمن قذف إنساناً بالزنا أو قذف أصله أو قذف فرعه الذي يتصل به ويمت إلىه بسبب
 وثيق ، فإنه ينبغي أن يعاقب بالجلد ثمانين جلدة : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ
 يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدًا وَلَا تَقْبِلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَاسِقُونَ﴾^(١) وهذا نوع من التأديب لابد منه ، وقد نفذ هذا العقاب فيمن تطاول على
 مقام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .. فإن بعض الناس تsafeه ووقع في شراك أحد
 المنافقين الذين يكرهون النبي ﷺ ويضيقون بدعاوة الحق التي بعث بها ، وحاولوا في
 حيث وحصة أن ينالوا من مكانة البيت النبوى فأشاروا عن السيدة عائشة رضوان الله
 عليها كلاماً هي منه بريئة وهي فوقه براحته وقد نزلت براءتها من عند ذى العرش جل
 جلاله ، وبين أنها أعظم من أن تلهم بهذا وأكبر من أن يلاك عرضها على هذا النحو ،
 وقيل للمؤمنين في هذا كلام ينبغي أن يعرفوه وأن يحفظوه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ
 عُصَبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بِلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ
 وَالَّذِي تَوَلَّى كَبِيرٌ مِّنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) . ثم يؤدب الناس : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
 ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾^(٣) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
 بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهادء فأولئك عند الله هم الكاذبون^(٤) . حتى لو رأيت
 بعينك وأنت واحد فلا يجوز أن تتكلم لأن الله جل شأنه يريد أن يستر .. يريد أن
 يعطي فرصة للتوبة .. وفي الحديث : «من ستر على مؤمن عورة فإنما أحيا موعدة»^(٤)
 إن ناسا قد يخطئون ولكن الله جل شأنه لا يعامل الناس بخطأ يرتكبونه .. إنه يفتح
 لهم باب التاب وفرصا لاحصر لها حتى يشوبوا إلى رشدهم ويستقيموا على الصراط
 المستقيم : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسُ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَآبَةٍ وَلَكِنْ
 يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمٍ﴾^(٥) .

تلك الأحكام التي تقررت فيما يتصل بالانحرافات الجنسية وبالتهم التي لا ينبغي
 أن تجري على لسان مسلم يحافظ على الأعراض .. هذه الأحكام ينبغي أن نرعاها وأن
 نحافظ عليها .

(١) النور : ٤ . (٢) النور : ١١ . (٣) النور : ١٢ ، ١٣ .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن سلمة بن مخلد رضي الله عنهما ، والضياء عن شهاب ، ضعفه الألباني . انظر
 ضعيف الجامع ٥/٢٠٥ . (٥) فاطر : ٤٥ .

هل للرذائل أسباب اقتصادية؟

غاية ما يصبو إليه الدين ، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل . فإذا ضمننا هذا الجو الربح ، فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته . وإن فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس في بطون الكتب ، أو كلاماً تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ ، وخطب المنابر لا يتمزغ غير التوجيه النظري . ويكون الدين حينئذ موجوداً على هامش الحياة فقط .

* من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية !!

وقد رأيت بعد تجارب عدة ، أننى لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة ، الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة !! إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت معدته خالية أو أن تكسوه بلباس التقوى ، إذا كان بدنـه عارياً .

إنه يجب أن يؤمّن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان ، ثم يُنتظر بعدهـ، أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان ..

كثيراً ما وجدتني أعالج وعظ الناس في بيئات صرّعها الفقر والمرض والجهل . فكنت أحـار .. ماذا أقول لهم؟

هل أُقبح لهم الدنيا ، كما يظن أنه مفروض على علماء الدين؟
إن الدنيا لن تكون أقبح مما هي عليه في أعين هؤلاء التعبـاء .

فلابد من التمهيد الاقتصادي الواسع ، والإصلاح العـمرانـي الشامل ، إذاـ كـنا مخلصين حقاً ، في محاربة الرذائل والمعاصـى والجرائم باسم الدين ، أو راغبين حقاً في هـداية الناس لـربـ العالمـين .

أما أن نترك الظروف التي تلدـ الجـريمةـ حتـماً ، تـنموـ وتـتكـاثـرـ ، ثـمـ نـكتـفـىـ فـىـ خـدـمـةـ الدينـ بـالـنـصـائحـ المـجـرـدةـ ، وـالـعـواطفـ المـفـتـعلـةـ ، فـهـذـاـ فـىـ الحـقـيقـةـ هوـ العـبـثـ المـبـينـ .

ولست - هنا - أنكر قيمة الواقع الأدبي ، أو أحاول بخس الضمير الإنساني حقه ، فقد توجد أحوال شديدة تقفـ الإنسانـ علىـ شـفـاـ جـرـفـ هـارـ وـتـطـلـقـ فـيـ غـرـائـزـهـ الدـنـيـاـ ، وـيـتـضـافـرـ الـحـرـمانـ وـالـإـغـراءـ مـعـاـ عـلـىـ سـوقـ الـمـرـءـ إـلـىـ الـجـرـيمـةـ سـوقـاـ عـنـيفـاـ ، وـمـعـ ذـلـكـ يـتـرـاجـعـ عـنـهـاـ ، وـيـسـتـنـكـفـ مـفـارـقـتهاـ ، وـتـنـتـصـرـ موـاهـبـهـ الـعـلـيـاـ آخرـ النـزـاعـ .

غير أن هذه الأحوال لا يجوز انتظارها من كافة البشر ، بل لا يجوز انتظارها أبداً على تطاول الأزمة واختلاف الأحوال من إنسان يضيئ الإيمان قلبه ، مهما بلغ فضله ، وربما علمه .

وخير لنا أن نتعرف الأمور من وقائع الدنيا ، وأن نقرر أن النسبة الكبرى من الرذائل تعود إلى واحد من الثالوث المتوطن في أرجاء أمتنا من زمن بعيد ، ثالوث الفقر والجهل والمرض ، أو إلى اثنين من هذا الثالوث البغيض ، أو إلى أفراده جمِيعاً . وأن زوال هذه الآفات الإنسانية ، يخفِض نسبة الجرائم في بلادنا ٩٠٪ ، ونحن نعرف أن في مصر الآلاف من العلماء الذين ينتمون إلى الدين وينبثون في معاذه ومساجده ، وينطلقون في المدائن والقرى يبشرُون ويخطبُون .

فهل وصلنا – بعد هذا المجهود المادي والأدبي الواسع – إلى درجة من الرقى ، والسلامة الاجتماعية ، كالتى وصلت إليها بعض الدوليات الأوروبية مثل سويسرا مثلاً؟ كلا! ولنضرب مثلاً ببعض الجرائم الشائعة لنرى مصداق ما قلنا .

السرقة

جريمة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتب عليها الدين عقوبة دنيوية ، تتراوح بين قطع اليد ، وقطع العنق ، عندما تكون السرقة في الخفاء ، أو عندما يكون صاحبها مدمراً احتلاساً أو عندما تكون السرقة غصباً بالإكراه كما يعبر القانون الحديث .

وعقاب لهذا ليست به شائبة قسوة مadam القصد من تنفيذه تأمين الحقوق ، وصيانة المجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال ، لا السطوة على كسب غيرهم ، والعيش به من حرام .

ولكن هذه الأغراض كلها تذوب في مجتمعنا الذي يزخر بأسباب التملك الباطل ، ووسائل الاستغلال المريب . فإذا قامت حول الجريمة شبّهات ، تجعل العقاب لا يحقق هذه المصالح وجب وقفه ، وامتنعت إقامته .

ومن هنا أمر النبي صلوات الله عليه وسلم أنه ندراً الحدود بال شبّهات .

وأمر عمر رضي الله عنه أن يعطى حد السرقة في عام المجاعة!

ورأى أئمة الفقه أن دعوى الملك في المسروق ، تمنع من الحد – مادامت شبّهة الملك معتبرة .

وقصد الشارع من وراء هذا الاحتياط ألا تقطع إلا اليد الظالمة الأئمة . يد اللص المعتدى على حق غيره يسرقه ، غير قانع بما عنده ، وهو يكفيه ويعنيه .

واجحرون الذين يُعذّبون من هذا النوع قلائل .. بل إنهم يعدون على الأصابع من بين الآلاف ، التي تقدم إلى المحاكم ..

روى مالك بن أنس في الموطأ أن رقيقاً لخاطب سرقوا ناقة لرجل من مُزينة فانتحروها ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فأمر عمر كثيير بن الصلت بقطع أيديهم .. !! ثم قال عمر أراك تجيعهم؟ والله لأغرنك غرماً يشق عليك .

ثم قال للمزني : كم ثمن ناقتك؟ فقال : قد كنت - والله - أمنعها من أربعمائة درهم! فقال عمر لخاطب : أعطه ثمانمائة درهم .. !!

قال ابن وهب : إن عمر - بعد أن أمر كثيير بن الصلت بقطع أيدي الذين سرقوا - أرسل وراءه من يأتي بهم (ليرفع الحد عنهم) .

فلما جاء بهم قال عبد الرحمن بن حاطب : لو لا أني أظنكم تستعملونهم وتجيئونهم حتى لو وجدوا ما حرم الله لا كلوه لقطعتهم .

ولكن والله إذا تركتهم لأغرنك غرامة توجعك ..

من هذا الأثر ترى أن عمر فهم تشريع القطع على حقيقته .

فهم أنه عقوبة رادعة لمن يرتكب هذه الجريمة من غير حاجة تلجمه إلى مال الغير .
وحيث تبين له أن هؤلاء الغلمان اضطروا إلى السرقة - لما نالهم من جوع وحرمان -
أبعد الحد عنهم .

وإذ أسقط الحد عن هؤلاء المراهقين ضاعف العقوبة على رب المال الذي أساء الامتلاك ، وكان - بأثره - علة هذا الاضطراب في المجتمع .. !!

عندئذ تقل جرائم السرقة حقاً! ويومئذ يستحق السارقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

الزنا

جريمة خلقية واجتماعية بالغة الفحش ، ولعل الاختلال الاقتصادي - بما يخلقه من بؤس وترف - أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة ، ومواجهة هذه المشكلة لا تكون بالاستنكار السلبي ، فما أسهل هذا الاستنكار على متعدد الخطب الوعظية ، وما أحقر أثره في تغيير الواقع الأثيم .

إن الشهوة الجنسية لابد أن تتحرك ، فإذا لم تتح لها الحركة الطيبة ، لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة .

والعصمة المؤقتة أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء ، أو الرجال الهدائين لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام ، يراد به حفظ عفاف الأمة ، وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والعقلية .

إذا أردنا – باسم الدين – قمع الحركات الخبيثة للشهوة الجنسية ، فيجب أن نيسّر وأن ننظم أسباب الاتصال الجنسي الحلال ، وأن نفرغ من العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقدة ، ولن يكون ذلك إلا بإعادة النظر ، في فهم حقيقة الزواج ، والأساليب العسيرة ، التي يتم بها الآن .

إن إتاحة الزواج للراغبين مسألة لا تقل عن ضمان الأقوات للشعوب ، وعندى أن وزارة التموين لا تقبل إلا نصف المشكلة المادية وأن شئون الزواج والأسرة تحتاج إلى وزارة أخرى .

والطبقات الفقيرة والمتوسطة ، تواجه مع الزواج ثلات مشكلات ، فالمهر عقبة ، وقد يسهل اجتيازها ، فتبقى مشكلة الدخل الذي يصون البيت الجديد والأسرة الناشئة ، ثم تبقى مشكلة الدخل الواسع ، الذي يكفل حياة أولاد تجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه .

هذه كلها عوائق اقتصادية ، لا يقوى الدين بالكلام على حلها .

إنما يفرغ الدين منها ، عندما يبني المجتمع ، الذي لا يبقى فيه فقير ولا حquier ، والذي يقدم للفرد الضمانات المعقولة ، لكافالة أسرته ، ورعاية مستقبلها والذي يسخر فيه إنتاج الأمة ، لإسعاد الأمة كلها ، لا لترف بضعة أفراد منها .

إذا تم ذلك ، تم القضاء على نسبة ضخمة من جرائم الزنا ، وإذا صودرت أسباب الترف لدى المترفين ، تم القضاء كذلك على جزء آخر من مظاهر الفسق والخلاعة والتحلل .

فمن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهدنا له طريق الفضيلة ، وجب جلده أو رجمه . بل وجب قتله رمياً بالرصاص !

الفكر الإسلامي بين التقوّع المجز والانفلات الضال

الإسلام دين معصوم . الكتاب كما قال منزله : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ
نَزَّلَهُ ﴾^(١) . والسنة في جملتها معصومة فيها الخير كله وفيها السنن الذي تحتاجه
الإنسانية لتسير فيه .

معنى أن الكتاب معصوم وأن السنة معصومة أن أي مخالفة للكتاب أو جحد لما فيه
خروج عن الإسلام ، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾^(٢) .

إذا أمر الله ، خرست لعمر الله أنفساً لما تكلم فوقها القدر

إذا قال الله فلا كلام لأحد ، متى ثبت للرسول كلام خضعن له ، هذا هو الإسلام .
أما الفكر الإسلامي ، وهو عمل العقل في فهم النص ، عمل العقل الإنساني في
فهم النص الديني كتاباً كان أو سنة ، فهذا العمل أو هذا الفكر ليس بمعهود ، فقد
يختلط الإنسان عندما يفكر ، وقد يجتهد ويحيد عنه الصواب . والمجتهدون من فقهائنا
اختللت وجهات نظرهم أو بالمصطلح العام : « اختلفت مذاهبهم لأسباب » . فقد
يختلفون مثلاً لطبيعة اللغة العربية . خذ مثلاً حرف الجر :

﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ هل الباء للإلصاق كما يقول الأحناف ، فربع الرأس
يكفى .. إلصاق اليد ، هل هي للتبعيض فشعرات الرأس تكفي ، هل الباء زائدة كما
يقول مالك ، فلابد من مسح الرأس كله؟ .. ليكن .. وجهات نظر .. الخلاف
موجود .. الفكر الإسلامي هنا قائم . حقيقة أو مجازاً ﴿ لامستم النِّسَاءَ ﴾ هل اللمس
حقيقة أو مجازاً عن نوع معين من اللمس؟ .. اختلاف .. الخلاف الذي لفت نظري
وفيه شيء من الطراقة ؛ جمهور الفقهاء كما درسنا مذاهبهم ، يرى أن « الظهار » فيه
عتق رقبة أو صيام شهرين أو طعام ستين مسكيناً ، ابن حزم له رأى خالف به

. (٢) الأحزاب : ٣٦ .

(١) الإسراء : ١٠٥ .

الفقهاء ، أو الخلاف سببه حرف جر ، يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَ﴾^(۱) . إلى أن يقول .. ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِيْنًا﴾ .. إذن فما معنى :

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا..﴾ كل الأئمة قالوا : «يعودون فيما قالوا» ، لكن ابن حزم رجع في كلامه وقال : لماذا اللام هنا يعني هنا؟ لأن الآية التي بعدها في نفس السياق : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهُوا عَنْهُ﴾^(۲) فاللام يعني هنا . وبنى على هذا أن الظهار الأول لا كفارة فيه ، والظهار الثاني هو الذي تلحقه الكفارة .. هو رأيه !!

إنما أردت أن أذكر سبب الخلاف من الناحية اللغوية ، قد يكون هناك خلاف بسبب المزاج الفكري أو المزاج النفسي . وما معنى المزاج الفكري هذا؟ الحقيقة أن هناك بعض الناس طبيعتهم العقلية «نص» وبتعبيرنا العادي والشائع الآن «خاصي» ، وهناك بعض الناس طبيعتهم العقلية تتبع الفحوى أو المقصد أو يعرف الأسرار من التشريع أو الأمر والنهى ، وهذا ظهر في أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أصدر الأمر إلى جيشه ، قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة» .. انتهى .. الجيش سمع الكلام .. لكن في الطريق اختلفوا .. النصيون أو الحرفيون قالوا لا صلاة إلا في بنى قريظة ولو نصلى العصر إلا بعد المغرب . أما أصحاب الفحوى فقالوا إن هذا غرضه الاستعجال وليس غرضه أن نضيع الوقت ، واختلفوا .. فصلى بعضهم في الطريق ، وصلى بعضهم في بنى قريظة .. وابن تيمية يرى أن الذين صلوا في الطريق كانوا أولى بالحق من غيرهم . على كل حال الأمر واحد ؛ خلاف عادى لا قيمة له ، فهذا مزاج فكري أو طبيعة فكرية .

هناك طبيعة نفسية ، مثلاً من خطب امرأة في العدة ، عمر يقول : يفرق بينهما ثم تحرم عليه إلى الأبد . لماذا؟ طبيعة عمر في الصرامة .. أما غيره فيقول : لا ، يفرق بينهما ، ويعد خاطباً من الخطاب بعد انتهاء العدة كغيره من الناس ، يعامل كغيره من الناس . إذاً فهذا اختلاف سببه المزاج ، وترى هذا المزاج – ليس الهوى ولكن الطبيعة النفسية – تمثل في أسرى بدر حيث قال أصحاب الشدة والصرامة :

(۱) الجادلة : ۳ .

(۲) المجادلة : ۸ .

«يقتل الأسرى» أما أصحاب الحلم والأناة فقالوا : نعتهم ونأخذ بديلاً ننتفع به فى رفع حالة المسلمين الاقتصادية ، إلى آخره .

فالخلاف موجود في الفكر الإسلامي منذ بدأ .. الخلاف فيه موجود وأنا لا أتشاءم من الخلاف ولا أقلق منه ، ورب العالمين اعتبر الخلاف من طبيعة الخلق ، لكن يكره أن يكون الخلاف بسبب فووضى خاصة بين الدهماء والعوام ، وإذا كان هناك شئون عسكرية وشئون مدنية يقع فيها خلاف فلا يجوز أن تتبعثر بين الجماهير لتسود الفوضى وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرُ مِنْهُمْ لَعِلْمُهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(١) . أهل الاستنباط ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) . بتعبير العصر الحاضر «الأخصائيون» هذا هو التعبير الدقيق لها ، والذي لا يتعرف عليه له أن يرجع إلى القاموس في هذا .

الأخصائيون ، هم الذين يسألون ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذكر هو الفكر ، ومن فضل الله على هذه الأمة أنه وسع دائرة الفكر ، وقبل النتائج ، وفيه ما ليس في غيره في دنيا الناس .

هنا رأيان لعلماء الأصول ، رأى يقول «كل مجتهد مأجور ، أخطأ أم أصاب» كلامها سواء ، لكن جمهور العلماء ، على أن للمنخطئ أجرًا واحدًا وللمصيب أجرين . وهذا هو الرأى الشائع عند المسلمين ، أى أن الخطئ لا كفر ولا فسق عن أمر الله ، ولكنه أخطأ . لكن الخطأ يكون بعد حثيثاته العلمية مثل خطأ الطبيب الذي يبذل جهده العلمي ثم تجيء النتائج على غير ما توقع ، أما إذا كان الخطأ عن إهمال أو عن تكاسل أو عن قلة اكتراث فهذا شيء آخر يعتبر تقصيراً ، ويعاقب عليه .

فأنا أبذل جهدي العقلى إما أخطأ أو أصبت ، فهذه مسألة الله أعلم بها . ولكن أنا مأجور على الحالين ، وعلى هذا سار التاريخ الإسلامي حقيقة . وقد لاحظت أن المجتهد أبعد الناس عن الغرور بما وصل إليه .

أبو حنيفة قيل له : رأيك هذا الذى تقول هو الحق الذى لا شك فيه ، قال : لعله الباطل الذى لا شك فيه . ومع أن أبا حنيفة إمام أهل الرأى ورئيس مدرسة الفكر

(٢) النحل : ٤٣ .

(١) النساء : ٨٣ .

أو فقه الرأى من الناحية الإسلامية ، نجد على المقابل له الإمام الشافعى ، واضح علم الأصول وأول من تحدث فى حديث الآحاد ورجحه وقواه وسانده ، مع ذلك الخلاف الذى بينه وبين أبي حنيفة ، عندما سئل عنه قال : «الناس عيال فى الفقه على أبي حنيفة» . هذا بالرغم أن بينهما خلاف شديد ، هذه هى عظمة النفس البشرية عندما تتمحص لله ويصلقها الحق وتطلب مصلحة الأمة ، وتبذل الجهد لكي يتضح كتاب الله وسنة رسوله ، ولعامة المسلمين وخاصةهم . ونرجو من الخلف أن يأخذوا هذا وأن يتعرفوا عليه .

لقد دخلت الأزهر ، وأنا لا أعرف شيئاً ، حفظت القرآن ، ودخلت الأزهر لا أدرى شيئاً عن الفقهاء ولا مذاهبهم ، لكن أبي قال لي التحق بالأزهر على مذهب أبي حنيفة ، وهناك أناس من قريتى دخلوا على مذهب الإمام الشافعى وبعضهم على مذهب الإمام مالك ، كان حظى أن أتعرف على الفقه الحنفى ، فلما كبرت ودرست الفقه الحنفى من عدة كتب بدأت أنظر إلى فقه المذاهب الثلاثة الأخرى وأطلع عليها .. لا أقول أطلع عليها اطلاع دارس ، لكن اطلاع متجل ، يعرف ما يعنيه من القضايا التى قد يكلف بدراستها أو يرى لأمته حاجة إليها . ثم وجدت بعد ذلك أنه لا بد من الاطلاع على الفقه الزيدى والفقه الإمامى والفقه الظاهري والفقه الفلسفى كما قدمه ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزيه ، وفقه الحديث (السنة) كما قدمه الشوكانى والصنعائى ، وفي هذه الأيام ، الألبانى وسيد سابق .. أنا لا أتشاءم من الخلاف وأعرف وجهات النظر لكنى ، وهذا شيء أحب أن أذكره عن نفسي من باب الأمانة ، لست من هوا الدراسات الفقهية ، ولا أميل إليها ولا أميل إلى دراسة القانون ولا أحب الاطلاع عليه . الشيء الذى استهوانى منذ بدأت أفكر هو دراسة العقائد والعلوم الإنسانية والملل والنحل والفلسفات وما إلى ذلك ، وعلى ضوئها تخصصت في الدعوة الإسلامية ومضيت في الطريق .

فلما مضيت في الطريق بضع سنين قليلة ، وجدتني مكرها على أن أرجع إلى الفقه لكي أدرسه مرة أخرى ، وأنا كما قلت لكم لست من هوا هذه الدراسة ، ضائق بها ، هذه طبعتى .. ولكن لم اضطررت أن أرجع إلى الفقه مرة أخرى؟ .. السبب هو أننى وجدت عوائق تعرض الدعوة الإسلامية سببها آراء فقهية ، بل كادت هذه العوائق تطيح بالدعوة في ميادين تصطدم فيها الدعوة بزحف صليبي أو بزحف شيوعى ، قلت : سبحان الله ، الإسلام يضيع بسبب هذه الخلافات ، أى بلاء هذا!!؟ أنا لا بد أن

أعود مرة أخرى للدراسات الفقهية لكي أسلح وأطلع وأقاوم ، وفعلاً عدت .. أنا وجدت فيمن اشتغلوا بالفقه في عصرنا ، وجدت شيئاً ، عبته ، مثلاً وجدت ناساً يعيشون في ماضيهم لا يعرفون كيف أن الحياة سارت؟ سمعت في إذاعة إسلامية بآذني والله ، رجل يشرح الفقه ويقول ﴿في القصاص حياة﴾ نعم ﴿النفس بالنفس﴾ نعم ﴿والعين بالعين﴾ نعم ﴿الجروح قصاص﴾ ، فجاء في «الشجاج» وأنا قرأتها في مذهبنا الحنفي قراءة عابرة ، ثم قال إذا أصيب أحد بعاهة لا يمكن القصاص فيها فماذا نفعل له . فكانت الفتوى هكذا : نقومه عبداً ، ونرى كم ثمنه وهو سليم؟ وكم ثمنه بعد العاهة؟ والفرق بينهما يدفعه الذي ضربه . الرجل يعيش في أسواق النخاسة!! افترض أن هذا الرجل - لا يوجد عبيد الآن - كأنه حمار جرح فإذا كان يساوى ١٠٠ جنيه وهو سليم ، وبعدها جرح أصبح يساوى ٧٠ جنيهًا ، إذن فعلى الضارب أن يدفع ثلاثة جنيهًا !!

هل هذا فقه؟ يعرض في هذا العصر!! أى فقه هذا؟ شئ آخر ، لقد شكا لي شخص من تونس ، وقال لي ، يا أخي ، هناك شخص من الخليج دخل مكتبة مثل مكتبة الكونجرس ، والسوق في يده يحركه يميناً ويساراً في فمه ، يميناً ويساراً والناس تنظر له باشمئزاز!! فقال لي : صحيح أن السوق عندكم سنة أيها المسلمين؟

فقلت له : يا أخي إن السوق سنة مشروعة للصلوة والوضوء .. لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسوق في كل صلاة ، إنما لا يدخل مكتباً عاماً أو برياناً أو كونجرس أو مكتبة ، ويدخل بالسوق وهو في حنكه ، فهذا غير صحيح . ومع ذلك فالقصد من السوق ليس «عود الأراك» ولكن القصد «نظافة الفم» في أى مكان : أكل وتنظيف بالفرشاة ، انتهى . فرشة الأسنان مع المعجون تكفى وتنظف أسنانه!! فيقول لي : كلا ، ويسرك السوق ويريد أن يدخل به المدرج عندي بالجامعة!! هل أطربه؟ نعم طرده! قلت له : كلا ، لا أقبل هذا الإسلام ، الدين النظافة ، ولا أحب أن يبصق هنا في هذا المكان .

الأسوأ من هذا ، أنهم كانوا أهل بادية ، فقال لهم الرسول هى بالماء والحجر أى ثلاثة حجارة تنظف بها نفسك . والآن تريد في القاهرة أن تحضر حجارة لكي تنظف بها نفسك ، وتضيع الصرف الصحي ، وتسد المجاري وتخرب لنا الدنيا بالحجارة . ما هو هذا الحجر؟ الأفضل أن تستخدم الورق ، فقال لي : مثل النصارى . قلت له ، أى مضارة!!؟ ماذا يحدث لو نظفت نفسك بالورق ؟

فوجدت أن هناك عقولاً ضائعة ، دخلت ميدان الفقه ، وهى متقوقة فعلاً فى مكان لا تخرج منه وهذا ليس بفقه إطلاقاً! هذا نوع من البلادة الذهنية تسترت بالإسلام ، والإسلام بعيد عن هذا ولا أصل لهذا .

فى الوقت نفسه وجدت أناساً انفلتوا فعلاً فقال لى شخص : إننا نراك مسروراً من لجنة العفو الدولية . فقلت : نعم .. سيدنا رسول الله قال : «لقد شهدت فى دار ابن جدعان حلفاً لو دعيت به فى الإسلام لأجبت». إنهم أناس ينصرؤن المظلوم ، ويكشفون عن آلام بعض المتعين .

قال : حرموا عقوبة الإعدام ، وأنا أرى أن نتبعهم فى هذا ، فأنت زكيتهم ويجب أن نتبعهم فى هذا!!! فقلت له : لا نتبعهم فى هذا ، لأن عندنا نص «فى القصاص حياة» .

تاتشر عندما كانت فى حزب المحافظين أقرروا إلغاء عقوبة الإعدام ، فلما تولت السلطة وشعرت بضراوة الجرمين غيرت رأيها وقالت لابد من تنفيذ العقوبة . ومع هذا فأنا مع النص لأن الله أعرف بمصلحتى منى وبمصلحة الجماهير من الجماهير . عندما يكون النص حاسماً ، اعلم أن مصلحة البشر فيه : (فى القصاص حياة) .

وربما أن سبب الاشتباك بينى وبين عبد الناصر فى مؤتمر الاتحاد القومى هذه القضية ، حتى وأنت تقوم بعمل روایات تمثيلية فى ضرر الأخذ بالثار ، فقلت عبد الناصر عندما يقتل شخص والدى ويدخل السجن ثماني سنوات ثم يخرج ، فلا بد أن أقتله . أما أن تقول لى رواية تمثيلية من أجل الأخذ بالثار لا يجوز من الناحية الاجتماعية!! كلا! خطأ كان لا بد أن يقتل! من أين أتيتم بمعنى :

«سبق الإصرار والتربص» هذا كلام من عند الفرنسيين وليس من عندنا! من قتل عمداً يقتل ، وانتهى ، إلا إذا عفا ولى الدم انتهى الأمر . يعاقب بطريقة أخرى أو يترك عقابه . هذا كان سبب الخلاف بينى وبين عبد الناصر هناك أمور أخرى .

على كل حال النص يحترم . هناك واحد من الحكماء قال إن الصيام يعطى الإنتاج ويلغى الصيام!! قلت له : ما هو الإنتاج الذى لديكم؟ بضعة معاصر زيت زيتون ، وبضع قحف من العجوى . هذه هى التى سيعطل إنتاجها!! العجوى وزيت الزيتون!! من قال إن الصيام يعطى الإنتاج! هذا غير صحيح . هذا كذب لا أصل له .

إذن هناك انفلات في بعض الاجتهادات ، وهناك وقوف غريب في اجتهادات أخرى والأمر يحتاج إلى أن نرد الفقه إلى أهله ، والفكر إلى أصحابه ، وأردد كلمة الأحنف بن قيس :

«من البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه لا لمن يبصره» .

بلاء الشعوب الآن خاصة في العالم الإسلامي ، أن من يبصر الرأي لا سلطان له ، وإن أكثر من لهم سلطان عميان لا يرون إلا ما في أنفسهم من أهواء ! هذا هو بلاء الأمة الإسلامية . فيجب أن يعود الفقه له ورجاله الذين يجتهدون فيه وله أهله الذين يعملون في ميدانه ، ومعهم الزاد الثقافي الواسع الذي يحتاجون إليه ولا بد منه كى يصدروا للأمم أحكاماً سليمة تتبعها الشعوب وهي مطمئنة .

وهنا ألفت النظر إلى شيء كتبته في بعض كتبى وهو أن الإسلام فيه نصوص لها قداستها لا تخترق أبداً ، وهناك أخلاق أو مبادئ تركت لنا الحرية في وسائل اختيارها ووسائل تطبيقها ، سوف أختار منها ثلاثة الآن .

العلم والشورى والجهاد

هذه قيم مؤكدة في الأمة الإسلامية .

العلم لا بد منه ، وكون الأمة في عصرنا هذا يجعل التعليم مراحل ، ابتدائياً فإعدادياً فثانويًا فجامعيًا ، لا بأس . تعليمًا مدنيًا وتعليمًا عسكريًا ، لا بأس ، تعليمًا زراعيًا صناعيًا تجاريًا ، لا بأس . ليس لدينا وسائل محددة . والإسلام عندما طلب الصلاة حدد لها وسيلة واحدة هي الوضوء . فإذا فقدت ، فهناك وسيلة أخرى هي التيمم . فهنا الوسائل حددت . وهناك أشياء سكت الإسلام عن وسائلها : وتركها لنا ، فنحن يجب أن نتعلم والعلم يجب أن يشمل الأمة كلها . من الأكاذيب التي شاعت في التاريخ الإسلامي للأسف ، وكانت من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية الأخيرة أن الأنسى حرمت التعليم ، وكان سبب الحرمان حديثاً مكذوباً رواه الحاكم في مُسْتَدْرَكَه «لا تعلموا النساء الكتابة» وكتاب الحاكم كله كتاب مُسْوَدَّة ، مات - غفر الله له - قبل أن يصححه ، والأمة منعت من فتح مدرسة بنات بسبب هذا الحديث المكذوب . واتصل بي رجل من سويسرا وقال لي : يا فضيلة الشيخ ، لدى كتاب الآن ولا أذكر اسم المؤلف ، المجلد ٢٦ ، صفحة كذا ، يقول : والأمة أمية وقد نهى عمر عن تعليم النساء الخط ، فقلت له هذا كذب . النهي عن تعليم النساء الخط كذب . أما أن الأمة أمية ،

فالحديث ورد ، ولكن المعنى الموجود خطأ وغير صحيح ، فهو يصف واقعاً : «نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب» العرب كانوا هكذا فعلاً ، أما هو ﷺ فما هي رسالته سوى محو هذه الأمية ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ﴾ فلقد قلت لبعض طلابي في الجامعات الذى يضع رسالته فى فقه عائشة : أمنحه رسالة دكتوراه ؛ لأن عائشة لها اعترافات على أحاديث كثيرة ، وهناك ردود عليها ، والذى يستوعب علم أم المؤمنين ، ويرى كلام الفقهاء ، وكلامها مع الصحابة ، وكلام الصحابة معها يأخذ رسالة دكتوراه .

من قال إن المرأة في الإسلام تمثل للجهل؟ فالعلم لا بد منه كالطعام والشراب بل أكثر . إننى الآنأشعر بالأسى ، لقد كنت في الجزائر وعندما كنت في الجامعة التي أنسأناها ، لأن التعليم الدينى ألغاه حاكم شيوعى هناك . فجاء بعده رجل له دين وشرف وخلق وإسلام فاتفق معنا وأنسأنا الجامعة ، وأعاننا الله ، وفيها طالبات ، البنت تقول لي إن والدنا يقول لنا : ليس لنا تعليم ، وينعننا من المجرى . والدولة تمنع الطالبات والطلاب مواصلات وأكلاً . وهذا باسم الإسلام يريد أن يمنع بناته من العلم والتعليم! هذا بلاء! هذا عقل دينى غريب ! أما مراكز الثقافة الفرنسية فإنها تعمل ويدها كثيرون . وهناك نحل سارت مع القومية العربية ومع البعث العربي . ! . فوجدت أن هناك نزعات وجودية وإلحادية ومادية! والله ما تعرف أبداً بالله ولا برسوله ، سوف تضيع الأمة الإسلامية ، وتريد أن تغرس البنات . من أتركهن ! أتركهن يضيعون! من أجل رجل أعمى الفقه لا يدرى !! كلا!!

الشوري ، لا بد منها في الإسلام ، ولكن ماذا تكون الشوري؟ الشوري لها صور كثيرة . وطبعاً صورتها المثلث أيام دولة الخلافة الراشدة . ولكنني عندما أنظر للشوري أجده أن الحكم رئاسي في الولايات المتحدة ، وفيها شوري . والحكم ملكي في إنجلترا وفي هولندا وفي الدنمارك وفي السويد وفيها شوري عظيمة جداً . الملك في فرنسا شوري؟؟ رئيس الجمهورية يختاره الشعب . رئيس الجمهورية في إيطاليا يختاره مجلس النواب . صور الشوري مختلفة . الجماهير تختار الصورة ، لكن المهم عندي أن لا يكون هناك استبداد أعمى . الآن الاستبداد الأعمى أكل الشعوب واغتصالها . بينما أجده بعض الذين يدرسون الفقه يؤخر الشوري ، وليس على باله إطلاقاً . هذا ليس من الإسلام! وهو لا فقه له .

أما بالنسبة للجهاد فإن وسائله تغيرت في عصرنا هذا ، فالجهاد له أوضاعه وله تعاليمه ، ولكن الآن تغيرت الدنيا ، الجهاد الآن في البر والبحر والجو ، وليس بالسيف والرمح ، بالقوس والنبل ، كلا ، لقد أصبح جهاداً علمياً . الآن لكي نقيم أحجزة جهاد ، لا بد أن يكون لدينا كليات في الفيزياء والكيمياء والأحياء ، والجيولوجيا والفلك ، وفي شتى علوم البر والبحر .

والأمة الإسلامية عندما خرجت من الجزيرة ، الإسلام رفع خسيستها ، فقد كانت أمة لا تعرف إلا الجمل ! يقول ابن خلدون : لما وجد العرب أنفسهم قد ملكوا جنوب البحار (أي البحر المتوسط) أي مصر ولبيبا والمغرب ، وشرق البحر فهو معهم فقالوا لا بد من أساطيل وسفن ، إذن باسم الإسلام العقل الإسلامي تفتح «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» . ولكن هؤلاء أناس في البر . كلا . يجب أن يتعلموا فكان الأسطول الروماني في إيطاليا واليونان وصقلية وسردينيا وكورسيكا يفر منهم ، لماذا ؟ لأنه ضرر عليهم كما يضر الأسد على فريسته !!

إذن لقد علمهم الإسلام ركوب البحر ، ونقرأ في البخاري ، أن الرسول كان نائماً عند أم حرام بنت ملحان ، فرأته أفاق ثم ابتسם واستيقظ . فقالت له : مم تصاحك يا رسول الله ؟ فقال : أناس من أمتي ملوك على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة ، يركبون هذا البحر غزاة في سبيل الله ، فقالت له : ادع الله أن يجعلنى منهم ، ثم نام مرة أخرى واستيقظ يردد نفس الكلمات : أناس من أمتي يركبون سبعة هذا البحر كأنهم سلوك على الأسرة غزاة في سبيل الله ، أنت من الأولين . فماتت وهي في الأسطول الذي أعده معاوية لكي يحاصر به القسطنطينية من الجنوب كي يعتلکها جنده من الشمال . ولم تفلح الحطة ، وماتت المرأة في قبرص ويعرف قبرها «بقبير المرأة الصالحة» وأنا متأكد أنه لو أن هذه المرأة في عصرنا هذا قالت للقائد ادع الله أن يجعلنى منهم ، فكان سيقول لها : أنت امرأة ماذا يخصك من هذا (أو باللهجة المصرية : أنت يا امرأة دخلك إيه !!) كيف تذهبين إلى الغزو في البحر !! أنت اجلسي في بيتك وليس لك إلا البيت !!

الفكر الإسلامي تغير كثيراً ، وكان فكراً مفتوحاً أيام الرسالة الأولى وكان منفتحاً على ثقافات العالم كلها ، وكان أصحابه يسكنون بالقلم الأحمر بعدما نقلتهم الدعوة الإسلامية نقلة حضارية رحبة .

وبعد ذلك أجد الدكتور محمد يوسف موسى ، أخذ رسالة الدكتوراه من جامعة السريون في موضوع عن ابن رشد ، يقول لي يا غزالى ، يرى الأوروبيون أن عدد قواعد الفلسفة الإغريقية ثمانى عشرة ، فهذا أبو حامد الغزالى تلميذ من تلامذة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل ما عنده فقه عميق فى الإسلام ، بل بلغ من سطوه العقلية أن يقول : يقول أرسطو كذا قوله أن يقول كذا! أى يأتى بأدلة لأرسطو ثم يقر بالحججة المضادة على ما قال أرسطو وعلى ما افترضه هو ، ويهدىم هذا كله!! بالعقل الإسلامي! كان عقلاً مفتوحاً . الفقه كان فقهها مفتوحاً ، وهذا الفقه المفتوح ، رواه الأوائل فى ميدان الفقه العبادى والمعاملات ومعنى المعاملات أى الدماء والأموال والأعراض أى الفقه الضرائبي والفقه الدستورى ، هذا ما استغل به أمتنا .

أبو حنيفة كان له تلميذان أو ثلاثة ، أبو يوسف مؤلف الخراج أى الضرائب (مؤلف فى الضرائب) . وكتاب محمد بن الحسن الشيبانى : «فى السر الكبير» وهذا فى العلاقات الدولية ، وله مدرسة أوروبية تسمى مدرسة الشيبانى فى الفقه الدولى .

فعندما أنظر إلى الفقه الإسلامي قديماً وكيف أن تلامذة الفقهاء تجاوبوا مع الدولة ومهدوا لها كيف تعامل مع الآخرين وكيف تفرض الضرائب فى الداخل فإنهم بالإسلام اشتغلوا أما الآن فليس لدينا شيء . الفقه دخل دورة المياه ولم يخرج . فقه المؤخرین ، ثم شغل نفسه بتوافقه عجيبة ، دون وعي مع ما يقع فى الخارج . ولذلك فهناك ضمور غريب فى الفقه الدستورى والفقه الدولى وفقه العمل ، والعمل ينقال من نقابات وقوانين العمل والعمال فى الخارج . لماذا لأن هناك مؤلفاً فى الأصول اسمه «الحاصل» وجاء بعده مؤلف آخر «المحصل» وثالث اسمه «التحصيل» وكل هذا يمضغ نفس العلقة ولا يوجد جديداً وهكذا! فالامر يحتاج إلى أن الفكر الإسلامي لا بد أن يتفتح ويعود إلى أصلاته الأولى .
مالك جرح وكسرت ذراعه ، فعندما وجده الخليفة يأخذ أيماناً مغلظة على أن فلاناً من الضرب الذى حدث له .

ولكن السؤال : من الذى ضرب مالك؟ إنه كلب ذهب وانتهى فى التاريخ وتبقى مالك ، ملء الأرض . أيضاً فإن حسن البنا قتله شخص نكرة ، لا أحد يعرفه ، ولكن بقى حسن البنا خالداً فى الآخرين وإن شاء الله يخلد مع الصحابة والتبعين .

إذن القصة قصة تاريخ الفكر الإسلامي وتاريخ الفقه ، والتاريخ للرجال ذوى العقول والذى تقود النهضات وتقود الأمم . أنا أريد من أمتنا أن تعرف نفسها لكي تعرف فكرها .

هناك شيء كتبته في هذا الموضوع سوف ألخصه لكم : أولاً قلت لكم في يوم من الأيام : إن الله ربى محمداً ليربى به العرب ، وربى العرب بمحمد ليربى بهم الناس أجمعين ، الناس أجمعين ، هل هم الروم والفرس فقط؟ كلا . الناس أجمعون تعنى منذ بعث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في القارات كلها .

إذن فالأسلاف عرفوا ما عندهم ، فكل شبر معمور من أرض الله مشوا ووصلوا إليه وبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، الآن أين العرب؟ الحقيقة أن العرب هم الذين كان ينبغي أن يكونوا في الأولين ، فهم دماغ الإسلام وقلبه (أي عقله وعاطفته) .. فالقرآن عربي ، والكعبة عربية ، والرسول عربي ، والثقافة عربية !! – أنظر فأجد أمتهم الآن تتسع في مؤخرة القافلة البشرية لا تعرف لها رسالة !!

هناك طالب من طلابي قال لي : هل رأيت جريدة الأهرام؟ قلت له : ماذا فيها؟ قال : هذا الولد الشيوعي كتب مقالاً فيها يقول فيه ما يدافع به عن الشيوعية أو يعتذر عن شيء . قلت ألا تعرف حديث البخاري الذي يقول فيه : إن هناك أناساً من العرب كانت تعبد الجن وبقى هؤلاء يعبدون الجن التي أسلمت !! وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَيْ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(١) . أي أن الشيوعية انهزمت وتركها أصحابها وما زال العرب الشيوعيون يعبدون الشيوعية ، إنهم بهائم !!

قلت له : يا بنى ، إن العيب ليس منهم ، هؤلاء العميان! ولكن العيب من يحمل أمانات الفكر الإسلامي!! قلت له : نحن الذين نسمى علماء الدين فنحن لم نحسن عرض الإسلام! فربنا يقول لنا آية في آخر سورة الحج :

﴿وَافْعُلُوا الْخَيْرَ لِعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جَهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَّلَةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾^(٢) فالرسول شهيد علينا ، ولن نستطيع أن ننكر شهيداً علينا !

. ٧٨ ، ٧٧ (٢) الحج :

(١) الإسراء : ٥٧

ولكن ذلك بالنسبة له : ﴿ شُهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ ﴾ وقد تكررت في سورة البقرة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾^(١).

أما عندما يعذب الله شخصاً إنجليزياً أو طليانياً أو أسترالياً ويقول له : سوف ندخلك جهنم ، لقد بعثت لك الأنبياء ، فيقول لله : كلا ، لم أمرني ولا أتباع النبي بلغوني أي شيء . لقد وصلت لهم القول ، لكن هؤلاء حبسوا القول عنهم ، ولا نعرف شيئاً .

فقلت له : يابني إنني متأكد أن هناك أناساً من أمريكا ، وأستراليا سوف يخرجون من النار ويدخل بدلاً منهم عرب ! لأنهم فرطوا في الإسلام ، نحن الإسلام ربانا لنرى به الناس ، ولكن التربية أيضاً لها مؤهلات ، أتريد يا عربى أن تكون أستاذًا للعالم وأنت ليس لديك أي شيء !! أنت نفسك يا عربى لا تفهم الإسلام . أنت لا تفهم دينك .

أقول لأحد الناس : عندما ذهبت لمسجد باريس سألني شخص عن امرأة مسلمة ت يريد أن تتزوج قلت له «تعقد» هي تعقد على نفسها . قال لي : كيف نحن مالكيه ! قلت له : يا أخي هل النبي مالكي !! المذاهب كثيرة . أبو حنيفة يقول المرأة تعقد على نفسها والأوروبيات عندما يتزوجن ، فمثلاً إذا أرادت تاتشر أن تتزوج أقول لها : اذهبى فأحضرى والدك ! يا أخي سبحانه الله . الناس هناك ، مستواهم العلمي جعل المرأة سيدة نفسها في كل الأمور . فلماذا لا تأخذ مذهب أبو حنيفة الذي انتهى إلى الآية القرآنية التي تقول : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾^(٢) .

وعندما جاءت له بنت تشكوه وتقول له : أبي زوجني من ابن عمى ليعرف به خسيسته وأنا له كارهة ، فقال لها : الأمر إليك إن شئت أمضيتك أمر أبيك وإن شئت فسخته . فقالت أمضيتك أمر أبي . ولكن فعلت هذا حتى يعلم النساء أن ليس للأباء من الأمر شيء .

أبو حنيفة أخذ بهذا المذهب . فعندما أنشره فهو ملائم للفرنسيين . تقول لي : كلا . توقف حال الإسلام ، لكن تفتى بمذهب مالك أو الشافعى ، لماذا ؟ لتكن قريبًا من الوضع الذي أنت فيه .

ما معنى أن تقول لا بد أن تضرب بالنقاب على وجهها ! من أين أتيت بهذا؟ الأئمة الأربع ليس لديهم نقاب ، والمفسرون الكبار ليس لديهم نقاب ، الألبانى الذى من أشد الناس تعصباً للسنة ذكر عشرة أحاديث لا تحتوى على نقاب ، من البخارى

(٢) البقرة : ٢٤٠ .

(١) البقرة : ١٤٣ .

ومسلم وغيره ، وأنا ذكرت عشرة أدلة في كتابي بأنه لا يوجد نقاب . أما إذا أردت نقاباً يخصك فأنت حر ، لكن تذهب إلى أوروبا وتقول لهم « لا إله إلا الله ، النقاب شرع الله » عندئذ سيقول لك : لا نريد دينك هذا !

إذن لماذا نضيع الإسلام بفقه مذهبى ضيق ، فالأفضل أن نوسع الفقه ، ولكنني أقول أن تترك النص ، ولكن حيث اجتهد العلماء ، اختر من الاجتهاد ما يصلح لك وأنت تبلغ الدعوة ، لذا فنحن ما زلنا لا نعرف الإسلام .

لقد قال لي أحد إخواننا في دعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إننى أخالف المذاهب الأربعة في الفتوى . فقلت له : هل هذا حرام؟ قال : نعم حرام ، قلت له ما رأيك في ابن تيمية؟ قال : ابن تيمية الإمام الأعظم . فقلت له : وهو أيضًا من الأئمة الكبار لكنه خالف الأئمة الأربعة . رفض طلاق البدعة وقبله الأربعة . فسكت . فقلت له : يا أخي ابن حزم يقول : المرأة يؤخذ رأيها في الشهادة ، في الدماء والأموال والأعراض على سواء . فإذا رأت امرأة لصًا يسرق من بيتها ، وامرأة رأت أبيها أو أخاهما يقتل ، نقول لها : كلا ، أنت حماره وليس لك رأى ولا شهادة . وقد ناقش هذا الموضوع ، ابن حزم ، وقال لا . قبلت شهادتها في الدماء وفي الأعراض وأتي بخمسين رواية في هذا الموضوع . ما هو المانع أن أخذ برأيه ، أثناء نشر الإسلام في أوروبا وأمريكا . لماذا توقفون حال الإسلام؟ هل الاجتهاد خطأ؟ كلا إنه مأجور . خطأ مأجور ، فالخطأ له أجره . لماذا هكذا؟ كيف نخدم الإسلام بضيق العقل؟ كيف نخدم الإسلام بضيق العقل في عرض الدعوة الإسلامية؟ لقد اضطررت كما قلت لكم أن أعود إلى دراسة الفقه مرة أخرى وأنا كاره . لماذا؟ لأن هوايتي الأدبية وهوايتي النفسية ، أن أدرس العلوم الإنسانية وعلم النفس والاجتماع والتربية والفلسفة وعلم الجمال والأداب وعلوم الأولاد الملل والنحل ، حتى يعرفوا الديانة التي تماربهم الآن كيف أنهم وضعوا أيديهم على بيت المقدس وفلسطين . فقال لي : لا تجوز هذه الطريقة ، ولا يصح لهم أن يطلعوا على مثل هذه الأشياء ، فقلت له : من سيطبع إذن؟ وقد ألغيت المادة ، بهذا البلاء . فالقصة إذن أنها لا بد أن نفهم الحقائق .

هناك مسائل قانونية أسأل فيها ، فرفضت أن أتقيد بمذهب ، لأنني أنشر الإسلام ولست سمساراً للمذاهب الأربع ، ولكنني سمسار للكتاب والسنة إذا صح التعبير ، ولكنني أختار من الفقه ما يساعد على دخول الإسلام في قلب هذا الرجل .

خبرني بالله العلي العظيم ، عندما أقول لشخص : نحن نتكلّم في حقوق الإنسان ، يا أخي نحن الذين اقتربنا هذه الحرية ، ففي مذهبكم : الكاثوليكي لا يتزوج بروتستانية ، ولكن الإسلام يقول إن المسلم يتزوج يهودية أو نصرانية ، فلا بأس من هذا .. لا إكراه في الدين . وعندئذ أجده شخصاً يأخذنى على انفراد - وهو من الخليج ، ويقول لي : يا أخي هذه الآية منسوبة ، قلت له : «لا إكراه في الدين» منسوبة؟ قلت له : قطع الله دابرك ودابر من نسخها .

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه : ﴿أَفَأَنْتَ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وفي عهد نوح ، نوح يقول لهم : أنا لا أكرهكم على ديني ، ثم بعد هذا نقول إن الإسلام يكره على الدين !! ومتنى أكرهنا على الدين ؟

الأمة في حاجة إلى أهل فقه ، الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ . وليس اسألوا أهل البلاهة والبلادة . ﴿لَعِلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فالفقه له رجال ، ولا يمنع أن بعض الناس عظيم جداً ، فسيدنا داود عظيم ، ولكنه عندما أراد أن يفتى في القضية أو يحكم فيها ، حكم حكماً . وقد بعث الله سليمان ، وقال فيه : الحكم هذا ليس جيداً . ونزلت الآية : ﴿فَفَهَمَّنَا هَا سُلَيْمَانَ وَكُلُّاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلِمَّا﴾ إذن فالناس لهم قدرة عقلية على الفهم والاجتهاد . وهذه هي الواجبات التي تحكم في قضايا الخلق ، وتقود الأم ، فالآمة الإسلامية ليست أمة لنفسها ولكنها أمة للعالم كله ، ولقد أحصيت اثنى عشرة آية في القرآن الكريم نزلت تؤكد عمومية الدعوة الإسلامية . وعندما أحصيت الآيات ذكرت متى نزلت فوجدها كلها نزلت في مكة ، أي في الأيام التي كان فيها الإسلام سجينًا ، يحاول أن ينطلق من الوثنية التي ضيق عليه آفاق الأرض وحبسته ، في هذا الوقت نزلت آيات كلها تفيد عالمية الدعوة .

وأنتي أقول في القرآن المكى ، ردًا على بعض المستشرقين الذين قالوا كاذبين إن محمداً مرسلاً للعرب وحدهم . وهناك كاتب شيوعي قال هذا الكلام في مصر . قال

هذا الدين للعرب وللعروبة فقط!! هذا الكلام فارغ وساقط . الإسلام هو أساسنا وشرفنا . فالمستشرقون يقولون إن هذا الدين للعرب والنبي ﷺ أغراه النجاح وأغراه الانتصار على العرب بأن يفتح ما وراء البلاد العربية!! كلاً هذا لم يحدث ، فمات النبي ﷺ والإسلام ما زال في مكة وفي الجزيرة ، وأهله الذين تربوا على يديه وتلامذته هم الذين قادوا الإسلام للعالم كله تنفيذًا لوصايا القرآن الكريم .

يُوْمَ أَنْ تَكُونُ دَاعِيَةً لِإِسْلَامٍ وَيَسْمَعُكَ مِنْ يَرَاكَ دُونَهُ عَقْلًا ، دُونَهُ عِلْمًا ، دُونَهُ خَلْقًا ، دُونَهُ مَسْتَوِيٌّ حَضَارِيًّا ، فَإِنَّهُ لَنْ يَسْتَمِعَ إِلَيْكَ وَلَنْ يَحْتَرِمَكَ ، فَالْأَسْتَادِيَّةُ لَهَا مَؤَهَّلَاتٌ وَلَهَا خَصَائِصٌ .

وهل هذا وقع عندما كان الفرس والروم والمصريون هم قادة العالم يومئذ والعرب ما زالوا مختلفين!! قال : لا ، إن الإسلام نقلهم نقله هائلة . فمثلاً فلسفة الحكم في الروم أو الفرس ، هل كانت تعرف كلمة عمر ابن الخطاب لوليه على مصر : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراً) لم تعرف هذه الفلسفة . هل كانت تعرف كلمة عمر :

(لو عثرت بغلة في العراق لحسبت عمر وهو في المدينة مسؤولاً عنها لم يسألها الطريق) .

فلسفة الحكم بهذا المعنى لم تعرف إلا في العصر الحاضر أو في عصر الخلافة الرشيدة . هل كانت تعرف كلمة عمر : (لو عزت لهم ليصلن الزاعي في صناعة حقه أو حظه من هذا المال) ، هذه فلسفة لا يعرفها الروم ولا الفرس .

إن البدوي كان أعلى مستوىً من رسم و من الفرس، عندما قال : جئنا نخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام ، جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد . فقد جاء بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب . هذا هو الفقه الإسلامي في أوله . وضررت مثلاً ولكن بعض الناس قد استغربوا . ولم أكن أنا الذي عملته ، ولكنه «ابن عابدين» الفقيه الحنفي المتأخر يقول : إذا وجد لقيط وقال ذمي هو ابني ، وكان الذمي حراً ، وقال المسلم هو عبدي ، أحقنا نسبه بالذمي ليكتسب الحرية ، قلت إن هذا دين يعمل ضد نفسه لأنه يعتنق الحرية!! هذا هو فقهنا الإسلامي الحقيقي . ولكن أين الفقهاء الآن؟ ولكن أكاد أجن لأن هناك أزمة طاحنة في الدعاة ، وأزمة طاحنة في الفقهاء ، وأزمة المثقفين المسلمين أزمة كبيرة جداً .

وأسائل الله لى ولكم التوفيق وأن يعيننا على خدمة ديننا وأن يجعلنا أهلاً لهذه الدعوة ولهذه الرسالة .. وصلى الله على محمد وآلـه ..

في النظام العالمي الجديد.. القوى يأكل الصعييف

ويستمر الحوار مع فضيلة الشيخ محمد الغزالى ذلك الحديث الشامل الذى أخذناه منه قبيل وفاته رحمه الله بزمن قصير ، ولا ننسى هنا حرص فضيلته على مجلة الدعوة وسؤاله عن أحوالها وعن أوضاعها وحرصه – رحمه الله – أن يخصها بهذا الحوار الشامل الطويل .. وقد تحدث فى الجزء الأول من حوارنا معه عن واقع الدعوة الإسلامية وسبل تطويرها .. واستنكر مهادنة بعض المسلمين لأعداء الإسلام على حساب دينهم وكرامتهم ، ووصف حال المسلمين الآن بأنه واقع مظلم ، وقال إن العنف والتطرف نتيجة طبيعية للجهل بالدين وضعف الدعوة بسبب إقحام المدعين وأنصار المتعلمين عليها .

وفي هذا الجزء من حوارنا معه يحذر الشيخ الغزالى من التيارات الإلحادية وحملات التنصير ، ويؤكد على أهمية إحياء الولاء لله والانتداء للأمة . وحذر الشباب من أن يستكبر برأيه ، وقال إن الاستكبار بالرأى رذيلة .. وأيضاً يتحدث الشيخ عن الأقليات المسلمة ، وما أسماه «وهم» النظام العالمي الجديد فإلى التفصيل .

التيارات الإلحادية

* يتکالب الأعداء على الإسلام ، وينشط أدعياء المذاهب الوضعية لاستقطاب المسلمين .. فما السبيل للمواجهة ؟

- لا ينبغي - والحال على هذه الصورة من تکالب الأعداء على الدين - أن يفوت دعوة الإسلام ضرورة دراسة الفرق والтирارات المعادية بجوار دراسة الإسلام في معارفه القديمة والحديثة دراسة واعية وجادة يقفون من خلالها على الأسباب التي جعلت تلك الفرق والтирارات تکسب مساحات من الأرض ، وتستحوذ علىآلاف العقول . ومن ثم يمكن التصدى لها .

ومع دراسة كل تلك الفرق دراسة موضوعية فإنه بإمكاننا أن نعرف كل ما يراد بنا وما يحاك لنا ومن ثم يسهل على المسلمين دفع المخاطر عن أنفسهم .

لكن من المؤلم أن بعض دعوة الإسلام لا يدرى شيئاً في كثیر من القضايا المعاصرة ، ولذا فهو يتوقف عن الأخذ بالجديد الذي يصل إليه علماؤنا المخلصون من

خلال جهودهم ودراساتهم وبحوثهم ، ومن ثم يقف هذا البعض عند معارفه القديمة التي يردها دون أن يستخلص منها النافع للأمة في هذا الوقت الذي تواجه فيه بمناهج اقتصادية واجتماعية وسياسية انتفعت بكل ما وصل إليه البشر من معارف حديثة .

الثقافة القديمة والحديثة

* يعني ذلك أن الداعية في الوقت الحاضر لا بد له من مواصفات محددة ، وهو يختلف عن سلفه الماضي ؟

- الداعية المعاصر يجب أن يقبل على تفهم حقيقة الدين الإسلامي الذي يحمل أمانة الدعوة إليه بين البشر من مختلف الألوان والأجناس والألسنة .. وعلى الدعاء أن يجتهدوا في تكوين اتصالهم الفكري والعاطفي بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وإدراكهما إدراكاً صحيحاً .

ولا يكون داعية ناجحاً من لا يبذل قصارى جهده في أن يكون طالب علم طوال أيام عمره . فالغوص في الثقافة الإسلامية سواء القديمة أو الحديثة أمر لا غنى عنه لأى داعية .. والثقافة الإسلامية القديمة أعني بها نتاج علمائنا من السلف الذين نهلوا من مختلف المعارف الدينية والتجريبية وتركوا لنا تراثاً هو مفخرة الثقافات كلها .

أما الثقافة الإسلامية الحديثة فاجتهدات علماء الإسلام المعاصرین من استفادوا بشكل طيب من مختلف التجارب التي خاضها المسلمون في الماضي ، ومن تاريخ العلوم الدينية والعلوم الإنسانية .. وهذا كله من الضرورات بالنسبة لدعوة هذا العصر حتى يواجهوا تحدياته العلمية وقضاياها التقدمية .

الولاء للأمة

* أكدتم في كتاباتكم على أهمية إحياء الولاء لله والانتداء للأمة في نفوس المسلمين وإلقاء راية الإسلام وتوحيداً للصف؟ فكيف ترون الطريق الأمثل لبلوغ هذا الهدف؟

- المؤسف أن تهمة عدم الانتداء أصبحت ظاهرة في الأمة الإسلامية وأن ضعف الولاء للإسلام جعل بعض أبناء المسلمين يخرجون على أهليهم زاعمين أن العودة إلى أحكام الإسلام نوع من الرجعية أو التخلف أو الانهزامية النفسية إلى غير ذلك من العبث الفكري الناتج عن التشويش المتعمد ضد تعاليم الدين .

والمؤسف أيضاً أن المسلمين في حاضرهم تشغلهم قضايا مصطنعة ودخيلة دستها عليهم أيدي أعدائهم عن العناية بقضاياهم المهمة التي تحتاج منهم للرعاية والجهد لضمان مستقبل مشرق لأمتهم . ومن ذلك رعاية متطلبات التربية الإسلامية الصحيحة للأجيال الجديدة ، بغية إيجاد وتكوين أجيال صادقة في علاقاتها بربها سبحانه وتعالى وبدينه الحنيف ، وموطدة لعلاقاتها بمجتمعاتها عن طريق الولاء الكامل والانتماء الواعي للمسلمين كامة تدين لله الواحد سبحانه وتعالى ، وترتبطها علاقة واحدة ، وتاريخ واحد ، وهدف واحد ، ومصير واحد .

ولعل أهم خطوات العلاج المنشود تمثل في توجيه المسلمين للتعرف الكامل والدقيق على حقيقة وحجم ما أصابهم من نكبات وألام ومصائب ، حتى يتتسنى لهم أن يختاروا من الأساليب والوسائل والمناهج ما يصلح لتنشئة الشباب والأجيال الجديدة على قيم الإسلام وتعاليمه السمحاء . وأؤكد على ضرورة العناية بتربية النشء داخل المجتمعات الإسلامية ، وحذراً لو أعدت مناهج تعليمية ، وخطوات ، وبرامج يمكن أن تتبعها الناشئة ورعايتها في مختلف سنى أعمارهم . والقدوة الصالحة ضرورة لتخلص الشباب من تحبطهم وحيرتهم .

أنصاف المتعلمين

* بمناسبة تنبئه فضيلتكم على ضرورة القدوة للشباب ، ما رأيكم في تلك الجماعات التي تستقطب الشباب وتأسره بفكرها وأرائها ورفض فكر ورأى الآخرين؟
- هذا يرجع إلى ترك المجال في الدعوة الإسلامية لأنصاف المتعلمين الذين يهملون القضايا الأساسية أو يجهلونها ، ويحدثون مجازر من أجل قضايا فرعية ، مما أصاب الإسلام في مقتل .

المعروف في الإسلام أن العصمة صفة لرسول الله ﷺ أما بقية البشر فمن طبائعهم الاختلاف في الرأي ، واحتمال الصواب والخطأ لهذا الرأي ..

ولا يقبل من أحدهم أن يؤكّد أن رأيه هو الصواب ولا يتحمل الخطأ ، ولكن يمكن أن يناقش ويأتي ببرهانه ليثبت أن الحق معه .. ولا يجب أن يستكبر أحد برأيه ، فالاستكبار بالرأي ردّة في الأخلاق ، ولو علم الناس أنهم إنما إذا أصابوا فهذا بفضل الله وتوفيقه ، وإذا أخطأوا فهذا بضعف نفوسهم وغلبة الشيطان لهم ، فإذا علموا هذا

استكانوا إلى الله وتواضعوا وقد أمر الله نبيه : ﴿قُلْ إِنْ ضَلَّتْ فَإِنَّمَا أَضَلُّ عَلَى نَفْسِي
وَإِنِ اهْتَدَتْ فَبِمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾^(١) فلنبحث عن الحق ، ونتمسك
به ، وإذا هدانا الله إلى علمه فيكون بتواضع ، دون غرور ، دون إهانة للآخرين .

وهم النظام الجديد

* في إحدى ندواتكم الفكرية قلت إن ما يحدث في العالم الآن ليس نظاماً جديداً .. والنظام العالمي الجديد وهم لا وجود له ، فما هي وجهة نظركم .. وكيف ترى مستقبل العالم الإسلامي في ظل هذا «الوهم»؟

- أعود وأؤكد أنه لا نظام عالمي جديد ، فالنظام لم يتغير ، لأن القوى مازال يسود ، والضعف لا حقوق له ، ومازال أعداء الإسلام يتربصون به ويحكون المؤمرات لإبادته وتنصير معتقديه ، ولكن هناك (آخر) ولا بد من التعامل معه .. والسؤال يكون كيف نتعامل مع هذا الآخر .. وما هو مستقبل العالم الإسلامي في ظل هيمنة الآخر؟ .. وهذه قضية خطيرة جداً لأن هذا الآخر هو الدائرة التي أدعوه فيها إلى ديني .. وهو أيضاً الذي يحارب ديني .. فالإسلام ليس ديناً للعرب وحدهم أو لافريقيا وأسيا فقط ، وإنما هو دين للعالمين جميعاً .

والمطلوب في التعامل مع الآخر هو حوار العقل والفكر . والاقتراب منه ، لهذا لا يجب أن أبدأ معه بقضايا ثانوية ، ولكن تكون قضيتي الأولى معه هي وجود الله . وما يستحقه الإله العظيم من عبادة وتكبير وإجلال ، وما ينبغي له وكيف نقترب منه ونسترضيه .. وكيف نستعد للقاءه . وهنا سنصل معهم خطوة خطوة إلى معنى كلمة (لا إله إلا الله) التي ندعوهم إليها ، وإذا أردنا أن تصل دعوتنا إليهم ، لابد أن نحسن معاملتهم كما يجب وكما أمرنا ديننا الحنيف . وأن ندعوهم بالحكمة والموعظة ، والمحجة والإقناع .

الأقليات المسلمة

* وماذا عن الأقليات المسلمة؟

- وضع الأقليات الإسلامية في العالم وضع سيئ للغاية ، فثمة تعذيب واضطهاد وإبادة يعاني منها المسلمون في كثير من الدول حتى الدول التي ترتبط بعلاقات طيبة

(١) س١: ٥٠ .

مع الدول العربية والإسلامية . وللأسف فإن الأقليات المسلمة هي وحدتها المقصودة بالاضطهاد والتعذيب والإبادة في بعض المجتمعات كما يحدث للمسلمين في الهند . والفلبين وبورما والبوسنة . وغيرهم في حين أن الأقليات النصرانية واليهودية وحتى البوذية ، والذين لا دين لهم يعيشون في أمن وسلام سواء داخل المجتمعات الأوروبية أو المجتمعات الإسلامية ويحصلون على حقوقهم كاملة ، بينما تحرم الأقليات المسلمة من معظم حقوقها وتعامل معاملة شاذة وغير مقبولة .

إن مناصرة الأقليات المسلمة في كل دول العالم واجب الحكومات الإسلامية . كما أن المؤسسات والجامعات الإسلامية مطالبة بدراسة أوضاع الأقليات المسلمة في كل دول العالم وتقديم العون المناسب واللازم لها .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أنأشكر خادم الحرمين الشريفين وحكومته الرشيدة وشعبه المؤمن على الجهد المبذولة من أجل الأقليات وأدعوا بقية الدول والحكومات لخنو هذا الحذو . فالمملكة قدمت الشيء الكثير للإسلام والمسلمين ويكتفى أنه البلد الإسلامي الواحد الذى يطبق أحكام الشريعة ويلتزم بها كاملة اليوم ونحن نقدر للمملكة هذا الدور الإسلامي الرائد الكبير .

فضيلة الشيخ: ماذا عن التفسير الموضوعي الذى تقوم به لتفسير آيات القرآن الكريم؟

- الهدف منه أنى أريد تقديم تفسير موضوعى لكل سورة من سور القرآن الكريم ، وأنا أحاول أن أقدم تفسيراً لمقدمة السورة وأخرها بشكل متراپط . صورة موضوعية للسورة ككل . فهو تفسير موضوعى وليس موضوعياً ركزت فيه على وحدة الموضوع فى السورة وإن كثرت قضاياها .

* وهل هناك هدف محدد من وراء هذا التفسير الموضوعى للسور؟!

- لقد شعرت أن هناك حاجة من المسلمين إلى هذا النوع من التفسير ، فقد صحبت القرآن منذ طفولتى فحفظته منذ نعومة أظفارى في الكتاب بقرية نكلا العنبر ، ومازالت مداوماً على تلاوته بانتظام ولله الحمد وأنا على مشارف العقد الثامن من العمر ووجدت أن ما أقتبس من معانٍ قليل وأن عيّى لا يتجاوز المعانى القريبة ، وشعرت بالقصص تجاه كتاب الله وحاوت أن أبذل جهدى في إتمام هذا التفسير .

* وهل هناك من سبق في وضع تفسير موضوعي لكتاب الله؟!

أنا لست مخترعاً لهذا التفسير فهناك محاولات سابقة بدأها فضيلة الشيخ عبدالله دراز - عليه رحمة الله - وألف كتاباً أسماه «النبا العظيم» تناول فيه سورة البقرة على أنها موضوع واحد ، وقد أتعجبني هذا التفسير فتأسست به ..

* وهل يغنى التفسير الموضوعي عن غيره من التفاسير؟!

- من قال ذلك ، هذا التفسير لا يغنى عن غيره فهو يتكامل مع التفسير الموضوعي للسور والآيات ، الجميع يكمel بعضه البعض ..

* حذرت كثيراً من تقصير المسلمين تجاه كتاب الله، لماذا؟!

- إنه لأمر غريب ، القرآن الكريم كتاب الله الذي أحيا أمّة من العدم تحول لدى بعض المسلمين إلى كتاب للموتى يقرأ في الجنائز أو يوضع على تابلوهات السيارات للزينة أو على أرفف المكتبات . والعياذ بالله هجران له وفوق ذلك بدع وخرافات ، في حين أن القرآن نزل ليقرأ والقراءة في جميع اللغات تعنى الفهم والتدبر والعمل بما نفهم . كما أنه دستور ومنهج ، ولننظر إلى تاريخنا الناصع عندما قرأ العرب الأوائل كتاب الله وفهموا معانيه وتدبروه وعملوا به تحولوا إلى أمّة تعرف الشورى وتكره الاستبداد .. أمّة يسودها العدل الاجتماعي وتبعد التفرقة العنصرية .. فالقرآن يبني الشعوب ويصون النفوس ويصنع الحضارة .. في العالم الآن ٥ مليارات من البشر محجوب عنهم نور القرآن الكريم لأن المسلمين أنفسهم محجوبون عن هذا النور وفائد الشيء لا يعطيه .

المؤسسات الإسلامية

* فضيلة الشيخ.. نجد في العالم الإسلامي من يوجه سهام نقده السام إلى المؤسسات والمراكز والهيئات الإسلامية العاملة على الساحة.. فكيف ترون دور هذه المؤسسات؟!

- إنه لأمر محزن أن نجد من يتطاول على هذه المؤسسات الدعوية التي تحمل هم الدعوة وللأسف بعض هؤلاء يحملون أسماء إسلامية ، ولا نجد لهم يتعرضون للدور التنصيري الذي تقوم به الكنائس .. المؤسسات الإسلامية لها دورها في الصحوة الإسلامية ولها نشاطها في التوعية والتوجيه والإغاثة ، فقد يكون بعضها مقصراً لأسباب مادية أو محدودة الدوائر لأسباب مختلفة .. إننا نريد أن نعين ونساعد هذه المؤسسات على أداء دورها ..

القمة.. والقاع

* تحولت في البلاد الإسلامية وفي الكثير من بلدان العالم واجتمعت مع أبناء المسلمين في بقاع شتى وشاركت في منتديات ولقاءات ومؤتمرات تتعرض لأوضاع المسلمين .. ترى هل توصلت إلى السبب الحقيقي وراء تخلف المسلمين بصفة عامة؟!

- نحن أمة لنا تاريخ طويل ، وحضارة كبيرة ، لقد لاحظت أن تخلف المسلمين أولاً يعود إلى بعدهم عن تاريخهم وعن إسلامهم وعن عقيدتهم ومحاولتهم أن يتلمسوا ما عند الغير ليكون سبباً في نهضتهم ، ويتركون دستورهم القرآن .. أمر محزن .. نحن أمة تاريخها الحضاري عجيب فالخط البياني قد يرتفع إلى القمة وقد يهبط فجأة إلى القاع .. إننا مطالبون أن نحكم كتاب الله في شتى أمورنا ولا نأخذ منه ما يرضي حالتنا وترك ما لا نريده ، لا بد من التطبيق الشامل ..

القدس.. والأقصى

* إسرائيل أعلنت أن القدس الموحدة عاصمة أبدية لها والمحاولات لهدم المسجد الأقصى مستمرة ومشاعر المسلمين في جانب وما يدور في الدهاليز من مؤامرات حول المسجد الأقصى وقبة الصخرة في جانب آخر .. ففي ظل «مرحلة الهرولة» كيف يستعيد المسلمون المسجد الأقصى ؟

- عندما يستعيد المسلمون حكمهم لأنفسهم ويحكمون بكتاب الله وسنة رسول الله ، وعندما يصبحون أهل شرف وقادة وينتجون ما يستحقون ولا يعيشون عبيداً على الغير ، وعندما يصبحون أهل شرف وقدرة على أداء حقوق الله عندئذ فإن الله سوف ينصرهم .. ولكن علينا أن نحاول بكل ما نستطيع استعادة القدس ..

وعندما تكون القدس محطة والمسجد الأقصى أسيراً يظل الجihad فرض عين على كل مسلم فلا يمكن أن نقبل سلاماً دون القدس ..

خطوطننا الداعية

* في عصر الأقمار الصناعية والبث الفضائي ومحاولة الغرب فرض ثقافته وسلوكياته على العالم الإسلامي ألا ترى أن هناك خطراً على المسلمين ؟ !

- الغرب يعلن الحرب على الإسلام ، والغزو الثقافي لديار المسلمين مستمر ومع انتشار الوسائل الحديثة والتكنولوجيا في علوم الاتصال فالغزو يزداد قوة ، ولا بد من المواجهة .. مواجهة هذا الغزو بكل قوة فكريأً وعقديأً وتربويأً .. إن خطوطننا الداعية

مهدهدة من الداخل من قبل العلمانيين والشيوعيين والمستغربين الذين يريدون ثقافة وفکر الغیر يتحكم فینا ومن الخارج من الغزو الفکری .. إننى أشعر وأحس أن خطوطنا الدفاعية مهدهدة من خلفها وأن المؤامرات تحاك على الإسلام من كل جانب وأمة الإسلام غافلة وأن هذه المؤامرات أخذت أبعاداً جديدة .. لقد وهنت قوى المسلمين بسبب الضربات الشديدة التي وجهت إلى العالم الإسلامي - ثقافية وسياسية واقتصادية وعسكرية - ومع ذلك سيبقى الخير في هذه الأمة بإذن الله .

المستقبل للإسلام

* البعض يرى أن عقد التسعينيات شهد انحساراً للصحوة الإسلامية وهناك من قال إن الصحوة الإسلامية في حالة جزر فهل هذا صحيح ؟ !

- هذا كلام غير صحيح فإذا كان هناك من يتخيّل أن الصحوة الإسلامية في حالة جزر فهم واهمون فلا أمل في المسلمين بدون الإسلام .. والصحوة الإسلامية هي معبر المسلمين إلى القرن الحادى والعشرين والذين يقولون بأن الصحوة الإسلامية في حالة جزر يدلّلون بذلك على الضربات التي وجهت لأبناء المسلمين في أماكن شتى ولكن الصحوة الإسلامية ستستمر في الصعود بإذن الله .. وسيكون القرن القادم قرن الإيمان .. وقرن الإسلام بعد نهاية الشيوعية وبداية تفكك المادية الرأسمالية .

حروب الغزالى

* دخلت في حروب شتى مع العلمانيين ومع المتصريين والدور التخريبي للكنيسة ومع الشيوعيين وصرت مصنفاً في القائمة السوداء لهؤلاء جميعاً فهل ما زلت في حرب معهم ؟ !

- إننى أسأل الله عز وجل أن أكون على الحق وأدعوه له ، أنا مع الإسلام ومع القرآن ومع السنة .. ولا يهمنى إن كان النصارى أو اليهود أو الشيوعيون وغيرهم من الملاحدة يصنفونى في أي قائمة ..

أنا همى الإسلام والدعوة إلى الله وكشف أباطيل هؤلاء ضد الإسلام .. فماذا يكسب النصارى من سياساتهم الحاقدة التي ينتهجونها ضد المسلمين ، إنهم يريدون تقويت الإسلام ومحاصمه أهله وتكريس العمل التنصيري في ديار المسلمين ..

* فضيلة الشيخ، أمنية تريد أن تتحقق ؟ !

- أن أرى المسلمين وحدة واحدة ، وديارهم مستقرة ، وأرى جميع المسلمين يعودون إلى دين الله .

عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق

كان الوحي الإلهي قدّما ، يتخير بقاعاً من الأرض لينزل بها ، كما ينزل الغيث في مكان دون مكان . لكن بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت نقلة جديدة بالعالم كله ، وتحولأ في حركة الوحي الإلهي على ظهر الأرض ، إذ جاءت الأخريرة لكل بشر يعقل ما يسمع ... ثم هي قد صحبت الزمان في مسيرته ، فإذا انتهت جيل من الناس ، فإن الجيل الذي يليه ، مخاطب بها ، مكلف أن يعيش في سناها . والإجماع معقود بين المسلمين على عموم الرسالة وخلودها ، ونريد أن نلقى نظرة على الآيات التي دلت على عالمية الرسالة لنجعل من هنا حكمًا محدداً . قال تعالى في سورة التكوير : ﴿فَأَيْنَ تَذَهَّبُونَ﴾ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (١) ، وقال في سورة القلم : ﴿وَإِنْ يَكُادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لِجَنُونٌ﴾ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) .

وقال في سورة سباء : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

وقال في سورة الفرقان : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (٤) .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٥) .

وقال في سورة يوسف : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ لَوْ حَرَصَتْ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٦) .

وقال في سورة الانعام : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٧) .

(٣) سباء : ٢٨ .
(٤) يوسف : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) القلم : ٥١ .
(٥) الأنبياء : ١٠٧ .

(١) التكوير : ٢٦ - ٢٨ .
(٤) الفرقان : ١ .
(٧) الأنعام : ١٩ .

وقال أيضاً في السورة نفسها : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمَا هُمْ أَفْتَدُهُمْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) . وهذه الآيات كلها مكية ، أى عالمية الرسالة تقررت منذ الوحي وفي الأيام التي كانت الدعوة فيها تعانى الأمرين .

كان القرآن يقرر أنه رسالة للعالم كله ، في الوقت الذي كان فيه أهل مكة يستكثرون أن يكون محمد ﷺ رسولاً لهم وحدهم ! ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه العالمية ، اكتفاء بما تمهد في صدر الدعوة ، إلا آية واحدة من سورة الأحزاب هي قوله جل شأنه : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ﴾^(٢) . وختم النبوة تقرير لهذه العالمية ، فإن القارات الخمس إلى قيام الساعة لن يطرقها من السماء طارق ، ولن يجيئها من عند الله رسول ، وسيبقى كتاب محمد ﷺ وحده ، صوت السماء بين الناس ، إلى أن يحشدوا للحساب فيقال لهم : ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثَ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثَ وَلَكُنُوكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) وأية ختم النبوة ، صدقتها الأيام المتتابعة ، فها قد مضت أربعة عشر قرناً ، وما نزل من السماء وحى . وقد حاول الاستعمار الأوروبي أن يضع يده على مخبول في الهند ، وأخر في إيران ، ليصنع منها أنبياء يكابر بهما نبوة محمد ﷺ وهيئات هيئات ! فإن الأوروبيين أنفسهم احتقروا الرجل الذي صنعوه ، فما تبع أحدهم نبي الهند ، ولا نبي العجم ، وببدأت اللعبة تتكشف ويفر عنها المستغفلون ! إن الصباح العريض الذي بزغ مع رسالة محمد ﷺ ، سوف يظل وحده النور الذي يغمر العالم ويملاً الأفق ، إلى أن يأذن الله بانتهاء الحياة والأحياء .

وإنما لفتنا النظر إلى أن الآيات الناطقة بعالمية الرسالة مكية ، كى ندحض فرية البعض المستشرقين ، الذين زعموا أن محمداً ﷺ ، بدأ عربى الرسالة ، معنى بقومه وحدهم ، فلما نجح فى إخضاعهم ، أغراه النجاح بتوسيع دائرة الدعوة ، فزعم أنه للخلق كلهم ! وهذا تفكير متهاوى بين السخاف ، فقد رأيت بالاستقراء ، أن عالمية الرسالة ، تم التصريح بها فى أوائل ما نزل من الوحي !

ثم نسأل : متى تم خضوع العرب لمحمد ﷺ حتى يغريه النجاح بمزيد من التوسيع ؟ إن مكة التى طاردها ، لم تفتح له إلا قبل الممات بستين اثنين ، فأين استقرار النصر ، والتطبيع إلى إخضاع الدنيا ، وهو لما ينته من الجزيرة العربية نفسها ؟؟

. (٢) الروم : ٥٦.

. (٣) الأحزاب : ٤٠.

. (١) الأنعام : ٩٠.

إن هذا الفكر الاستشرافي ، لم يلق حفاوة من عاقل ، ولذلك نخلص منه ، لنقرر حقائق أخرى ، نابعة من هذه الحقيقة المؤكدة ، إن محمداً رسول العالم من رب العالمين ، وأول ما نقرره أن هذه الصفة انفرد بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فكل الأنبياء من قبله محليون ، رسالتهم محدودة الزمان والمكان . ابتداء من آدم إلى عيسى .

والنصارى يرون أن رسالة عيسى عالمية ، وينطلقون بها في كل مكان ، ليبلغوها وينشروها ، ونحن نحب نبى الله عيسى ، ونعتقد أنه رسول حق إلى بنى إسرائيل خاصة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرِيمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمَهُ أَحْمَدُ﴾^(١) .

على أن النصرانية ، التي تشيع بين الناس اليوم ، وتساندها قوى كثيرة ، تختلف رسالات السماء كلها ، إذ هي فلسفة ، تجعل من عيسى إلهًا ، أو شبه إله ، يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، يغفر الذنوب ، ويحاسب الخلائق .

والنصرانية بهذا المفهوم المستغرب لا يعنيها أن تكون عالمية أو محلية لأنها شيء آخر غير ما ينزل به الوحي على سائر الرسل ، قال تعالى لنبيه محمد : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾^(٢) إن هذه النصرانية الجديدة ، لا تتصل بعيسى الذي مهد محمد ﷺ ، كما لا تتصل بعيسى الذي بلغ تعاليم إبراهيم وبنيه ، ومن ثم فهو في نظرنا منهج بشري مستقل ، بأفكاره عما قبله وعما بعده ورجل الله ، يصدق بعضهم بعضاً ويهدى السابق للاحق ما استطاع .

رسالة محمد ﷺ ، أقامت مفهوم العالمية فيها على أن الدين واحد من الأزل إلى الأبد ، وأن الأنبياء إخوة في التعريف بالله ، والدلالة عليه ، واقتضاء البشرية إليه .. وأن القرآن الكريم جمع في سياقه الباقى ، كل ما تناثر على ألسنة النبيين من عقائد وفضائل ؛ ولذلك فإن الإيمان بهم جميئاً مطلوب ، والكفر بأحدهم اسلاخ من رسالة محمد ﷺ نفسه . ومن الطبيعي أن تبدأ الرسالة عملها في بقعة ما من أرض الله وقد شرع النبي العربي محمد ﷺ ، يعلم الأميين عبدة الأوثان ، ويرشد الحائرين والجادين من أهل الكتاب ، وبعد تسعه عشر عاماً من الدعوة الدائبة استطاع أن يظفر من الوثنية الحاكمة بحقه في الحياة ، وحق من يتبعونه في العيش بدينهم والتجمع عليه .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

(١) الصاف : ٦ .

عندما نال هذا الحق ، فى معايدة الحديبية ، وأصبح له موضع قدم يستقر فيه ،
ويدعوه منه ، أخذ يرسل إلى أهل الأرض يبلغهم الحق ، ويفتح عيونهم على سناء .
ومن أهل الأرض يومئذ؟ الروم غربى الجزيرة وشمالها . والفرس فى الناحية المقابلة ،
وحكام آخرون ، يعيشون فى جوارهم ، أو يدورون فى فلكهم .

هل كان وراء الرومان من يفهمون الخطاب شمالى أوروبا أو وسطها؟ أو وسط إفريقيا
وجنوبها؟ كانت هناك قبائل السكسون ، والجرمان ، والعدالة ، والوندال ، وقبائل أخرى
مشابهة لها فى إفريقية ، وكانت هناك وراء الفرس ، شعوب جاءت وصفتها فى قصة ذى القرنين
فى القرآن الكريم بأنهم لا يكادون يفقهون قولهً وعلى أية حال ، فإن النبي المبعوث للعالم
أرسل إلى إمبراطور الروم وملك الفرس ، وحاكم مصر ونجاشى الحبشة ، وإلى الأمراء
المنتشرين حول الجزيرة العربية يدعوهم إلى توحيد الله ، واعتناق الإسلام لعله ، بدأ بالجيران
الذين يلونه فبلغ أمر ربه ، حتى إذا أتم هدايتهم تجاوزهم إلى من يلونهم من أنجاس البشر .

أول عل الفكر البشري فى هذه الأونة لم يبلغ درجة الوعى ، وأهلية الخطاب إلا فى
هذه البقاع المتحضرة التى ظهرت فيها جمهرة الرسالات السماوية من قديم .

على أية حال ، فإن اليقظة الإنسانية التى بدأت فى جزيرة العرب ما كانت نهضة
جنس متفوق ، ولا طماح زعيم متطلع ، بل كانت حركة قبيل من الناس ، اختارتهم
العناية العليا ، ليربطوا جماهير البشر بالله الواحد ، وليسروا فى هذه الدنيا ، وفق هداه
لا وفق هو لهم : ﴿كَتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢) .

وأكذب الناس على الله وعلى عباده ، من يزعم الإسلام طوراً من أطوار البعث
العربي ، إن هذا الكلام ، لا يساويه فى الرخص والغثاثة إلا ما تضمنه من إفك
وتضليل ، فإن محمدًا عليه الصلاة والسلام رفض رفضاً باتاً أن يكون للعرق ، أو اللون
أو القوة ، أو الشروء ، أى رجحان فى موازين الكرامة الإنسانية ، والمحور الذى دار عليه
الإسلام ، هو التوحيد فى العبادة ، والتشريع ، واخلاص الوجه لله : ﴿وَتَمَتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (٢) وقد قلنا ، ولا نزال نقول : إن الله تعالى ربى

(٢) الأنعام : ١١٥ .

(١) إبراهيم : ١ - ٢ .

محمدًا عليه الصلاة والسلام ليربى به العرب وربى العرب بمحمد عليه الصلاة والسلام ليربى بهم الناس ، فرسالة العرب أن يكونوا جسوراً لهدايات السماء ، وأن يعلموا الخلق ما تعلموه من الخالق .

وإذا كانوا تلامذة خاتم الرسل ، فهم بما درسوا أستاذة للشعوب الأخرى تتلقى عنهم وتستضيء بهم . وهذه المكانة للأمة العربية مكانة عالية حقاً ، بيد أنها لا تقوم على الدعوى بل على البلاغ ، ولا تقوم على البطالة ، بل على التضحية ، وذلك معنى قول الله تبارك اسمه :

﴿ هُوَ سَمَّاَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلٍ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنَعَمَ الْمَوْلَى وَنَعَمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨) .

وقد قامت دولة الإسلام بدورها العالمي هذا على عهد النبوة ، وأيام الخلافة الراشدة ، وتدافع التيار إلى مدار أيام الأمويين ، والعباسيين ، والعثمانيين ، وإن كان هذا التيار قد شابه من الكدر والدخن ما أزري به وحط قدره حتى توقف آخر الأمر !

وال المسلمين في هذا العصر يكادون يجهلون أن لهم رسالة عالمية ، بل إن حياتهم وفق شرائع دينهم وشعائره موضع ريبة وقد تكون موضع مساومة !

وأذكر أن حواراً دار بيني وبين الأستاذ «على أمين» بعد ما كتب يستنكر أذان الفجر ويزعم أنه يزعج النائم المستريحين (!) قلت له : إن إيقاظ الناس للصلوة مقصود قصدًا وفي أذان الفجر كلمة تقول : الصلاة خير من النوم ! قال : من أراد الصلاة فليشتر «منبهًا» يوقظه ليصلح . قلت له : إن جمهور المسلمين وهم كثرة هذا البلد يريدون الصلاة علانية ويريدون أن يصبحوا الحياة الاجتماعية بها ، وأن ينظموا نومهم وانتباهم على أوقاتها ، فإذا شاء الكسالى غير ذلك فليتواروا بإثمهم ، لا أن يفرضوه على المجتمع ويطلبوا من المؤمنين التوارى بدینهم .

وأشهد أن الرجل لان وتأثير واستكان ، وأرجو أن يكون قد تاب ومات مغفوراً له ، وإنما ذكرت هذا الحوار ، ليعرف من جهل مبلغ ما انحدرت إليه أمتنا !

(١) الحج : ٧٨ .

إن الشيوعية تريد أن تكون نظاماً عالياً، وكذلك المادية والإباحية، وكذلك الصهيونية والصلبية، أما الإسلام فإن طبيعته العالمية يراد إنكارها، وإذا تم ذلك فإن وجوده الحالى ينبغي الخلاص منه والإجهاز عليه . . .

وأريد أن نعرف : من نحن؟ وما ديننا؟ وما هدفنا؟ وما طبيعة جهادنا؟ إننا ورثة الإسلام وحملته وأصحاب الحضارة الوحيدة التي تعرف بالدنيا والآخرة ، والروح والجسد والعقل والعاطفة .

وفي قرآننا وسنة نبينا صلاحتنا وصلاح العالم من حولنا ، وقد هنا على أنفسنا ، فكان طبيعياً أن نهون على غيرنا ، وزهدنا في ديننا ، فكان طبيعياً أن يزهد العالم فيه . وقد بدت في الأفق تباشير عودة ناجحة إلى هذا الدين العظيم فلنصور بدقة طبيعة النور الذي خصنا الله به ، طبيعة الرسالة التي شاء الله أن تتحقق الحق وتبطل الباطل وتهدى الخيارى في المشارق والمغارب ويفرض علينا هذا المعنى أموراً ذات بال . .

أولها : ما دام محمد عليه الصلاة والسلام للعالم كله وليس للعرب خاصة ، فيجب على العرب - وهم الذين تحدث محمد ﷺ بلغتهم ، وكلفوا بنقل رسالته إلى غيرهم - يجب عليهم أن يوصلوا هذا القول إلى كل قبيل من الناس ، وبكل لغة يتم التفاهم بها .

أى أنه يجب عليهم أن يتقنوا اللغات العالمية ، وما استطاعوا من اللغات المحلية ، وأن يودعواها خلاصة كافية هادبة من تعاليم الإسلام في مجال العقيدة والخلق والعبادة وشتى أنواع المعاملات ، وأن يذكروا بدقة ولطف الفروق الكبيرة بين أصول الإيمان عندنا وعند أهل الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

إن هذا الواجب لم يكن منه بد ، حتى لو كان الميدان حالياً لنا وحدنا ، كيف وهناك أجهزة عالمية ضخمة . تخصصت في تحريف الإسلام وإهانة نبيه ؟ عليه الصلاة والسلام . فكيف وقد تأمرت على الإسلام شتى القوى ، وتأليب ضدّه خصوم خبيثاء ، يصطادون الشبه ويتمسون للأبراء العيوب ؟

إن الاستعمار ، سخر أجهزة إلحادية وصلبية سبقتنا إلى أجيال كثيفة من الزنوج والجنس الأصفر ، تركت في نفسه سموماً ضدّ محمد عليه الصلاة والسلام ودينه وانتهت الصمت الذي خيم على أجهزة الدعاية الإسلامية والسلبية المشينة التي لذنا

بها ، وراحت تكذب وتكذب حتى نجحت فى تلويث سمعتنا ، وقدرت على غرس تدين مختل الأصول ، مضطرب السلوك . وأمكنها بسهولة أن تصد عن سبيل الله وتردم معالم الصراط المستقيم ! إن ذلك يوجب علينا الإحساس المضاعف بخطئنا وتخلينا ويحملنا عبء المسارعة إلى تعليم الجاهل ، ومراجعة المخدوع وتعريف الناس بربهم الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وربطهم بالدين الذى حمل رايته جميع الأنبياء ، ثم نقاوه وشد دعائمه وثبت أهدافه النبي الخاتم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه .

والأمر الثانى : المتصل بعالمية الرسالة ، يرجع إلى اللغة العربية . فلغة الرسالة الخالدة ، يجب أن تتبوأ مكانة رفيعة لدى أصحابها ، ولدى الناس أجمعين ، فإن الله باختياره هذه اللغة وعاء لوحيه الباقي على الزمان - قد أعلى قدرها وميزها على سواها والواقع أن اللغة العربية ، مهاد القرآن وسياجه فإذا تضعضعت وأقصيت عن أن تكون لغة التخاطب والأداء ولغة العلم والحضارة ، أوشك القرآن نفسه أن يوضع في المتاحف ، ولهذه الغاية الخاسرة تعمل فئات غفيرة من المستعمرين وأذنابهم . وما أكثر أولئك الأذناب في الجامعات والمجامع ودور الإذاعات ، والصحف وغيرها ؟

إن آباءنا عليهم الرضوان نشروا اللغة العربية بكل الوسائل المتاحة لهم ، وما تأسست مدرسة خدمة الدين ، إلا انقسمت علومها بين مناهج الشريعة ، ومناهج اللغة والأدب .. ويلاحظ الآن انكماش مفزع في هذا الميدان ورواج سمعج للهججات العامية والمصطلحات الأجنبية ، والترجمات الركيكة ، والكلمات الدخيلة ..

واللغة العربية لا تخدم بالحماس السلبي ، بل لا بد من إعادة النظر في شئون شتى تتصل بكيانها وتعاليمها .

ولنفرق من الآن بين طرق تعليمها للتلامذة الأجانب وتلامذتنا ، ولنبتكر أساليب ميسورة لتدريس المصادر ، وتصريف الأفعال وجموع التكسير وأنواع المترادفات وغير ذلك مما يعانيه طلاب العربية ..

إن هناك لغات لم يشرفها الله بمحبيه ، ولم تصبح حضارة إنسانية مشرقة يخدمها أبناؤها بذكاء نادر ، فما دهى العرب حتى تركوا لغتهم توشك أن تكون من اللغات الميتة أو الثانوية في هذه الدنيا !

إننا عجزنا عن جعل اللغة العربية لغة أولى بين الألف مليون مسلم ، الذين يعتقدون بالإسلام ، وهذا وحده فشل ذريع نؤاخذ به يوم الحساب ، ويرجع هذا الفشل إلى أن العرب

أنفسهم لا يجلون لغتهم . بل لقد استطاع الاستعمار الثقافي أن يكرهها لهم أو يحرقها لديهم فأى بلاء هذا؟ والمطلوب الآن للفور إقصاء اللهجات العامية والرطانات الأعجمية عن جميع منابر الصحافة والإعلام وإعادة الحياة إلى اللغة الفصحى فى كل محفل .. وأكرر مطلبًا آخر ذكرته فى أحد المؤتمرات وهو إنشاء مدارس وإرسال بعثات لنشر اللغة العربية وحدها أى دون ربط اللغة بالدين ، فإن هذا التعليم المجرد سيوسع القاعدة الثقافية للغة القرآن ، وسيكون يوماً ما رافداً من روافد الحق والإيمان .

والأمر الثالث والأخير فى عملية الدعاوة يتصل بالوضع الأدبى والمادى داخل الأمة الإسلامية نفسها . إن الخلق الزاكي لغة إنسانية عالمية تعجب وتقنع ، وبهذه اللغة تناهى الصحابة والتابعون مع الشعوب التى عرفوها وعرفتهم فدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

أى أن القدوة الحسنة فردية كانت أو جماعية تفرض احترام العقيدة والحفاوة بها وهذه القدوة ليست دوراً تشيلياً يؤدى بالخداع واجتذاب المشاهدين كلا! فحبيل الكذب قصير ، إن هذه القدوة هي الحلاوة فى الثمرة الناضجة أو الرائحة فى الزهرة العاطرة ، أى هى نضج الكمال الذاتى ، وقد شاء الله أن يؤتى السلف الصالح أنصبة جزلة من هذا الحسن الذاتى ففتحت لهم المدن العظام أبوابها وألقت إليهم الجماهير بقيادها .

واننى أشعر اليوم بغضاضة شديدة حين أرى السائرين والسائحات يجوبون بلادنا ويدرسون أحوالنا ، ثم يتتجاوزوننا بقلة اكتراث أو باستهانة باللغة !

إنهم لا يرون - فيما يشهدون - أثر الإسلام الحق فى نظافته وسموه بل يرون شعوبًا أقل منهم كثيراً فى المستوى الحضارى ولا أقول فى المستوى الخلقى المعتاد .

وتلك أحوال تصد عن الإسلام ولا تغرى باعتنائه ، وعالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديرة بالإكبار . أو على القليل جديرة بالسؤال عن حقيقة الإسلام لمن لم يعرفوا هذه الحقيقة ، وما أكثرهم فى أرض الله .

هزائم إسلامية.. رهيبة النتائج

قد يظن البعض أن هذه الهزائم هي ما أصاب العاملين في الميدان الإسلامي من تقييل وتعذيب ، وما لحق بهم وبأهلهم من بلاء عظيم .. لا ، إن للحديث هنا هدف آخر لا بد من شد الانتباه إليه وإلا ضقنا ..

وَمَا نَهُونَ مِنَ النَّكَالِ الَّذِي مَسَ جَمَاهِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَلَالِ رَبِيعِ قَرْنٍ ، وَلَكُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مِنْ
اسْتِشْهَدَ مَغْبُوطًا عَلَى مَكَانِتِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنَّ مِنْ جَرْحٍ أَوْ أَهْيَنَ أَوْ اضْطَهَدَ قَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ ، وَأَنَّ النَّتَائِجَ الْأُخِيرَةَ لِهَذِهِ الْحَرْبِ ضَارَتِ الظَّالِمِينَ أَكْثَرَ مَا ضَارَتِ الْمُظْلَومِينَ ..

إن الحسين لو انتصر في كربلاء ما هز الملك الأموي ، ولأوشك الأمويون أن يداووا ما
ربما نالهم منه ، ولكن مصرع الحسين في كربلاء وانكشاف أهل البيت معه كان الزلزال
الذى جر الأمويين إلى الرغام ..

وشهداء الإسلام على يد جمال عبد الناصر وطغمة سيبقون إلى آخر الدهر مشعلًا
للكفاح وعارًا على الفراعنة الطغاة .

لندع هذا الحديث إلى حديث آخر أهمنى أمره وأزعجنى وقعه وأحسست معه أن القوى المعادية للإسلام ألحقت بنا هزيمة نكراء إن لم ندركها أنت علينا من القواعد . لقد رأقت المسلمين خلال رمضان وتحسست الموقف من فريضة الصيام وأخذتنى غصة .. ركبت عدة طائرات فى أسفارى فما وجدت صائمًا بين المئات إلا نفرًا يعدون على الأصابع ، وكان الطعام يوزع جهاراً نهاراً دونما حرج ولا وجع ..

ولم أستطع التعليق على هذا الإثم لأنني قدرت أن الاعتذار العاجل هو : نحن مسافرون! ذلك لو اعتذر أحداً! ويعلم الله أنهم يفطرون عن عمد لا عن عجز وأن أحداً منهم لا يفكر في قضاء ولا فدية ، وأن أحداً منهم لم يحاول أن يقدر حرمة الشهر ويتواري بفطره عن العيون .. بقية حياء!

وعدت إلى القاهرة عاصمة العالم الإسلامي فوجدت الصائمين كثيرين والمفطرين كثيرين ، وفي بعض مواقع العمل وجدت المفطرين كثرة ظاهرة ، والأدهى أن أحداً لا يستطيع زجرهم أو التنديد بمعصيتهم ! قلت : لقد استفحـلـ الشـرـ ، رـبـماـ قـدـرـ الشـيـوعـيـونـ أوـ الـصـلـيـبيـونـ أـمـسـ القـرـيبـ عـلـىـ اـصـطـيـادـ طـالـبـ غـرـ ، رـبـماـ خـدـعـواـ - باـسـمـ الثـقـافـةـ المـزـعـومـةـ .

أمرأً قليل الفطنة ، أما أن تفلح هذه العناصر في الوصول إلى جماهير العمال أو الفلاحين لتغريهم بالتمرد على فرائض الله فهذه طامة كبرى هذه هزيمة إسلامية شديدة!

كان هناك مسلمون يكسلون عن الصلاة فإذا جاء رمضان صاموا مع الصوام وسيطر على سلوكهم ظل من وقار الشهر الكريم فانتظموا مع القافلة العابدة لله الخريصة على رضاه ، أما اليوم فالجرأة على الإسلام عطلت الصلاة والصيام جميعاً ، وأغرت أعداداً كبيرة أن تجاهر بالإثم وأن تتحلل من قيود الإيمان وشعار الهدى .

هذه هزيمة إسلامية كبيرة ، إن كياننا مهدد في صميمه ولا يمكن التهويين من الانتصار الذي أحرزته القوى المعادية للإسلام في هذا الميدان .

قد يقال : إن السلطة التنفيذية مسؤولة عن وقف هذا التحلل . وهذا قول مرفوض! إننى أعلم أن جراثيم النخر التي تسليت إلى مجتمعنا المؤمن تسليت إليه فى حماية مسلحة تارة بالقهر المادى وتارة بالضغط الأدبى .. ومع ذلك فأنا أرفض أى عبادة ينشئها قانون مرعب فإن الأصل في العبادات أن تتبعت من ضمائير تقية وقلوب مهدية ، إنها استجابة لإيمان عميق وتدين خالع ، وإنما يجيء دور القانون في ردع الشذوذ والفوضى ، أى في رد جراثيم التحلل التي أشرنا إليها آنفاً والتي انطلقت إلى غايتها في كنف الاستعمار والحكومات الموالية له والمتأثرة به!

دور جماعة الإخوان ، وسائر الجماعات الإسلامية الأخرى لابد أن يبرز في تربية الأجيال الناشئة ، وأخذها بالإقناع والأسوة الحسنة كى يبقى ولاؤها لدينها ، وارتباطها بتعاليمه ، نعم لقد نزلت بال المسلمين المكافحين ضربات موجعة ، بيد أن هذه الضربات لابد من احتمالها برجولة ، ولا بد من التغلب عليها لاستنقاذ المجتمع الإسلامي من الكوارث التي حلت به وأذهلت عن شعائره المقدسة وتقاليده النبيلة .. إن بعض الناس يتصوروننا منافسين على الحكم متطلعين إلى مناصبه ، وهذا خطأ ، فشغلنا الشاغل هو الحفاظ على الإسلام ودعم أركانه والإمساك بعراء كلها .

إن الحكومات المتجهة للإسلام جعلت مواقيت الأعمال شاغلة عن مواقف الصلاة بالنهار ، وجعلت برامج التسلية صارفة عنها بالليل ، وقد سمعت قصائد الغزل في شهر الصيام والتحيات المقدمة لوجهه الجميل ، وإنما أبهت لها لأنها حجاب غليظ عن العبادة الصحيحة ورأيت جوانب الحركة والنشاط التي يتعرض لها الصغار والكبار فتشاءمت منها ، لأنى رأيت بعينى صور الفتية اليهود يحملون السلاح ويتدرّبون منذ نعومة أظفارهم على مقاتلية العرب وتسجيل ضياع فلسطين إلى آخر الدهر .

إن المجتمع الإسلامي يتربّح تحت اللطمات الهائلة التي تناولته من اليمين واليسار . وعلى المسلمين المخلصين من دعوة ومدعويين أن يسارعوا إلى مساندته قبل أن يسقط ، وذلك بال التربية الجماعية الوعية الهدافية ..

والحكم الإسلامي المنشود ليس هيكلًا من حجارة .. أو من ناس كسائر الناس ، إنه يقوم ابتداء وانتهاء على الرجل المسلم الرجل الذي إن قام قامت معه الصلاة والزكاة ، وانتعشت في ظلاله الضمائر التي تحرس المصلحة العامة ولا يعنيها إلا ابتغاء وجه الله ..

المفروض أن نشتغل بتربية هذا الفرد وأن نوفر كل العناصر التي تتطلبها هذه التربية لقد لاحظت في بعض البلاد الإسلامية أموراً لها ما بعدها! مستشفيات احتجت إلى مرضيات ، فجيء بالمرضيات كلهن من المبشرات الهندیات! وبين خمسين طبيباً عينوا لاحظت أن المسلمين منهم أحد عشر .. لا غير!

ورمت بأسف بعض دور التعليم خصوصاً دور الأطفال فوجدت الإشراف الإسلامي مفقوداً لأن أرباب هذه الدور غير مسلمين وقد نشأ عن تجاهد النشاط الإسلامي في ميادين الثقافة والمجتمع ما لا يمكن السكوت عنه .

في لبنان الآن مائة ألف يتيم مسلم قتل آباءهم ضغنو أسود على الإسلام ونبيه وأمته ، ما مصير هؤلاء الأيتام البائسين؟ أخشى أن يتعرضوا لما تعرض له مئات الآلوف من أطفال أندونيسيا الذين تخلّفوا عن الحرب الأهلية الأخيرة! لقد حلّت مشكلتهم ملائج التبشير ما دام النشاط الإسلامي «الشعبي» .. صفرًا ..

إنني أصبح محذراً من مغبة الهزائم الإسلامية في مجالات شتى لا بد أن نثبت فيها وجودنا وأن نتحامل على جراحاتنا ونستأنف السير ولو نزفنا الدم! العاملون في الميدان الإسلامي مجندون اليوم لا للمشاركة في نشاط سياسي طويل المدى أو قصيري ، بل للدفاع عن العقائد والعبادات والأخلاق والتقاليد الإسلامية التي اخترق الاستعمار الثقافي خطوطها في أماكن لا حصر لها!

ما يشك مسلم في أن الإسلام عقيدة وشريعة ولكننا لا يجوز أن نقف متفرجين حتى نقيم الحكم الإسلامي المنشود ، أمامنا عمل تنصب فيه الجبهات وتنسابق فيه الهمم وهو الجهاد الأكبر في تلك الأيام العجاف .

الإِنْسَانُ فِي الْقُرْآنِ

ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير في انحدارهم! إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء . والإنسان هو الذي يهوى أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها .
وأنت الذي تخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة . ولو شئت أغلقت للفور ما تعاف سمعاه . أو ابتعدت عنه حتى لا يصل صداؤه إلى سمعك . أو قاومته بشاعر النفور والمقت حتى لا يستولى عليك!!!

وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على إغواء الإنسان وخداعه . ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونصب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغراص والغافلين .

كانت الملائكة متشاركة من مستقبل الإنسان على ظهر الأرض . لعلها أحسست أن أصله الترابي سيجعله هشاً أمام الاختبارات الصلبة . وأنه سيفقد تماسكه أمام الأهواء والغرائب؟
لعلها رأت أنه يشبه أجناساً أخرى لم تتصدع بأمر الله . ولم تحسن تنفيذ وصاياته؟
أو لعل شعاعاً من عالم الغيب طلع عليها فرأته معه صوراً من الحروب الدامية والمسالك المعوجة التي سوف يخوضها البشر ويظلمون بها أنفسهم .

على أية حال لقد تساءلت الملائكة مستغربة وقالت لله جل شأنه : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)!

وخلق الله آدم ووهب له عقلاً محظياً بالأشياء كلها . ووضع في هذا العقل خاصة باهرة يستتمكن بها من معرفة الأسرار والظواهر . ويهيمن بها على شتى من القوى والعناصر . إن هذا الإنسان المحدود في أعضائه ومشاعره يملك طاقات ضخمة تجعله سيداً لما حوله . بل يجعله ملكاً واسع السلطان محدود النفوذ .
ولعل الملائكة اليوم ترقى دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب .

(١) البقرة : ٣٠

لكن عظمة الإنسان لا تكمن في هذه القدرات الطبيعية . إنها تكمن في أمر آخر أهم منها وأجل . هو معرفته لمن خلقه فسواء من أعلى قدره ورفع مستواه! لله الذي خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له .

إن هذا الفريق من الناس الذي عرف ربّه وأسلم له وجهه .. وافتتح مغاليق الحياة باسمه . هو الذي يبرز الحكمة من وجود الإنسان في العالم . وأحسب أن هذا الفريق الصالح المصلح هو الذي استشَفتَ الملائكة خبره ثم قالت لله : ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١) .

وقصة الحياة الإنسانية كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدّة نحب أن نتبينها :

أولها هذا التعريم الذي أحاط بها منذ بدايتها وبين يدي عرض القصة في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا..﴾ وقبل ذلك بقليل نقرأ : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ .

وبين يدي عرضها في سورة الأعراف نقرأ قوله : ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّا كُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(٢) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلملائكة اسْجُدُوا لِلْأَدَمَ..﴾ .

وبين يدي عرضها في سورة الحجر . سرد للنعم التي تحف الحياة البشرية نقرأ منه قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾^(٣) وَحَفَظْنَاها مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ^(٤) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتَبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ^(٥) وَالْأَرْضَ مَدَدَنَاها وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ^(٦) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ..﴾ . الواقع أن الرغيف الذي يطعمه إنسان تشتراك في إنباته وإنضاجه فجاج الأرض وأفاق السماء .

(١) البقرة : ٣٢ .

فتربة الأرض . والسحب الهامية . والأشعة العمودية أو المائلة التي تتعرض لها الحقول وأثر الضوء في تكوين الخضراء مثلاً وأشياء أخرى كثيرة تتعاون جمیعاً على تكوين الغذاء والكساء والدواء الذي يحتاج إليه البشر .

إن شبكة من المواد الدقيقة جداً . والجسيمة جدًا ، انتظمت في خدمة الإنسان وتأمين معيشته وتحطيط حاضرها ومستقبله . كل يؤدى دوره بوفاء وقدرة ، الكواكب السباحة في الفضاء . والجراثيم التي لا تراها العين !!

وذلك سرّ الأقسام الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم مشيرة إلى فخامة هذا العالم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾^(١٦) ﴿وَاللَّيلِ وَمَا وَسَقَ﴾^(١٧) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾^(١٨) لَتَرْكَبُنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾^(١٩) .

﴿كَلَأَ وَالْقَمَرِ﴾^(٢٠) ﴿وَاللَّيلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾^(٢١) ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾^(٢٤) إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبُرِ﴾^(٢) .
وتدرك القسم بالرياح المشيرة والسحب الحافلة وما يتبع ذلك من زرع وحصاد وتجارة واحتراف وخيرات تعمّ البشر ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرُوا﴾^(١) ﴿فَالْحَامِلَاتِ وَقُرَا﴾^(٢) ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرَا﴾^(٣) ﴿فَالْمُقْسَمَاتِ أَمْرَا﴾^(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾^(٥) .

إن رب العالمين أبدع ما صنع ! وحدثنا عن هذا الإبداع لنعجب به ونتذوق جماله . وإنى لاستغرب أحوال ناس ينتسبون إلى الإسلام ويديرون ظهرهم للكون . فلا يدرسون له قانوناً ، ولا يكشفون له سرّاً .

أى إيهان هذا؟ وأى جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه في ربوعها ..؟
إن الإنسان في القرآن الكريم كائن مكرم مفضل محترم مخدوم ، ومن حق الله تبارك اسمه أن يعاتب البشر على سوء تقديرهم لآلائه ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُّنِيرٌ﴾^(٦) !!

هذه ناحية تتصل بالتكريم الملادي للإنسان ، وثم ناحية ثانية تتصل بكيانه المعنوى .

(١) لقمان : ٢٠ .

(٢) المدثر : ٣٢ - ٣٥ .

(٣) الانشقاق : ١٦ - ١٩ .

فالإنسان نفحة من روح الله الأعلى ، هكذا بدأ خلق آدم ، وهكذا تتشكل الأجنة في بطون الأمهات .

إن الحياة في شتى الأجسام المتحركة شيء ، وخصائص الحياة الرفيعة في أبناء آدم شيء آخر ، وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة بربور من العدم إلى الوجود ، ييد أن آدم وحده هو الذي وصفه بقوله : «سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي»^(١) .

واطرد هذا التكريم في ذريته إلى قيام الساعة «الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ..»^(٢) .

والإنسان بهذه النفحة كائن جديد يعلو فوق ما يشبهه من ضروب الحيوان ولذلك قال جل شأنه «.. فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(٣) .

وبعد أن تم خلق آدم على هذه الصورة أمر الله الملائكة أن تسجد له سجدة تعظيم وتقدير لا سجدة عبادة!!!

والملائكة هي التي أبدت دهشتها لإيجاد هذا الإنسان واستنكرت ما سوف يقع منه من فساد وفوضى .

إنها طلبت بالسجود له بعدما تم تكوينه!! وعقب من رفض السجود بالطرد من رحمة الله .

وسماء كان إبليس من الملائكة . أم صادف وجوده بينهم وهو من الجن ، فإن النتيجة لا تختلف . إذ إن الاستهانة بالإنسان هي عند الله عصيان وخيم العاقبة!

وهذا التكريم البين ينضم إليه أمر آخر عظيم الدلالة على مكانة الإنسان وحفاوة الله به . هذا الأمر هو الفرح الإلهي بعودة الإنسان التائب واستقبال الله له بإعزاز بالغ وتجاوزه عما فرط منه من خطأ قوله في عفو شامل «وَإِنِّي لَغَافِرٌ لِمَنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى»^(٤) .

(١) ص : ٧٢ . السجدة : ٧ - ٩ .

(٢) طه : ٨٢ .

(٣) المؤمنون : ١٤ .

كلتا الناحيتين من تكريم وتعظيم استبعت ناحية ثالثة كان لها الأثر الأكبر في مستقبل الإنسان ومستقبل الكوكب الذي أعد لسكناه . بل في مستقبل المجموعة الشمسية كلها التي سينتشر عقدها وينطفئ نورها مع انتهاء الرسالة الإنسانية على ظهر الأرض .

هذه الناحية هي «التكليف» . فإن الله الذي زود الإنسان بهذا السمو في موهبه لم يتركه سدى . بل أمره ونهاه وطلب منه أن يفعل وأن يترك ! وربما كلفه أن يفعل ما يشقه . وأن يترك ما يشتته !!

و هنا نقف وقفه يسيرة أمام سر التكليف ومعناه لتناول جملة أمور .

إن آبانا آدم ، وهو الإنسان الأول ، كلف ألا يأكل من شجرة معينة وكان جديراً به أن يعرف حق الأمر جل شأنه وأن يدع الأكل من هذه الشجرة أبداً .

ولكنه بعد مرحلة من الذهول والضعف عرضت له ساعة انهيار في إرادته وامتداد في رغبته فأكل من الشجرة المحرمة ، وشاركته زوجته في عصيانه فطرداً جميعاً من الجنة .

وكان قد أحس بالخطأ الذي تورطا فيه فدعوا الله نادمين ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) قال أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولهم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴿٤﴾ قال فيها تعيشون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿١﴾ .

ونزل أبوانا إلى الأرض وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها ويرتكبون الخطأ ذاته . ولكن ليس أكلا من شجرة بل اتباعاً للشهوات التي تقود إلى العصيان والحرمان ! العنوان متغير والحقيقة واحدة .. إن هذا السلوك من الإنسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته؟ والعلة واضحة فإن الإنسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة ، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض !!!

إن الله تبارك اسمه بعدما صور الإنسان من التراب وسواه ، نفح فيه من روحه ، فإذا كان عجيب يجمع الناقصين في تركيبه ، يقدر على التسامي وعلى الإسفاف ، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف .

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخلط في التكوين البشري فقال جل شأنه : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا إِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (٢) كما نبه إلى أن المame

(٢) الإنسان : ٢ .

(١) الأعراف : ٢٣ - ٢٥ .

بـالـخـطـاـيـا لـيـس مـسـتـغـرـبـا ، إـنـه يـنـزـع إـلـى عـرـق فـيـه ! ﴿الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسْعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا نَسَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذَا نَتَمْ أَجْنَةً فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ .﴾^(١)

وكلتا النزعتين الأرضية والسماوية تجد في الحياة - أو في البيئة - ما يضعفها أو يقويها ، وقبل ذلك كله تجد في الإنسان نفسه ما يرجع كفة على أخرى ، وما يسلم زمامه للخير أو للشر ، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد في اتجاهه هنا أو هنا . إن إشار الوقوف عند الإشارة الحمراء أو المروق منها والتعرض لأخطار الانطلاق الأحمق تصرف إنسانٍ ممحض .

وفي هذا يقول تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَا آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاغِرِينَ﴾^(٢) ولو شئنا لرفعناه بها «أى لو تسامي وترفع» ولكنَّه أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ .^(٣) فتركه الله حيث شاء لنفسه .

ولابد من توكيـد هذه الحقيقة ، حقيقة الإرادة الحرة في الصعود والهبوط ، في التقوى والفحـور ، في إغضـاب الله وإرضـائه . فإنـ الرحمن الرحـيم يستحـيل أنـ ينـقم على إنسـان سـعـى فيـ مـرضـاته ، كما أنه لا يـرضـى عنـ إنسـان سـعـى فيـ إغضـابـه .

وبعـض الناس يـمارـي فيـ هـذه الحـقـيقـة عنـ مـكـابـرـة ، أو تـمـحـلـ أـعـذـارـ ، وهـيـهـاتـ فـقـصـةـ الـوـجـودـ الإـنـسـانـيـ تقومـ عـلـى اختـبارـ حـقـيقـىـ لـاكتـشـافـ المـحـسـنـ والمـسـيءـ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .﴾^(٤) والمـحـسـنـ إـنـسانـ أـتقـنـ العـمـلـ وـاحـتـرـمـ الصـوابـ . والمـسـيءـ إـنـسانـ فـرـطـ ولـزمـ العـوجـ ..

والـعـراكـ دـاخـلـ النـفـسـ الإـنـسـانـيـ لـاختـيـارـ أحدـ النـهـجـينـ عـرـاكـ حـقـيقـىـ لـصـورـىـ .

وتـلمـعـ صـدـقـ هـذا العـراكـ وـقـبـولـ نـتـائـجهـ فـىـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾^(٥) وـأـثـرـ الـحـيـاةـ الدـُّنـيـاـ^(٦) فـإـنـ الـجـحـيمـ هـيـ الـمـأـوىـ^(٧) وـأـمـا مـنـ خـافـ مـقـامـ رـبـهـ وـنـهـيـ النـفـسـ عـنـ الـهـوـىـ^(٨) فـإـنـ الـجـنـةـ هـيـ الـمـأـوىـ^(٩) !!

. (٤) النازعات : ٤١ - ٣٧ .

. (٣) الملك : ٢ - ١٧٦ .

. (١) النجم : ٣٢ . (٢) الأعراف : ١٧٥ .

إن السالم في هذا العراك إنسان يشعر بقيام الله عليه وعلى سائر الكائنات ، ومع
نماء هذا الشعور يخفت صوت الهوى ويغلبه صوت الضمير اليقظان أو القلب الحي ..
فأين التمثيل أو المباهاة أو الخداع في هذه الحالات؟

* * *

الله جل شأنه ينادي الإنسان ويدركه ويهديه ، وعلى الإنسان أن يلبي ويتذكر
ويهتدى ، فإذا أبى إلا الشرود فهو وحده الملوم ، ومن ثم تقررت هذه الأحكام العادلة
التي ندركها من قوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ
عَمِيَ فَعَلَيْهَا ..﴾^(١) ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاها ﴾^(٢) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾^(٣) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا ﴾^(٤) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٥) .

والترزكية والتدسيمة جهد بشري محض ، أو كذلك يكون أول الطريق ثم يلحقه من
مشيئة الله ما يصل به إلى النهاية ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى
وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾^(٦) ..

ونتساءل مرة ثانية : ما قيمة الصوت المضلل الذي يتسمع إليه الإنسان فيزيغ ويشقى؟
الحق أنه صدأه الضخم أضعاف حقيقته التافهة ، إنه كنفيق الصفدة عيال
أكتاف الليل ومصدره لا قيمة له !

ما الشجرة التي أكل منها آدم؟ هل أحس طويلاً لذة ثمرها ومتعة ازدرادها؟ لقد
كانت وهما هذه النشوة المأمولة ولو فرضناها لذة ساعة فما قيمتها! إذا وزنت بما أعقبته
من حسرات سنين عدداً؟ بل دهرًا طويلاً!!

إن الإنسان في هذه الدنيا تهيجه رغبة حمقاء إلى شيء محرم ، ما إن ي الواقعه حتى
يحس الفراغ والضياع ، وحقيقة بالإنسان أن يتماسك أمام عوامل الاستفزاز ومزالق القدم .

ونتساءل مرة أخرى ما مصدر هذا الصوت النابي الجھول الذي يُزلل الإنسان .

والجواب أن له مصدرين اثنين : أولهما نفس الإنسان أو الإهاب الترابي الذي
غلفت به ، والمصدر الثاني من كائن آخر خاصم الإنسان من النشأة الأولى وهو
الشيطان الذي ألى على نفسه استدامة هذا الخصم إلى يوم النشور ..

. (٢) النساء : ١١٥ .

. (٢) الشمس : ٧ - ١٠ .

. (١) الأنعام : ١٠٤ .

فِي الْمَصْدِرِ الدَّاخِلِيِّ لِلْمُعْصِيَةِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزَّمًا﴾^(١).

فالنسوان وضعف العزيمة رذائل وقع فيها الإنسان الأول ، ومع تولدها في نفسه تهياً الإمكانات للشيطان كى يosoس ويخداع ويقول لأدم وامرأته : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٢) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِينَ^(٣) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾^(٤).

وما ثمت هذه التدليه ولا نجح الشيطان فى خدعته إلا لأن آدم كان قد ضعفت ذاكرته وضعفت إرادته .

الضعف النفسي أولًا ثم وساوس الشيطان ثانيةً ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير في انحدارهم!

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء ، والإنسان هو الذي يهبيع أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها .

وأنت الذي تخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة ، ولو شئت أغفلت للفور ما تعاف سماعه ، أو ابتعدت عنه حتى لا يصل صداه إلى سمعك ، أو قاومته بمشاعر النفور والمقت حتى لا يستولي عليك!!!

وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على إغراء الإنسان وخداعه .

ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونصب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغوار والغافلين ، وقيل له : ﴿وَاسْتَفِرْزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾^(٥) . وكان الشيطان لا يملك أكثر من الكلام يكذب فيه ويغُرّ . وقد نبه الله آدم وبنيه إلى هذا العدو الغار الكاذب . وحذرها من الشراك المنصوبة والأقواب المزورة .

إن الشيطان يَعِدُ كاذبًا ، ويقسم حانثًا ، وينصح غاشًا ، ويلين ليلدغ وينحنى ليشب ويصرع .

وهو في هذا كله لا يملك إلا شيئاً واحداً ، الكلام ، الكلام وحده! فلا يجوز أن نصدقه ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِنَزُوْجْكَ فَلَا يُخْرِجْنَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَقُ﴾^(٦)

(١) طه : ١١٥ .

(٢) الأعراف : ٢١ .

(٣) طه : ١١٧ .

(٤) طه : ٦٤ .

﴿أَفَتَخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتِهِ أُولَيَاءٍ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عُدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالَمِينَ بَدْلًا﴾^(١).

ومع ذلك فقد قدر الشيطان بالكلام المضل أن يزيغ الكثيرين .

وسيقول يوم القيمة لمن استجابوا له : ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُنِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُم﴾^(٢).

إن سلاح الشيطان مغلول والنجاة منه ميسورة!! وعندما يقع البعض في قبضته فلا حماية له لأن القانون لا يحمي المغفلين .

ومن ثم فالجهد الحقيقى فى النصح والتربية يتوجه إلى الإنسان أولاً وأخرًا ليوقف فيه أسباب الخدر ، وليسـ التغرـات التـى يمكنـ أن يتـسلـلـ منـهاـ الشـيطـانـ بـوسـاوـسـهـ المـاكـرـةـ .

لقد أشرنا إلى الأمشاج التـى يتـكونـ منهاـ الإـنـسـانـ ، والـحـقـ أـنـ فـىـ الإـنـسـانـ - معـ أـصـلـهـ السـماـوىـ - طـبـاعـاـ لـاـ يـجـوزـ تـرـكـهاـ حـرـةـ تـتـصـرـفـ كـمـاـ تـشـاءـ ، لـابـدـ مـنـ مـراـقبـتهاـ وـإـخـضـاعـ حـرـكـاتـهاـ وـسـكـنـاتـهاـ لـحـكـمـ اللـهـ ، وـإـلاـ جـرـتـهـ مـنـ الـقـمـةـ إـلـىـ الـخـضـيـضـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾^(٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٣).

وليس معنى هذا الرد أنه تحول إلى مسخ ذميم بعدما كان في ذروة الحسن! كلا ..
المعنى أن إمكانات الهبوط جاورت معانى الرفعة في نفسه ، وأنه يستطيع التحليق والإسفاف معًا ، وذلك سر الاستثناء بعد ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٤) أى سوف يبفى قوامهم حسناً . مادياً ومعنوياً!!

وجاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر الطبائع الرديئة التي ينبغي الخلاص منها .
فإنسان «أنانى» يحب نفسه وحسب ، وقد تكون محبة النفس أصلاً في استبقاء الحياة ، ولكن هذه المحبة تتحول إلى مرض خطير يورث الشره والطمع والبغى واجتياح الحقوق بنزق .

وقد ذكر القرآن أن هذه الأثرة لا يطفئها الغنى مهما اتسع ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلَكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّيِّ إِذَا لَأْمَسْكْتُمْ خَشْيَةَ الإنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قُتُورًا﴾^(٥) !!

(١) الكهف : ٥٠ .

(٢) إبراهيم : ٢٢ .

(٤) التين : ٦ .

(٥) الإسراء : ١٠٠ .

(٢) التين : ٤ - ٥ .

(٤) الإسراء : ١٠٠ .

والإنسان نساءً أو غافل ، وقد يكون هذا أو ذاك أصلاً في استبقاء الحياة ، فلو استصحب المرء حزنه إلى الأبد على ما فقد ما صلحت الدنيا .

ولكن هذا الذهول قد يكون جرثومة الكنود ونكران الجميل ونسيان الربٌ وما أولى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾^(١) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٢) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾^(٣) .

والإنسان الذي يحلوه أحياناً أن يفخر ، ويتطاول ، وينظر إلى السماء بقلة اكتراث ، تذله علة في أي مكان من جسمه ، أو تزلاه غلطة في أي وقت من تفكيره مهما كان عقريًا .. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٤) .

والإنسان محظوظ كبير في الدفاع عن نفسه ، والتماس الأعذار لأخطائه وعدًا ما يقع منه وجهة نظر مقبولة أو مغفورة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٥) .

وهذه الطبائع جميئاً مزالت ملناً يسترسل معها ، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمراض شتى تعتري النفس ، فالإنسان قد يبطر مع الغنى ويطغى مع السلطة ويقطن مع الفشل ، وقد يستحلل من شهوات النساء ، والرياء ، والاستعلاء ما يحيله إلى عبد لنفسه وهواد .

ولكن الفكاك من هذه الآثام كلها ميسور فإن القرآن الكريم لما خوّف عوائق هذه الانحرافات الإنسانية ذكر أسباب النجاة منها : ﴿وَالْعَصْرُ﴾^(٦) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٧) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبَرِ﴾^(٨) .

وما أحملته سورة العصر من وصف للداء والدواء فصلته سور أخرى .

نختار منها سورة المعارج التي أسندت للإنسان هذه الخلال ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعًا﴾^(٩) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾^(١٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مُنْوِعًا﴾^(١١) لكن الإنسان يبرأ

من هذه العلل إذا قام بجملة العبادات المفروضة .

ونتساءل : هل هذه العبادات «مصل» واق أم شفاء من أمراض توجد وتتجدد؟ قد يكون هذا أو ذاك!

(٢) النساء : ٢٨ .

(٢) العاديات : ٦ ، ٧ .

(١) الإسراء : ٦٧ .

(٦) المعارج : ١٩ - ٢١ .

(٥) العصر : ١ - ٣ .

(٤) الكهف : ٥٤ .

ولن تدبر أولاً الاستثناء الذي تضمنته السورة الكريمة ﴿إِلَّا الْمُصَلَّيْنَ﴾ (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥) والذين يصدقون بيوم الدين (٢٦) والذين هم من عذاب ربهم مشفقون (٢٧) إن عذاب ربهم غير مأمون (٢٨) والذين هم لفروعهم حافظون (٢٩) إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيديهم فإنهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١) والذين هم لأماناتهم وعهدهم راغعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون (١).

لاشك أن هذه العبادات مجتمعة تنشئ إنساناً كاملاً شريطة أن تؤدي أداء حقيقياً لا أداء تمثيلياً ، وأحب أن أقف عند واحدة من هذه العبادات لأتأملها وأتعرف على آثارها النفسية . وهي قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٢) .

إن الإنسان المسلم يجب أن يكون مستعداً دائماً لأداء الشهادة على وجهها ، ليحقق الحق ، ويبطل الباطل ، ويدعم العدالة .

والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف في الله لومة لائم ، ذلك أن الحق يختنق في هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعدة من هنا وهناك .

والمرء ينكح عن الإدلاء بالرأي الصحيح والقول الصحيح لأنه يخشى على مستقبله مثلاً ، أو يريد محاباة قريب ، أو يسمع في مال ، أو يتطلع إلى منصب إنه لا يستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته !!

والمجتمع الإسلامي يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون .

وكم رأينا من أناس قدّموا وحقهم التأخير أو أخرّوا وحقهم التقديم ، لأن المؤمنين ليسوا بشهاداتهم قائمين ، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا !!

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقاً بعيداً عندما قرأت أن زوج الملكة في هولندا عزل وجرد من أوسمته لما كشفت صلته بقضية رشوة ، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمى به في السجن للتهمة نفسها !!

(٢) المعارض : ٣٣ .

(١) المعارض : ٢٢ - ٢٥ .

إن القيام بالشهادة يعني ألا ترك صاحب حق مستوحشاً في هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير .

والشهادة بداعه ليست ما يقال أمام المحاكم فقط ، بل ما يقال في كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أى شأن ذي بال .

والقائم بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده!

وقد تتشابك في نفس الإنسان عدة طباع مثل تشهي الحياة ، وتعجل النتائج . وغلبة الأثرة ، فيصدر حكاماً خطأ على ما يصيبه من خير أو شر ، وتستبد به المبالغة فتجتمع به مشاعره نحو نفسه ونحو الناس . وفي هذا يقول جل شأنه : ﴿ وَلَئِنْ أَذْقَنَا إِلَّا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تُرَعَّى هُنَّ مِنْ أَنفُسِهِمْ كَفُورٌ ﴾ (٩) وَلَئِنْ أَذْقَنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرَحٌ فَخُورٌ ﴾ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١١) .

في هذه الآيات صورة الإنسان الذي تستعبدle الساعية الحاضرة وحدها ، فهو عند فقد ما يسرّ منهزم كسير من شدة القنوط ، وعند وجده ، ينتشى ويغتر من شدة الفرح . وكان يجب أن يتمالك نفسه في الحالين وينظر إلى أصابع القدر وراء ما يحسّه فيستكين لله ويؤدي ما عليه بتعقل ..

ثم ينضم إلى هذا الإحساس المعتمد شهور آخر ، أساسه أن ما يناله من خير ليس تقيعاً له وحده ، فإن للمحرومين سهماً فيما جاءه ، وقد يكون سهماً كبيراً ﴿ فَإِنَّمَا إِلَّا إِنَّمَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِنَّمَا إِنَّمَا ابْتَلَاهُ فَقَدْرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتَيمَ ﴾ (١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِنِ ﴾ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًا ﴾ (١٩) وَتُحْبُّونَ الْمَالَ حُبًا جَمَّا ﴾ (٢٠) .

والآيات تشير إلى أن الغنى ابتلاء ، وأن الفقر ابتلاء ، ومن الخطأ تصوّر الإغناة تكريماً والإفقار إهانة . العبرة بالنتائج ، فإن الذي يستعف في فقره أسبق عند الله وأرجح في الميزان من الذي يطغى بعناده .

(٢) الفجر : ١٥ - ٢٠ .

(١) هود : ٩ - ١١ .

والذى يمنع الشراء ، فيفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل فى مواطن النفقه هو الإنسان الناجح فى الامتحان السابق فى الميدان .

لكن البشر -للأسف - يحسبون العطاء تدليلاً لأشخاصهم ، والحرمان إهانة وإذلاً .. وذلك خطأ بالغ فى فهم الدين والدنيا .

وعندما خال الناس أن الغنى تكرىء ذاتى لبعض الأفراد والأسر ، وأن الفقر هوان ذاتى قصده الله لبعض الأفراد والأسر ، عندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات ، وانفجرت معها عواصف الإلحاد والكفر ، وتعرض مساقيل الإنسانية كلها للبوار ، وهل انتشرت الشيوعية إلا فى هذا الجو؟ إن العبادة هي السلم الفذ الذى تصدع فيه النفس الإنسانية إلى الكمال المشود .

يجب على الإنسان أن يعرف ربه ، وأن يقف فى ساحته عبداً نقىًّا من الآفات والعاهات .

إن آدم لما نسى وضعف أصحي دون مستوى الجنة فأخرج منها .

ولن يعود أبناؤه إلى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف ، لا بد من إيمان واضح وعمل صالح .

وفي طول القرآن وعرضه توکيد لهذه الحقيقة التي يحاول كثيرون الزوغان منها ..

ونعود إلى الخاصة الأولى فى تكوين آدم وبنيه ، خاصة العقل العالم بالأشياء الخبر بالحقائق والأسماء ، إن الإنسان المكلف بعبادة الله لا يعبده بشبهه المحدود ، وجسمه المادى القاصر! إنما يعبده بتلطيع طاقاته كلها لله . إنه يضع بصماته المؤمنة على الأرض حتى إذا سجد سجد معه زرعها وضرعها وحديدها وذهبها وكل ما ملك وارتقا!!

وأرى أن ذا القرنين عندما ساوى بين الصدفين ، وذوب الحديد والنحاس داخل سلسلة من القلاع التي تحمى الضعاف وتزود الطغاة - أرى أنه أحق الحق وأبطل الباطل لا بالكلام وحده ، ولكن يجعل الأرض ومعالها ومعادنها تؤدى وظيفته وتحمل طابعه وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده .

وهل ملَكَ الله الأرض لـإنسان إلا لهذا؟

عندما تعطى خادمك أسباب الزينة والوجاهة فيجيئك أشعث أغبر فأنت تضيق به . والعباد الجهلة بالحياة ، الغرباء فى الكون ، سوأة زرية ، وجهل أو ترد على الخلافة الإنسانية فى العالم .

ونحن المسلمين سنحاسب حساباً عسيراً على تخلفنا الفاضح فى العلوم الطبيعية .

ربما احتاج الإنسان كى يصلى إلى مساحة من الأرض لاتعدو ذراعاً فى ذراع ، ولكنكى يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ بل إلى الشمس ، معرفة في هذا العصر تهيمن على ما في الأرض وما فوق الشري . وتخترق طباق الجو متحسسة أفقاً بعد أفاق من أغوار الكون البعيد .

كتب الدكتور فاروق الباز الخبير في غزو الفضاء عن حاجة العرب إلى «متناقل فضائي» يستعينون به على اكتشاف أرضهم وما أودع فيها من خيرات ، وأهاب بالحكومات العربية أن تموّل هذا المشروع ، قال : «ليس من المستبعد في نظرى أن تخطو دولة أو دول عربية هذه الخطوة فتحقق ما فيه الخير للعالم العربي كله . نحن نعلم أن الصحراء تكون ٩٦٪ من جملة الأراضي العربية ، ولا بد من الانتفاع بجزء كبير من هذه الصحراء إلى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة فنحن لا نعلم عن الصحراء إلا قليلاً ، وربما كان سبب هذا أن علماء الغرب لم يهتموا بالصحراء لقلة الصحاري في بلادهم ولصعوبة التنقل في صحرائنا الشاسعة . !!

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراثها دراسة تفصيلية ، لأن البادية منبع كل ما هو عربي .

والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية ، يتضح هذا للرواد الفضاء في المدار الأرضي وضوحاً تماماً حتى أن رواد القمر كانوا يتذمرون لظهور الصحراء العربية في صورهم الملقطة كتلة واحدة على بعد ٤٠٠٠٠٠ كيلومتر» .

قال : «وتعتبر الصحراء خزانًا عظيم الشأن للنفط وللمياه الجوفية . ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة .

وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزان عظيم لطاقة لا نهاية لها هي الطاقة الشمسية . ولذلك يجب أن تشتمل دراسة الصحراء العربية تحديد أصلاح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية وطرق الإفاده منها .

ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشمل الدراسة التعرف على الأماكن المختارة لعيشة الإنسان وإنشاء المدن الكبيرة والصغرى وطرق المواصلات ومنتجعات السياحة والترفيه ، وتحديد بنية الخضراء في الصحراء لاستغلالها ، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حياة البدو ، إلى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاعاً لائقة للعيش الكريم» .

قال : «وينجح هذا العمل إذا تم على مستوى عربي جماعي ! فالصحراء العربية برغم

ترامى أطراها إقليم واحد له ميزات ومعالم جغرافية واحدة ، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدول وخطوط الشتات التي مزقت الكيان الواحد» .

قال : «أما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضي فهو في اعتقادى قمر صناعى يرحل إلى الفضاء مع «المنتقل الفضائى» - الذى سبق للدكتور الباز اقتراحه - يرجع صورة الملتقطة إلى الأرض رواد الفضاء المختارون ، وذلك بين آونة وأخرى ! ويكون هذا القمر عربياً في أغلب نواحيه ، يختار مكوناته علماء يقومون بتشغيله ، وتدرس المعلومات المرسلة في عدة معاهد عربية أو في مركز عربي موحد تشتهر فيه الدول العربية كلها» .

قال : «وكنموذج للمكونات التي يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعي العلمي ينبغي وجود عدة «كاميرات» أهمها «كاميرا» للتصوير الطبوغرافي ، و«كاميرا» للتصوير الدقيق ، أى بانورامية و«كاميرا» لأخذ الصور المتعددة الأطياف ، على نمط أجهزة لاندسات بل أكبر دقة وأقل تعقيداً .

الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرايط على مقاييس ١ : ١٥٠٠٠٠ من ارتفاع ١٨٠ كيلومتر ، وطول عدسة هذه «الكاميرا» هو ٣٠٥ ملليمترات ومساحة الصورة الواحدة ٢٣ × ٤٦ سنتيمتراً .. إلخ» .

إننى تعمدت هذا النقل ليعلم من يجهل أن دراسة الكون شيء مثير وخطير ولا بد منه لدينا وديننا معاً .

وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديه جيل من الرواد والباحثين العباقة على حين تراجعنا نحن وراء وراء .

إن هذا التخلف إذا بقى فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر ، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء ..

واننى لأصرح دون مواربة أن هذا التخلف جريمة دينية لا تقل نكرأ عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها . بل لعلها أشنع وأوخرم عقبى .

إن الجو الذى يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر . والسماء والأرض ، ويطلق الفكر سابحاً فى ملکوت لا نهاية له .

ويؤكـد لـلإنسـان أـنه مـلك يـخدمـه كـل شـئ فـما الذـى جـعل الفـكر الـديـنى يـعيشـ فى قـوـقة؟

إنـى أحـس فـزـعـاً كـبـيرـاً عـنـدـمـا أـرـى بـعـض المـتصـدـرـين فـى العـلـوم الـدـيـنـية - هـكـذا يـوصـفـون - يـمارـى فـى دـورـان الـأـرـض أو يـنـكـر وصـول الإـنـسـان إـلـى القـمـر! لـمـاـذـا؟ لأنـه يـعيشـ فـى مـغـارـة سـحـيقـة صـنـعـها أـشـخـاص قـاصـرـون ، لا يـتـصلـون بـحـقـيقـة القرآن إـلـا كـمـا يـتـصلـ القـرـوـى بـعـلـوم الـذـرـة ..

وـإـذـا كـنـا هـنـا قـد أـطـلـنـا الـكـلام فـى التـسـامـى الرـوـحـى لـلـإـنـسـان فـلنـذـكـر أـنـ القرآن الـكـرـيم يـنـشـد التـسـامـى الـعـقـلـى وـالـخـلـقـى مـعـاً .

ويـشـدـدـ النـكـير عـلـى السـقـوطـ الـفـكـرى كـمـا يـشـدـدـ النـكـير عـلـى السـقـوطـ الـنـفـسـى .
أـى إـنـه يـحـارـبـ الـخـرـافـةـ بـالـقـوـةـ نـفـسـهـاـ التـىـ يـحـارـبـ بـهـاـ الرـذـيلـةـ .

بلـ إـنـ منـابـعـ الإـيمـانـ فـى نفسـ الإـنـسـانـ تـنـبـجـسـ مـنـ عـلـمـ عـمـيقـ مـحيـطـ دـارـسـ لـلـكـونـ درـاسـةـ مـلاـحظـةـ وـتجـربـةـ وـاستـقرـاءـ لـا درـاسـةـ تـخـمـينـ وـظـنـونـ وـخـيـالـ .. وـإـذـا لـمـ تـنـبـعـ نـهـضـتـنـاـ مـنـ هـذـاـ الأـصـلـ فـلـنـ تكونـ نـهـضـةـ إـسـلـامـيـةـ صـحـيقـةـ .

إـنـ هـذـاـ عـلـمـ بـالـمـادـةـ ، بـالـفـطـرـةـ التـىـ فـطـرـ اللـهـ الـكـونـ عـلـيـهـاـ ، بـالـسـنـ التـىـ تـحـكـمـ هـذـاـ الـكـونـ عـلـوـهـ وـسـفـلـهـ ، وـطـولـهـ وـعـرـضـهـ ، إـنـ هـذـاـ عـلـمـ يـنـظـمـ إـنـسـانـ مـعـ الـمـلـائـكـةـ فـىـ الشـهـادـةـ لـلـهـ الـكـبـيرـ بـالـوـحـدـةـ وـالـعـدـلـ .

نعمـ إـنـ أـولـىـ الـعـلـمـ ، وـالـمـلـأـ الـأـعـلـىـ يـؤـكـدـونـ هـذـهـ الـحـقـيقـةـ التـىـ شـهـدـ اللـهـ بـهـاـ نـفـسـهـ
فـقـالـ : ﴿ شـهـدـ اللـهـ أـنـهـ لـا إـلـهـ إـلـاـ هـوـ وـالـمـلـائـكـةـ وـأـولـواـ الـعـلـمـ قـائـمـاـ بـالـقـسـطـ لـا إـلـهـ إـلـاـ هـوـ
الـعـزـيزـ الـحـكـيمـ ﴾ (١) .

(١) آل عمران: ١٨.



نحو سلفية واعية

الاصطلاح الشائع أن المذاهب الفقهية لا ت redund أن تكون وجهات نظر محترمة في العبادات والمعاملات ، وأن الوحدة الجامعة بين أتباعها لا ينكرها أو لا يخدها عاقل ، وأنه لا يجوز إطلاق كلمة فرقة على الحنفية أو الحنبليّة مثلاً ، فإن التبعية المذهبية ما كانت لتميّز إحداها عن جماعة المسلمين . . .

أما اصطلاح فرقة فيتناول في تاريخنا أصحاب الاختلاف العقائدي أو السياسي فيقال فرقة المعزلة ، أو المرجئة ، أو الشيعة إلى آخره . . .

ولا مشاحة في الاصطلاح ، وعذر الذين فرقوا بين المذاهب والفرق أن التنازع في الأصول غير التنازع في الفروع ، وأن النتائج الكبيرة هنا غير النتائج المحدودة هناك . . . وأريد أن أقف وقفة تأمل في هذه القضية ، إنه من فضل الله على سلفنا الأول أنه لم يتقرر في بحوث ما وراء المادة ، ولم يحاول استكناه الغيبيات ، بل كان جيلاً مستقيم الفطرة ، سوى النظرة ، أحسن علاقته بالله في العبادة الخاسعة ، وأحسن علاقته بالناس فيما التزمه من خلق حسن وعدالة مطلقة . . .

وقد أعاذه ذلك على إبلاغ رسالة الإسلام ، فشرق وغرب ، وتألق وتألق ، واندكت أمّا عزّاته الصعب والعقارب . . .

ولو أنه اشتغل بالفلسفة اللاهوتية ، والمناظرات الكلامية ما خرج من جزيرة العرب ، بل لأرسلت له فارس أو الروم كتبها تركته شذوذ بين الرمال والتلال . . ! فلماذا ذهبت الأجيال الزاكية ، وولى رهبان الليل فرسان النهار ، وخلقت البطالة ناساً يحسنون اللغو ، ويطلبون الفكر العابث والنظر الشرود؟

وأوجد الفراغ مجالس كلامية كثيرة كان لها في تاريخنا وكياناً أثر رديء . . ونستطيع القول الآن بأن العراق الذي نشب كان جهاداً في غير عدو ، أو كان حرباً عمياء أذكى نارها المراء والغباء . . .

فالخارج حين كفروا العصاة كانوا جهلة بطبع البشر ، وعجزة عن فهم الأسباب الدخيلة والأصيلة في الانحراف عن الطريق القويم . . .

والمرجئة حين هونوا قيم الصالحات ، ومقارفة السيئات كانوا جهله بحق الله ، وما أوجب على عباده ، وكانوا عجزة عن صيانة المجتمعات وتحصينها ضد التحلل والخطب ...
ودعك من المتقرر السمج الذي تساءل : كيف كلام الله موسى تكليمًا؟ أكان الكلام بلفظ وصوت أم ماذا؟ والسمج الآخر الذي تساءل : كيف اتخد الله إبراهيم خليلًا؟ وكيف انعقدت مودة بين الله وعبدة؟

ثم دعك من تقليد المعتزلة لليونان في نظر تفكيرهم البالى ، لقد اقتفيوا أثر أرسطو في فهم الألوهية ، ومعروف أن أرسطو أوغل في تنزيه إلهه حتى قطع علاقته بالأرض وما فيها ، لأنه أكبر من ذلك !

وجريدة من أن تكون له صفة فوق الذات ، لأن مقتضى التوحيد أن يعلم بذاته ، ويرحم بذاته ، ويقدر بذاته ، فلا تكون له صفات العلم والرحمة والقدرة . !!
وهذا التفكير لا وزن له من ناحيتي العقل والنقل ، ولكن المؤثرين قدماً بالغزو الثقافي تبنوه وشغلونا به ، وأقحموه إقحاماً على تفكيرنا النظيف ...

ماذا لو بقى منهج السلف يخط أصول الإيمان كما ورثناها عن نبينا وصحابته ، واستغل الجمهور بما يرفع مستواه في معاشه ومعاده؟

تلك صورة سريعة للهيجان العقائدي الذي اكتنف تاريخنا العلمي أول الأمر ثم تلاشى منه ما تلاشى وبقى منه ما بقى ...

على أن هناك خلافات قد تنشأ من التدبر الذاتي للنصوص ، وقد نظرت في هذه الخلافات فوجدت ما بها من نزق واستطالة أكثر مما بها من ذكاء وتعبد لله . فقضايا خلق الأفعال ، والتحسين والتقبیح كان يمكن علاجها بأفضل من الأسلوب الذي مزق الشمل وقسم الأمة ..
نعم من شيوخنا من رأى أكثر الخلافات لفظياً لا ثمرة له ، فالذين أنكروا رؤية الله مثلاً أنكروا رؤية مادية لها جهة وتحيز وانحصار! والذين أثبتوها لم يقرروا لها هذه الخواص ولم يقيسوا غائباً على شاهد

والذين قالوا بالصلاح والأصلاح لم يحسنوا اختيار العبارة المذهبية ، وهم إنما عنوا وصفه بالحكمة والرحمة كما قال تبارك اسمه عن نفسه : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَحْمِمَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴾ (١).

(١) الأنعام : ١٢.

وهذا الجدل بعيد عن دائرة العقيدة عند أولئك المعقدين ، يقول الشيخ محمد المدنى : إنها نظريات كلامية لا عقائد تعتمد على اليقين الذى يحف أصول الإيمان ، فإن المسلمين متفقون على أن الله موصوف بكل كمال منه عن كل نقص ، ثم تأدى الجدل بعلماء الكلام إلى تساؤل : هل يجب على الله فعل الصلاح والأصلح أم لا يجب ؟

فمن الناس من ينظر إلى الصلاح والأصلح على أنهما كمال وجمال ويرى إيجاب ذلك على الله - لأنه أوجب على نفسه الرحمة - وهو متصرف أبداً بكل كمال . . . ومن الناس من يقول : لا يجب على الله شيء ، لأن الإيجاب تقيد ، والله جل وعلا ليس عليه قيد ، ولا يمكن أن نوجب عليه شيئاً ، ومن ثم يرفضون القول بأنه يجب على الله فعل الصلاح والأصلح . . .

كلا الفريقين عند التأمل يقصد إلى تقرير الكمال الأعلى ، وإلى تنزيهه - سبحانه وتعالى - عما لا يليق به . . . ولكن اختلفوا في إدراك هذا الشيء بالذات . هل هو من قبيل الكمال في جانب الله؟ أو هو يعد نقصاً في جانبه؟ فلا يثبته مؤمن إلا وهو معتقد أنه كمال ، ولا ينفيه مؤمن إلا وهو معتقد أنه نقصان .

نقول : هذا اعتذار لبق عن المعارك التي أدارها الكلاميون قديماً ، وهي معارك كنا والله في غنى عنها ، اختلفت فيها الترف العقلى وغناها وشغلت بها الجماهير عن خير الدنيا والآخرة ، وبقيت في كتب العقائد ذكريات مؤسفة . . . !

وها قد سلح الإسلام من عمره المديد أربعة عشر قرناً ، وعانت أمته أيامًا عصيبة لانطلاقها بغير قواها ، وإلى غير وجهتها . . !

ونحن ما نقلق من كثرة المذاهب الفكرية في شئون الأدب والحياة ، ولا من كثرة هذه المذاهب في ساحات العبادة والمعاملة مadam المفكرون المختهدون من أهل الذكر وذوى الأصلة العلمية والخلقية . . .

وأنا نكره التفرق في المعتقد ، والتحزب في أصول الديانة ، ونؤثر دراسة العقائد من منهاجها القرآني ونبعها النقي كما تدفق به الوحي الأعلى ، ونهض عليه سلفنا الصالحون . . . والسلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعاً من العرب وتحيا على نحو اجتماعي معين ، إننا نرفض هذا الفهم ونأبى الانتماء إليه . . .

إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله دون نظر إلى عرق أو لون؟ .

وفهمها للإسلام وعملها له يرتفع إلى مستوى عمومه وخلوده وتجاويه مع الفطرة
وقيامه على العقل ...

وقد رأيت ناساً يفهمون السلفية على أنها فقه أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رضي الله عنه ، وهذا خطأ ، ففقه أَحْمَدُ أحد الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا ، ورأيت ناساً يفهمون السلفية على أنها مدرسة النص ، وهذا خطأ؟ فإن مدرسة الرأى كمدرسة الأثر فىأخذها من الإسلام واعتمادها عليه ..

والحديث النبوى الشريف ليس حكراً على طائفة بعينها من المسلمين ، بل إنه مصدر رئيسى للفقه كله ...

ورأيت ناساً تغلب عليهم البداءة أو البدائية يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة ولا يحسنون الانتفاع بها في الرسالة الإسلامية وحماية تعاليماها ، يرفضون الحديث في التليفزيون مثلاً ، لأن ظهور الصورة على الشاشة حرام ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزل ، والإنكار ، وهذا في الحقيقة لا سلف ولا خلف ، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد ...

ورأيت ناساً يتبعون الأعنت ، والأغلظ الأغلظ كل رأى قيل ، مما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم ، وينغص معايشهم ، ويخرب مسيرة المؤمنين في الدنيا ، ويأوى بهم إلى كهوفهاظلمة ..

وهؤلاء أيضاً لا سلف ولا خلف ، إنهم أناس في انتسابهم إلى علوم الدين نظر ، وأغلبهم معتل التفكير ..

ورأيت ناساً يتبعون إلغاء الرقيق بعيون كئيبة! قلت لهم ألا تعرفون أن هؤلاء العبيد هم أحرار أولاد أحرار اختطفتهم عصابات النخاسة من أقطارهم ، وباعتهم كفراانا وعدوانا ليكون لكم خدماء ، وهم في الحقيقة سادة؟

ما السلفية التي تقر هذا البلاء؟ وما هؤلاء العلماء الذين صاقوا بتحريرهم ، وإلغاء بيعهم وشرائهم؟

ورأيت ناساً يقولون : إن آية ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾⁽¹⁾ مرحلية! فإذا أمكنتنا اليidan لانبقى على أحد من الكافرين!

(1) البقرة: 189.

قلت : ما هذه سلفية ، هذا فكر قطاع طرق لا أصحاب دعوة شريفة حصيفة ، وأولئك لا يؤمنون على تدريس الإسلام لجماعة من التلامذة بله أن يقدموه في المحافل الدولية والمجاهيل العالمية ...

إن العالم الإسلامي الآن متخلَّفٌ حضارياً ، ومُضطربٌ أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً ، وبينه وبين الأمم القائدة الصاعدة أمد بعيد ...

هذه الأمم تعلم ظاهراً من الحياة الدنيا ، وتفتقر إلى جيل من البشر يذكرها بالله ولقائه . والإسلام وحده هو المالك لهذه الحقائق الهدادية ، ولكن تؤدي أمته رسالتها يجب عليها أمران : الأول : أن تطوى مسافة التخلف الحضاري ، والاضطراب الإنساني الذي يشنينا ولا يزينا ...

والثاني : أن تتقدم بشرف وكىاسة لتقول للناس كلهم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^(١).

ولكن ننجح في عملنا يجب أن نقتفي آثار سلفنا ...

والسلفية هنا عنوان كبير لحقيقة كبيرة أساسها العقل الحر المكتشف الدءوب ..

إن هذا العقل عندما رغب عن البحث في الذات العليا وحقيقة الصفات ، كان يحترم نفسه ، والعلم المعاصر نجح أيماناً نجاحاً عندما بحث في المادة التي بين يديه ولم يبحث في ربها - سبحانه - فأئن له البحث فيما لا يملك ولا يقدر؟

من أجل ذلك نرفض النظريات الكلامية ، ونقبل المذاهب الفقهية ، ونصنع الشبكة القانونية التي يتطلبها انتقال الحياة من طور إلى طور ...

ومن أجل ذلك نهش للتقدم العلمي ونطوعه لنصرة مبادئنا ومثلنا ...

ومن أجل ذلك نرى ضرورة إزاحة البلة وذوى العقد النفسية من قيادة الفكر الديني فإنهم غشاوات على البصائر ، وحجب على الضمائر ..

إننا محتاجون إلى فقهاء يمعنون النظر في سياسة المال والحكم ، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الغفيرة في هذه الميادين الخطيرة . ومحاججون إلى فقهاء يهيمنون على شئون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشة لا بالتزمت والتکلف ..

* * *

إن الفقه الإسلامي كما قدمه سلفنا خلق حضارة معجزة ، أما الفقه الإسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يحيى ولا يحيى ...

(١) النساء : ٧٤

بين النص والمصلحة

جرت على الألسنة عبارة غامضة ، أن عمر بن الخطاب ألغى بعض النصوص أو أوقف العمل بها على نحو ما ، لأنه رأى المصلحة في ذلك .

وهذا كلام خطير ، معناه أن النص السماوي قد يخالف المصلحة العامة ، وأن البشر لهم - والحالة هذه - أن يخرجوا عليه ، ويعدموا وكلا المعنيين كاذب ومفروض ، فلا يوجد نص إلى ضد المصلحة ولا يوجد بشر يملك إلغاء النص ولننظر إلى ما نسب لعمر رضي الله عنه في هذا الشأن ، قالوا : منع سهم الزكاة أن يصرف للمؤلفة قلوبهم بحججة أن الإسلام استغنى عن تأليفهم .

وفهم صنيع عمر على أنه تعطيل للنص خطأ بالغ ، فعمر حرم قوماً من الزكاة لأن النص لا يتناولهم لا لأن النص انتهى أ منه .

هب أن اعتماداً مالياً في إحدى الجامعات خصص للطلبة المتفوقين ، فتختلف في المضار بعض من كانوا يصرفون بالأمس مكافآتهم ، فهل يعد حرمانهم إلغاء الاعتماد؟ إنه باق يصرف منه من استكملوا شروط الصرف .

وقد رفض عمر إعطاء بعض شيوخ البدو ما كانوا ينالونه من قبل تألفاً لقلوبهم أو تجنبًا لشروطهم بعد ما استطاع الإسلام أن يهزم الدولتين الكبيرتين في العالم ، فهل يظل على قلبه من أولئك البدو النهايين أمثال عباس بن مردارس والأقرع بن حابس؟ وبعد هزيمة كسرى وقيصر يبقى الإسلام يتالف حفنة من رجال القبائل الطماعين؟ ليذهبوا إلى الجحيم إن رفضوا الحياة كغيرهم من المسلمين ..

إن مصرف المؤلفة قلوبهم باق إلى قيام الساعة يأخذ منه من يحتاج الإسلام إلى تألفهم ، ويزاد عنده من لا حاجة لـ الإسلام إليه .

وعمر وغيره من الخلفاء والحكام أعجز من أن يعطّلوا نصاً ، وأنقى من أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله ، ويجب أن تفهم التصرفات بدقة ولا تساق التهم جزاً ..
درء الحد بالشبهة؟

وقالوا : إن عمر عطل حد السرقة عام المجاعة ... نقول : إن الجائع الذي يسرق ليأكل أو ليؤكل أولاده لا قطع عليه عند جميع الفقهاء ، فما الذي عطله عمر؟

إن قطع السارق المعتدى الظلوم هو حكم الله إلى آخر الدهر ، ولا يقدر عمر ولا غير عمر على وقف حكم الله .

ولإقامة الحد شروط مقررة ، فمن سرق دون نصاب ، أو سرق من غير حرز لم تقطع يده ، ولا يقال عطل الحد ، بل يقال : لم يجب الحد .

والذى حدث أيام عمر أن المدينة وما حولها تعرضت لقطح عام ، وفي عصرنا هذا نسمع بمجاعات فى آسيا وإفريقيا يهلك فيها الألوف وليس بمستغرب أن يخرج الناس من بيوتهم يطلبون القوت من أى وجه وقد يحملهم ذلك على الخطف والسرقة ، فهل تعالج تلك الأحوال بالسيف؟

إن عمر درأ الحد بالشبهة - كما أمرت السنة الشريفة - ولا يعب إذا توسع فى هذا الدرء ، وقدر آلام الجياع فى تلك المحن المبتلة ..

ذلك تفسير ما روى عنه ، وقد قال فيه «إنا لانقطع فى عام جدب» وقد نقلنا فى مكان آخر من كتبنا اكتشافه لعيلة بعض العمال ، وقلة الأجور التى يتلقاها مع وفائهم بالأعمال التى يكلفون بها ، ورفضه - رضى الله عنه - لقطع أيدى الغلمان الذين سرقوا ناقة لابن حاطب بن أبي بلتعة .

وظاهر مسلكه إجراء استثنائى تجاه ظرف استثنائى ، وأنه نفذ الحد عندما وجب ، ودرأه بالشبهة عندما لم يقم ، ولا يمكن أن يفهم ذلك بأنه وقف للنص أو تعطيل له .

جواز تقييد المباح :

وقالوا : إن عمر حرم الزواج بالكتابيات معطلاً بذلك قوله تعالى :

﴿ .. وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ .. ﴾ (١).

ونقول : إن الزواج باليهوديات والنصرانيات مباح على الصفة التى ذكر الكتاب العزيز . فمن شاء فعل ومن شاء ترك وفق رغبته ، وقد تقوم حواجز على الفعل أو على الترك لاتغير الحكم الأصلى .

فيإذا رأى الشخص أن ذلك الزواج وسيلة هداية إلى الحق فعل ، وإذا رأى أحد أن ذلك يجعل سوق المؤمنات كاسدة ترك ، ونصح غيره بالترك ، وهذا ما فعله عمر .

(١) المائدة : ٥ .

قال ابن جرير بعدما حكى الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لمعنى آخر ، ثم قال : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر «خل سبيلها» فكتب إليه حذيفة : «أترعمن أنها حرام فأخل سبيلها» فقال عمر : «لا أرعن أنها حرام ، ولكنني أخاف على المؤمنات أن تزهدوا فيهن وتقبلوا عليهن» أو كما قال . ونظرة عمر موضع تقدير ، وهي لا تلغى نصاً كما رأيت ولكنها تلفت النظر إلى مصلحة اجتماعية تجعل تناول المباحثات أدق وأشد

وللفقهاء بحوث في تقييد المباح ، وفي عصرنا الحرج حكومات كثيرة إلى حظر الزواج من الأجنبيةات على رجال السلكين السياسي والعسكري ، وإنما تفعل ذلك حفاظا على أسرارها وأمانها .. .

ويرى الشاطبي أن تقييد المباح لا شيء فيه إذا كان من دائرة «العفو» أي ما سكت الشارع عنه أما إذا كان هناك نص بالإباحة فلا مكان لقيد ما ، حتى لا نحرم ما أحل الله

وهذا نظر دقيق ، وفي قضية الزواج باليهودية التي كرهها عمر نراه أكد أصل الخل والحرمة ، ولكنه كره من رجل كبير مثل حذيفة بن اليمان أن يسمى إلى المؤمنات بما قد يضيرهن

إن المصلحة لابد من رعايتها ، ومعنى النص الشرعي أن المصلحة ارتبطت به أبداً ، فهو دليلها وضمانتها وأى تعطيل له فهو خدش للمصلحة أو تطويق لها .. .

ونحن نلحظ في العقوبات الشرعية المنصوص عليها أنها تناولت عدداً معيناً من الجرائم ، فالحدود المقررة تعد على الأصابع ... ويستطيع الحاكم في جرائم لا تخصى أن يضمن المصالح بما يشاء من عقوبات .

هناك جرائم الربا والغصب والفرار من القتال والغش والخيانة وكذلك أكل مال اليتيم وكل أنواع العدوان على المال والعرض والدم التي لا تتناولها الحدود أو ضروب القصاص ، وهذه سيئات كثيرة ودائرة التعزير تسعها ، والقضاء يقدر على إصداد ما يرى من عقوبات تحفظ مصالح الأمة وتقر الأمان هنا وهناك .

إمضاء أمر الله نماء وبركة :

إن المصلحة لا يمكن أن يحفظها تعطيل نص ، فإن إمضاء أمر الله نماء وبركة وفي الحديث أن أبا هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ : «لحد يقام في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطر وأثلاثين صباحاً» .

وعندما يشكل المجتمع بالوعد والوعيد والرغبة والرهبة وفق أوامر الله سبحانه ، فإن الرخاء يعم والشُّؤم يستخفى والمخاوف كلُّهُنَّ أمان ..
والفقه الصحيح أن نتعرّف على المصلحة حيث لا نص ، وأن نجتهد في تفهمها ثم تحقيقها ناشدين إرضاء الله وخير الأمة .

الإسلام مثلاً لم يضع رسمًا محدداً لأسلوب الحكم ، وإنما وضع له أخلاقاً وقيماً تسان ، فكيف نولى حاكماً وكيف نعزله؟ وكيف نحاسبه ونراقبه؟ وما هي أجهزة الشورى؟ وكيف نستوثق من التقاء الآراء الناضجة فيها؟ وكيف غضى في مجريها دون إرهاب أو إغراء؟

للأمم في هذه الميادين أن تجتهد في وضع النظام الذي يحقق مصلحتها دون قيد ما .
وأذكر أن أحد الناس سألني - ورئيس الجمهورية يختار لبعض سنين - فقال أليست هذه بدعة؟ قلت : ما البدعة؟ قال توقيت مدة الرئاسة . فإن الأصل اختيار الحاكم مدى الحياة .

قلت له : التوقيت والإطلاق سواء من الناحية الفقهية ، وتتواضع الأم على ما تراه أكفل لحقوقها ، فإذا أثرت أن يكون اختيار الحاكم لأمد معلوم فلها ذلك .. قال : كان اختيار الخليفة الأول مدى الحياة ..

قلت : لقد أثر الصحابة أحد الوجوه ولا تحريم للوجه الآخر ..
قال : ألا يكون سنة؟ قلت : لا .. لا سنة إلا بنص ، ولا نص هنا .
إن فعل النبي ﷺ . قد يكون دليلاً لإباحة ، وقد يكون دليلاً لأفضلية ، ولا وجوب أو ندب إلا بدليل أو بنص .

وفي مجال المصالح المرسلة يستطيع الساسة المسلمون أن يصنعوا الكثير لأمتهم على ألا يصطدموا بنص قائم ، فإن هذه النصوص معاقد المصلحة العامة وإن عميت عن ذلك أنظار .

الأصل في العبادات التوقيف وفي المعاملات التعليل :

وتتصل النصوص بنوعين من السلوك يغاير أحدهما الآخر ، وذلك التغاير يرجع بدءاً إلى الطبيعة البشرية فهناك أعمال محتملة يبادرها الناس دون انتظار وحى ملهم كالزواج مثلاً ، فإن البشر منذ بدء الخليقة اتجهوا إلى إجابة غرائزهم بالزواج ، ولبقاء

نوعهم ولتجميل معيشتهم .. فلما جاء الدين كان إرشاده لهذا النوع من السلوك رفض الزواج بالمحارم وبناء الأسرة على الاختيار لا على الإكراه وتشريع آداب كثيرة في العلاقات الجنسية وما ينشأ عنها .

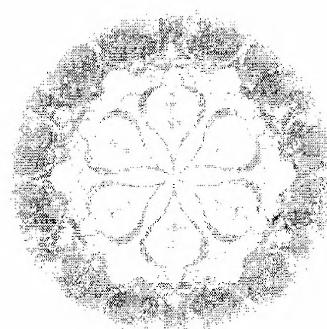
وقد تباعي الناس قبل مجيء الوحي ، فلما بعث الرسل هذب المعاملات التجارية بما صانها من الغش والقسر والربا والاحتكار وغير ذلك من تظلمات الأثرة والجشع .

فالتشريع في ميدان المعاملات - كما قال فقهاؤنا - يقوم على رعاية المصلحة وضبطها ، ثم إشراب هذه المعاملات رقابة الله وانتظار ثوابه .

لكن هناك تشريعات أخرى تتصل بعبادة الله سبحانه ، إننا قد نعرف ربنا بفطرتنا السليمة ، بيد أن الأسلوب الذي نترجم به عن حبنا له وعن خصوتنا وإخلاصنا ليس من وضعنا نحن .. إنه من حق الله وحده ، فهو الذي يعرفنا بأسمائه الحسنى وهو الذي يعلمنا كيف نصلى له وكيف نصوم وكيف نحج بيته العتيق .

إن نصوص العبادات أو المعاملات سواء في ضرورة الاحترام والإنفذ ، ومن حسن الفقه أن نعرف المحور الذي تدور عليه التعليمات الدينية في كل المجالين .

وفي ذلك يقول الإمام الشهيد حسن البنا «رأي الإمام وناته فيما لا نص فيه وفيما يتحمل وجهاً عدداً، وفي المصالح المرسلة، معمول به مالما يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التبعد دون الالتفات إلى المعانى، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد» .



الفهرس

٣	المقدمة
٥	١ - المسلمين فى أسوأ أيامهم ولكن يوم الإسلام .. قادم ..
١٢	٢ - الإسلام مع تعدد الأحزاب ويرفض شطط الاجتهاد ..
١٩	٣ - حتى نحسن أنفسنا
٢١	٤ - إحياء الولاء لله ..
٢٣	٥ - الدين الحق ... !
٢٥	٦ - القوامة لا تعنى القدرة .. !
٢٨	٧ - لم نتعصب لما نألف .. !!؟ ..
٣٠	٨ - التعصب للحق ..
٣٨	٩ - الموت فاصل خفيف بين الوجودين ..
٤١	١٠ - من هم أصحاب الأعراف ؟ ..
٤٤	١١ - الذى يستحيل أن يعاب ..
٤٨	١٢ - الأسلوب الأمثل فى العلاقة بين الرجال والنساء ..
٥١	١٣ - كن مع أهدى الفريقين ..
٥٤	١٤ - حقائق القرآن تزداد قوة ..
٥٧	١٥ - لنستبعد الواهيات والمتروكات ..
٥٩	١٦ - لماذا أنسى ربى ؟ يجب أن أنعطف إليه وألوذ به ..
٦٣	١٧ - من أعظم القربات لدى الرحمن ..
٦٦	١٨ - لا علاقة للتخصص بموازين العدل الإلهي ..

٧٠	١٩ - فكر طفولي جدير بالفضح
٧٤	٢٠ - حوار
٧٨	٢١ - ما أشد بلاء أمتنا بهؤلاء الناس !!
٨٢	٢٢ - هيئات فلا وجود لمستحيل !!
٨٥	٢٣ - هل نستطيع أداء رسالتنا ونحن صرعنى هذه الغفلة ؟
٨٨	٢٤ - يطلبون ملحاً للامتحان .. !
٩٢	٢٥ - فيا موت زر .. إن الحياة دمية
٩٥	٢٦ - الأخلوّقات .. ليست سيارات انقطعت صلتها بتصنيعها
٩٨	٢٧ - لذات متشابكة لا انفصام بينها
١٠٣	٢٨ - قصة عقلق مع ابنة غولدا مائير
١٠٥	٢٩ - متى تؤدي المرأة حق زوجها ؟
١٠٨	٣٠ - أنا حار العاطفة .. لا حاد الطياع
١١٨	٣١ - الإنسانية في حاجة إلى البعث الإسلامي
١٢٣	٣٢ - جهاز عالمي لدعم الأخلاق والقيم
١٢٧	٣٣ - يا أيتها النفس المطمئنة
١٢٩	٣٤ - الأم لاتقام بالهميمة والبطالة
١٣٠	٣٥ - نرفض الشذوذ والإباحية
١٣٢	٣٦ - الإسلام دين ودولة
١٣٤	٣٧ - إصلاح النفس البشرية
١٣٦	٣٨ - إنصاف الإسلام للمرأة
١٣٨	٣٩ - للفضائل دعائم اقتصادية
١٤١	٤٠ - سورة النور ودورها في بناء الأسرة المسلمة

٤١ - هل للرذائل أسباب اقتصادية؟	١٤٧
٤٢ - الفكر الإسلامي بين التقوّع المعجز والانفلات الصال	١٥١
٤٣ - في النظام العالمي الجديد .. القوي يأكل الضعيف	١٦٦
٤٤ - عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق	١٧٤
٤٥ - هزائم إسلامية .. رهيبة النتائج	١٨٢
٤٦ - الإنسان في القرآن	١٨٥
٤٧ - نحو سلفية واعية	٢٠١
٤٨ - بين النص والمصلحة	٢٠٦